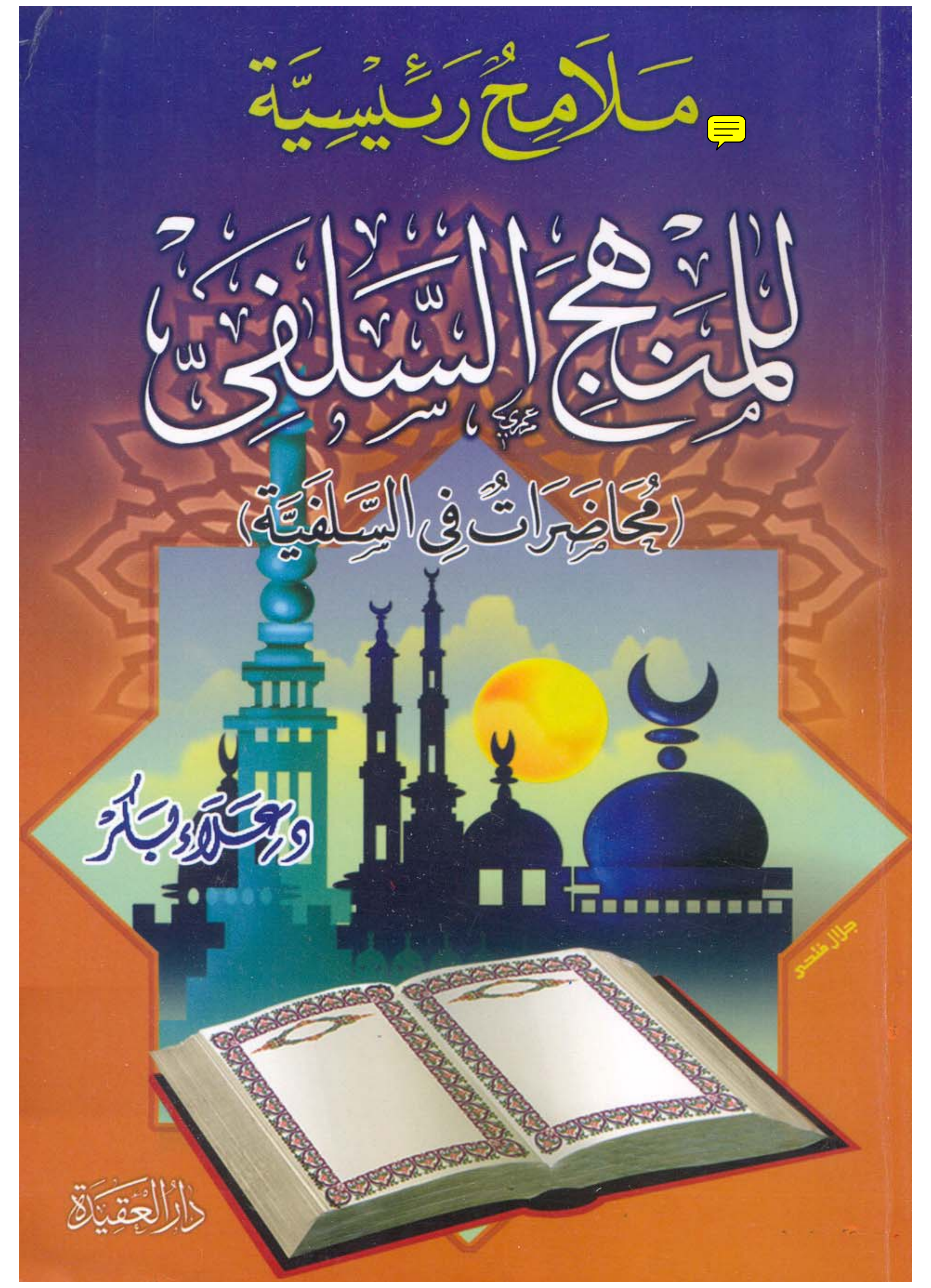
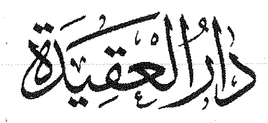

ملامح رئيسية
للمنهج السلفي
(محاضرات في السلفية)
د. علاء بكر
دار العقيدة

ملامح رئيسية للمنهج السلفى

تأليف

د. علاء بكر



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

[آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾

[النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى، وإن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين.

هل نحن أمة لا ماضي لها تعتبر به، هل نحن أمة لا منهج لها تسير عليه. . . هل نحن نحتاج إلى الأخذ بمناهج الشرق تارة وبمناهج الغرب تارة، أملاً في الخروج مما نحن فيه. لقد تعرضت أمتنا عبر تاريخها الطويل لفترات من الضعف والتخاذل، ولاقت مرات من الفشل والهزائم، ولكنها كانت تقوم من كبوتها في كل مرة فور عودتها إلي التمسك بكتاب ربها وسنة نبيها ﷺ. فما بالنا بعد أن تخلصنا من الاستعمار وحررنا إرادتنا بالاستقلال لم نرجع إلى التمسك بديننا، وآثرنا أن نجرب مناهج الغرب والشرق التي لا تهتدي بهدي السماء.

لقد عاشت مصر -على سبيل المثال- قبل الإسلام قروناً في ظل حكم الرومان، تابعة مقهورة، وما إن فتحها عمرو بن العاص ورفاقه رضي الله عنهم حتى تحولت من رق العبودية للرومان إلى عز الحرية والإسلام، وتبدلت من تابعة مقهورة إلى رائدة منصورة، فشارك المصريون بنصيب وافر في الفتوحات الإسلامية في إفريقيا وغيرها، وهزموا التتار العتاة، ودحروا الصليبيين الغزاة، وكان فيهم من العلماء البارزين والرجال الناجحين الكثير والكثير. وكنا جزءاً من حضارة إسلامية عظيمة بلغ اتساعها الأفاق وأدركت أمجادها عنان السماء، فلما طال بنا الأمد وقست قلوبنا وبعدنا عن الكتاب والسنة والاقتداء بسلف الأمة صرنا إلى ما نحن فيه من الهوان والضياع.

يقول الله تعالى: **﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾** [الحديد: ١٦].

ويقول تبارك وتعالى: **﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾** [النور: ٥٥].

لقد أدرك شباب الصحوة الإسلامية في كل المجتمعات الإسلامية حتى في المجتمعات الأوروبية الغربية -أنه لن يصلح هذه الأمة إلا بما صلح به أولها. . . الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة، وها هي الدعوة السلفية تلقى بحمد الله تعالى المؤيدين والمنتسبين في كل مكان. . . ولما لا. . . وهي دعوة التوحيد الموافقة للفطرة. . . وهي العلم النافع والعمل الصالح والأخذ بالإسلام كله.

ولكن أعداء الإسلام من العلمانيين والمستغربين يأبون إلا أن يعزلوا أنفسهم عن تيار الصحوة وجمهورها بإظهار العداوة باللسان تارة -وما تخفي صدورهم أكبر- وبالطعن في هذه الدعوة تارة أخرى. . . وهيهات فالقافلة تسير. . . وتوفيق الله تعالى لجهود الدعاة كبير. . والأمة بحمد الله تستجيب. . والباطل يندحر. . . ولله الحمد والمنة.

إن المذهب السلفي هو المذهب الذي يمثل الإسلام نقياً كما نزل، ويصوره أصدق تصوير، بالتزام الكتاب والسنة منهجاً وطريقاً، وفق فهم قرون الخيرية سلف الأمة من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين الذي بهم قامت حضارة الإسلام العظيمة، وكانت لهم بفضل توفيق الله تعالى لهم دفعة قوية حافظت على استمرار الأمة في علوها وقيادتها للبشرية قروناً طويلة.

والناس اليوم أحوج ما يكونون إلي التمسك بالمنهج السلفي، والتزام هدي السلف في العقيدة والعبادات والأخلاق والسلوكيات، وبالعلم النافع والعمل الصالح، والتعرف على موقف المنهج السلفي من القضايا التي تقوم عليها حياة الناس المعاصرة.

ومن هنا أقدم هذا الجهد المقل لإخواني من طلبة العلم ومحبيه على أمل أن أكون قد ساهمت بشيء -ولو يسير- في توضيح المنهج السلفي وإبراز ملامحه لكل من يريد أن يتعرف عليه.

ولا أنسي أن أقدم شكري وامتناني لكل من عاونني في إظهار هذا العمل وتقديمه. وأخص بالذكر شيخنا الفاضل ياسر برهامي الذي لم يبخل بوقته وعلمه في التوجيه والنصح والإرشاد فجزاه الله عني خيراً.

اللهم تقبل . . . واغفر وارحم . . . واعفو عما تعلم . . . والحمد لله رب العالمين.

علاء بكر

الأسكندرية

جمادي الأولي ١٤٢١ هـ

يونيو ٢٠٠١ م

ملامح رئيسية للمنهج السلفى

أولاً

ملامح نظرية للسلفية

السلفيـة

* لغــــــةً
* شــرعــاً
* تاريـخــاً

معنى السلفية لغة

سَلَفَ: تقدم. السَّالفُ: المتقدم.

قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾[الزخرف: ٥٦].

قال الفراء: يقول جعلناهم سلفاً مُتقدمين ليتعظ بهم الآخرُون.

قال الجوهري: سَلَفَ يَسْلُفُ سَلَفاً، مثالُ طَلَبَ يَطْلُبُ طَلَباً أى مضى.

وسَلَف الرجل: آباؤه المتقدمون.

والسلف أيضا: من تقدمك من آبائك وذوى قرابتك الذين هم فوقك فى السن والفضل. وأحدهم سالفٌ ومنه قول طفيل الغَنَويِّ يرثى قومه:

مضوا سَلَفاً قَصْدُ السبيلِ عليهمُ وصَرْفُ المنايا بالرجــالِ تَقَلَّبُ

أراد أنهم تقدمونا، وقَصْدُ سبيلنا عليهم، أى نموت كما ماتوا، فنكون سلفاً لمن بعدنا، كما كانوا سلفاً لنا. وقيل: سلف الإنسان من تقدمه بالموت من آبائه وذوى قرابته. ولهذا سمى الصدر الأول من التابعين السلف الصالح(١).

ومذاهب السلف: مذاهب المتـقدمين من الإسلام وشرعاً كـل من يُقلِّدْ ويُقْتفي أثره فى الدين.(٢)

لفظ سلف فى القرآن الكريم

ورد لفظ (سلف) بمعنى تقدم أو مضى فى القرآن الكريم فى مواضع عديدة:

١- قال تعالى: ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾[البقرة: ٢٧٥].

---

(١) راجع فى ذلك: لسان العرب لابن منظور جـ٣ ص٢٠٦٨-٢٠٧٠ ط. دار المعارف.

(٢) محيط المحيط: بطرس البستانى جـ٣ / ٩٨٣ .والسلفية لغة مصدر صناعي في آخره ياء وتاء.

- فى السنة النبوية: وردت كلمة (السلف) بمعنى (السلم)، وحـقيقته شرعاً بيع مـوصوف فى الذمة ببدل يعطى عاجلاً، والعلماء على مشروعيتـه إلا ما حكى عن ابن المسيب. عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يسلفون فى الثمار السنة والسنتين (أى إلى السنة والسنتين) فقال: من أسلف فى تمر فليسلف فى كيل معلوم (أي: إذا كان مما يكال) ووزن معلوم (أي: إذا كان مما يوزن) إلى أجل معلوم. متفق عليه.

وقد ورد لفظ (سـلف) بالمعنى الوارد فى القرآن الكريم فى أحـاديث نبوية عـديدة. كالحديث عـن المسيح الدجال (انظر زاد الميعاد وخطبـته صلى الله عليه وسلم فى صلاة الكسوف). وإخباره صلى الله عليه وسلم لفـاطمة ابنته رضي الله عنها بقرب أجله وأنها أول من تلحقه وأنه خير سلف لها.

٢- قال تعالى: ﴿وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢].

٣- قال تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾[النساء: ٢٣].

٤- قال تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾[المائدة: ٩٥].

٥- قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾[الأنفال: ٣٨].

٦- قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾[يونس: ٣٠].

٧- قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾[الحاقة: ٢٤]

٨- قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ﴾[الزخرف: ٥٦].

ومن الناحية التاريخية فالمراد بالسلف: الصحابة والتابعون وتابعوهم مَنْ وافق الكتاب والسنة، فمن خالف برأيه الكتاب والسنة فليس بسلفى وإن عاش بين أظهر الصحابة والتابعين وتابعى التابعين. ∴ ابن تيمية ليس من السلف ؟!

معنى السلفية اصطلاحاً

واصطلاحاً: فالمراد بمذهب السلف ما كان عليه الصحابة الكرام رضوان الله عليهم والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين، وأتباعهم وأئمة الدين ممن شُهِدَ له بالإمامة وعُرِفَ عظم شأنه فى الدين، وتلقى الناس كلامهم خلفاً عن سلف، كالأئمة الأربعة وسفيان الثورى والليث بن سعد وابن المبارك والنخعى والبخارى ومسلم وسائر أصحاب السنن، دون من رُمِيَّ بالبدعة أو شهر بلقب غير مرضى مثل: الخوارج والروافض والمرجئة والجبرية والجهمية والمعتزلة[1]. فكل من التزم بعقائد وفقه هؤلاء الأئمة كان منسوباً إليهم وإن باعدت بينه وبينهم الأماكن والأزمان، وكل من خالفهم فليس منهم وإن عاش بين أظهرهم وجمع بهم نفس المكان والزمان[2].

---

(١) ابن حجر القطرى فى كتابه (العقائد السلفية بأدلتها العقلية والنقلية).

(٢) معالم الانطلاقة الكبرى: محمد عبد الهادى المصري.

فمن حيث المصطلح أصبحت (السلفية) عَلَماً على أصحاب منهج الاقتداء:-

١- بالسلف من الصحابة والتابعين من أهل القرون الأولى.

٢- وكل من تبعهم من الأئمة كالأئمة الأربعة وسفيان الثورى وسفيان بن عيينة والليث بن سعد وعبد الله بن المبارك والبخارى ومسلم وسائر أصحاب السنن.

٣- وشمل شيوخ الإسلام المحافظين على طريقة الأوائل مع تباين العصور وتفجر مشكلات وتحديات جديدة أمثال ابن تيمية(١) وابن القيم ومحمد بن عبد الوهاب(٢) رحمهم الله.

٤- وكذلك أصحاب الاتجاهات السلفية المعاصرة بالجزيرة العربية والقارة الهندية ومصر وشمال أفريقيا وسوريا.(٣)

مضمون السلفية

ومن حيث المضمون: فالسلفية هى منهج الإسلام فى ذروته الشامخة وقمته الحضارية،(*) وتوجيه إلى النموذج الذى طبقه ونفذه وحققه عملياً من القرون الأولي، ومن هذا المنهج وبتطبيق هذه القرون الفاضلة له استمدت حضارة المسلمين مقوماتها وأصولها، ومدارها على التوحيد وفهم دور الإنسان فى الحياة كما ورد فى آيات الكتاب الكريم وسنة النبي ﷺ وبتنفيذ أحكام الشريعة الإلهية بجوانبها المتعددة فى مختلف مجالات الحياة.

فالسلفية منحصرة إذاً فى المدرسة التى حافظت على العقيدة والمنهج الإسلامى بعد ظهور الفرق المختلفة طبقاً لفهم الأوائل الذين تلقوه جيلاً بعد جيل.(٤)

---

(١) جدد ابن تيمية فهم الإسلام على طريقة السلف فى وقت يظن من تصفح تاريخ عصره أن عقول المسلمين قد توقفت وجمدت على أراء المتكلمين والفلاسفة، وشطحت مع فرق الصوفية، وكأنهم نسوا أن معهم القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ.

(٢) قام الإمام محمد بن عبد الوهاب بدعوته للإطاحة بمظاهر الشرك والوثنية التى ملئت الجزيرة العربية فأعادتها إلى دنس الجاهلية مرة أخرى.

(*) بلغت الحضارة الإسلامية ذروتها وقمتها وتحققت فى عصور قرون الخيرية الثلاثة الأولى وهم من نسميهم (السلف) فى اصطلاحنا.

(٣) انظر السلفية بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية د. مصطفى حلمى ط. دار الدعوة- الإسكندرية ص٣-٤ نقلاً عن أنور الجندى فى الإسلام والثقافة العربية فى مواجهة تحديات الاستعمار وشبهات التغريب ص٤٩ مطبعة الرسالة.

(٤) وانظر فى ذلك (قواعد المنهج السلفي) للدكتور مصطفى حلمى ص٢٣، ص٢٤ ط. دار الدعوة- الاسكندرية.

وقد عرفوا فى فترات بأنهم (أهل الحديث) حيث كان أهل الحديث رواية ودراية هم السائرون على ما كان عليه صحابة النبي ﷺ والمحافظون على ما كانوا عليه علماً وعملاً.(١)

وعرفوا فى أحد الأدوار باسم (أهل السنة والجماعة) استناداً إلى كونهم الملتزمين بجماعة المسلمين المحافظين على عقائد الأمة(٢) وتمييزاً لهم عمن خرج عن عقائد الأمة وشذ عن الجماعة من أهل البدع والأهواء كالخوارج والمرجئة والمعتزلة والرافضة.

والسلفية قبل ذلك كله -وفى مدلولها الخاص- اقتداء بالنبي ﷺ والذى كان سيرته العطرة القمة التى يتطلع إليها سلفنا الصالح وحولوها إلى سيرة حية فى كيانهم.

فالسلفية إذاً ليست من تأسيس بشر، وإنما هى الإسلام نفسه بالفهم السليم علماً وعملاً، وهى تمسك بما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه لا تخرج عما كانوا عليه(*).

والانتساب للسلفية إذاً أمر ممدوح، ومن انتسب إلى مذهب السلف وجب قبول ذلك منه وإقراره عليه:

يقول ابن تيمية رحمه الله: لا عيب على من أظهر مذهب السلف وانتسب إليه، وأعتزى إليه، بل يجب قبول ذلك منه بالإتفاق فإن مذهب السلف لا يكون إلا حقاً، فإن كان موافقاً له باطناً وظاهراً فهو بمنزلة المؤمن الذي هو علي الحق باطناً وظاهراً وإن كان موافقاً له في الظاهر فقط فى الظاهر فقط دون الباطن فهو بمنزلة المنافق فتقبل منه علانيته، وتوكل سريرته إلى الله، فإنما لم نؤمر أن ننقب عن قلوب الناس ولا نشق بطونهم ا.هـ.(٣) فمن أظهر التمسك بالسلف قبل ذلك منه فإن خالف السلف علماً أو عملاً وجه إلى الصواب من علم وعمل السلف الصالح.

---

(١) قواعد المنهي السلفي: ص٢٣-٢٤ .

(٢) المرجع السابق ص٢٣-٢٤ .

(*) ظهرت ملامح متعددة للاتجاه السلفى فى العصر الحديث، وإن بدت فى جهود متفرقة لعلماء فى أنحاء مختلفة من بلدان العالم الإسلامي. كما كان للسلفيين دوراً ظاهراً فى المحافظة على نقاء التوحيد والعقيدة الإسلامية والعبادات، وكذلك الجهاد ضد الاستعمار الغربى الصليبي.

(٣) نقض المنطق لابن تيمية: ص١٢٣ وهذه المسألة بديهية إذ أن الإقرار بفضل السلف يوجب مدح من زعم وأظهر اتباعهم والاقتداء بهم.

بل إن الرجوع إلي السلف فى أمور الدين مما يجب التمسك به، ويدل على حتمية السلفية بهذا الفهم أنه لا يصلح هذه الأمة إلا ما أصلح أولها.

يقول د. مصطفى حلمي: وإذا كان المسلمون يلتمسون اليوم طريقاً للنهوض فليس لهم من سبيل إلا وحدة جماعتهم، ووحدة الجماعة ليس لها سبيل إلا الإسلام الصحيح، والإسلام الصحيح مصدره القرآن والسنة وهذه خلاصة الاتجاه السلفي، عودة بالإسلام إلى معينه الصافى من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .ا.هـ.[(١)]

✪✪✪✪✪

(١) من مقدمة الطبعة الأولى من قواعد المنهج السلفى د. مصطفى حلمي.

ظهور مصطلح السلفية من الناحية التاريخية

ظهر مصطلح السلفية عقب تغيرات عديدة طرأت على المسلمين بعد وفاة النبي ﷺ انتهت بظهور هذا المصطلح.

ويمكن إيجاز هذه التطورات على النحو التالي:-

لم يلحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى إلا وقد بلغ الرسالة كاملة وأدى الأمانة تامة، وأكمل الله به الدين، قال تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾[المائدة: ٣] وفى الحديث أن النبي ﷺ قال: «ما من شئ يقربكم إلى الجنة ويباعدكم عن النار إلا أمرتكم به وما من شئ يباعدكم عن النار إلا وقد نهيتكم عنه».

فبلغ الإسلام كماله قبيل وفاة النبي ﷺ، ولم يعد أهل الإسلام يحتاجون إلى شئ إلا أن يحافظوا على هذا الدين كاملاً كما تلقوه وطبقوه فى عهده ﷺ.

وقد حذر النبي ﷺ الأمة من الإحداث فى الدين، وإدخال ما ليس منه فيه، وأمر بالتمسك بهديه وهدى خلفائه الراشدين والعض عليهما بالنواجذ، ونهى القرآن الكريم نهياً شديداً عن الاختلاف والتفرق فى الدين.

فكان الدين عند ذلك تاماً نقياً ظاهراً بيناً، طرياً كما أنزل، تنقاد إليه القلوب، وتستجيب له الجوارح، والأمة جميعها على قلب رجل واحد، لا يستطيع أحد أن يعمل فيها بالهوى، أو أن يدعو إلى ضلالة، وإلا فالأمة كلها تنبذه وتعاديه أما المنافقون فقد فضحهم الله وكشف عوراتهم فكانت الأمة منهم على حذر.

وأما مسيلمة الكذاب وأتباعه فكان ضلالهم ظاهر لكل ذى عينين، وبالجملة: فكان الدين واضحاً لا غبار عليه.

فماذا وقع فى الأمة بعد ذلك؟

أولاً: جيل الصحابة رضي الله عنهم

كان جيل الصحابة أحرص الأمة على حفظ الدين نقياً كما أنزل، وكانوا على قلب رجل واحد، لم يختلفوا فى عقائد دينهم فى شئ، وكان بمكة والمدينة أعيان الصحابة.

وُتعد حروب الردة وقتال مانعى الزكاة أهم ما تعرض له الصحابة من أحداث خطيرة، ولكن الأمور سرعان ما عادت إلى حالتها الأولى بالقضاء على المرتدين وعودة مانعى الزكاة إلى الحق. ومن ثم ظلت الأمة محافظة على وحدتها وجماعتها.

ولقد تضافر أعيان الصحابة على إقامة الدين وإرساء قواعده، ونشره فى الآفاق، وبذلوا فى ذلك جهوداً كبيرة، مع المحافظة على وحدة الجماعة لذا لم تظهر أى نظريات عقائدية مخالفة لجماعة المسلمين، وما كانت الدعوات الغريبة لتجرؤ على الظهور أمام الملأ بل كانت تختبأ فى طيات الفتن[1].

وما وقع من اختلافات أو منازعات بين الصحابة لم تكن منازعات ذات أراء عقائدية خاصة. حتى الأحداث التى وقعت بعد مقتل عثمان رضي الله عنه لم يصحبها اختلاف عقائدي. إذ كان الجميع على عقيدة دينية واحدة.

فتميز المسلمون فى عهد الصحابة رضي الله عنهم فى فترة ما بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بأنهم ظلوا على عهدهم محافظين [وبعرى الجماعة موثقين وذلك منذ وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وفى ظل خلافة الشيخين فلا نسمع أصواتاً معارضة ذات بال فالإجماع منعقد وتام. ثم انفرط عقد الجمع قليلاً واهتز فى السنوات الأخيرة من سنى عثمان وإن لم تعد المياه إلى مجاريها بخلافة على فقد تمت خلافته على أساس البيعة والشورى أى بنفس الطريقة التى أتى بها سابقوه إلى الخلافة فلم يعتمد فيها على وصية أو نص ولم يشر بكلمة إلى هذا. كما كان الخلاف منحصر فى الخلافة لم يتعداها إلى حجج وأسانيد بعيدة عن العقيدة أو بدع مستحدثة لم يعرفها الأوائل][2].

---

(١) انظر فى ذلك (نظام الخلافة فى الفكر الإسلامي)د. مصطفى حلمى ص٢٨٧-,٢٨٨ ولذلك لم تظهر دعوة عبد الله بن سبأ اليهودى المشهور بابن السوداء والتى أوقعت الفتنة التى انتهت بمقتل عثمان ثم قتال على ومعاوية، وكان ابن سبأ أول من دعا إلى تأليه على بن أبى طالب. وكانت الدعوة سرية مستترة ولم يتنبه لها المسلمون فى عهد عثمان رضي الله عنه وعهد على بن أبى طالب لسريتها. والله أعلم.

(٢) المرجع السابق ص٢٨٩-,٢٩٠

ومن مظاهر حرص الصحابة رضي الله عنهم على وحدة الصف وتقوية الجماعة وتجنب الفرقة والاختلاف :-

١- تضييق الخلاف حول الأحق بالخلافة فى سقيفة بنى ساعدة إذ ترك الأنصار طلب الخلافة واجتمع الجميع على إمامة أبى بكر الصديق. ومشاركة الجميع فى قتال المرتدين وقتال مانعى الزكاة حتى عاد الحق إلى نصابه.

٢- رفض عثمان رضي الله عنه دفاع الصحابة عنه لما حاصره الثوار فى بيته خشية سفك دماء المسلمين ودرأ للفتنة وسعياً لإخمادها. فقتل رضي الله عنه مظلوماً.

٣- تنازل الحسن بن علي رضي الله عنهما عن الخلافة راضياً مختاراً لمعاوية بن أبى سفيان لما رأى اجتماع أهل الشام عليه ومنعتهم وتفرق أتباعه واختلافهم عليه، وذلك جمعاً للكلمة وحقناً للدماء ودفعاً للتنازع والفرقة. حتى سمى عام التنازل (عام الجماعة). وقد قال ﷺ عن الحسن رضي الله عنه : (إن ابنى هذا سيدا وسيصلح الله به بين طائفتين من المسلمين) فكان كما أخبر ﷺ .

ثانياً : أهل الحديث

وَهُم الآخذون بعلم الصحابة رضي الله عنهم ، والناقلون لما كانوا عليه من أمور الدين، وعرفوا أيضاً بأنهم أهل الأثر (وهذه النسبة إلى الأثر أى الحديث وطلبه واتباعه). وأمتد ظهورهم من عصر الصحابة إلى عصر بنى أمية وفترة من حكم العباسيين وخلالها كان الاهتمام بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية وأقوال الصحابة وتفسيراتهم واجتهاداتهم مع حفظها، حفظ صدر، وحفظ كتابة، والعمل بما جاء فيها، فهم أهل نقل ودراية، واتباع واقتداء، وحرص على الالتزام بالدين كما نقله إليهم صحابة النبي ﷺ وأخذوه عنهم.

لقد سار أهل الحديث من التابعين وتابعيهم بالقافلة الإسلامية الكبرى مهتدون بكتاب الله وسنة النبي ﷺ ، مقتفون آثار السلف الصالح، لا يلتفتون إلى من تنحى عن القافلة وخرج عن مسارها من أهل البدع والأهواء، ولم يأبهوا أول الأمر بالعقائد والآراء المنافية للصواب، مطمئنين إلى أغلبيتهم العددية إذ هم جمهور المسلمين. ولكن لما استفحل الخطر بعد ذلك دخلوا الميدان مدافعين عن الحق أمام الباطل[1].

(١) وانظر المرجع السابق: ص٢٩٢ .

وأول انشقاق عقائدى حقيقى ظهر فى الأمة تم على أيدى الخوارج لا بسبب انفصالهم عن كل من عليّ ومعاوية وإنما لرفعهم لشعار (لا حكم إلا لله) وإنكار حق قريش وحدها فى الخلافة وقولهم بالاختيار المطلق دون قيد ولو كان الخليفة عبداً . . . الخ أى أنهم أعلنوا أول حركة تستند على فكر نظرى ونسق معين خاص تنحو به عن الغالبية فيميزهم بذلك عن القاعدة التى انشقوا عنها. ولولا فهم علي بن أبى طالب لخطورة مغزى حركة الخوارج لما تحول لقتالهم تاركاً وراء ظهره معركته الأصلية ضد معاوية. فَفِرَق الخوارج إذاً تُعَدُّ (أقدم انشقاق دينى حدث فى الجماعة الإسلامية) ووقفوا يناضلون عن أراء ونظريات اعتنقوها عن إيمان بها ودافعوا عنها بالسيف ووصلوا فى التطرف إلى آخر مداه مما جعل المسلمين ينظرون إليهم بنفور ويعتبرونهم أصحاب بدع.(١)

وبعد الخوارج كان ظهور الشيعة المناصرين للبيت العلوي.

ولكن انشقاق الخوارج ثم الشيعة لم يؤثر فى الغالبية العظمى والقاعدة العريضة للمسلمين وهم أهل السنة والجماعة الذين لم يتميزوا فى هذه الفترة باسم خاص لأنه لا حاجة تدعوهم إلى هذا التميز فهم الغالبية العددية من جانب والتى تجتمع على العقيدة الإسلامية الخالصة النقية من جانب آخر حيث إنهم ملتزمون بالكتاب والسنة دون غيرهما ولم تكن التيارات المنشقة من الخطورة والكثرة بحيث تحتاج إلى اتجاه معارض يشغل نطاقاً واسعاً لمواجهتها فالأغلبية المسلمة المتمسكة بالكتاب والسنة ومنهج الصحابة كانت هى الأصل الذى انشق عنه المخالفون، والأصل لا يحتاج إلى سمة خاصة تميزه، ولكن الذى يوضع له الإسم المعين لتميزه هو الخارج عن هذا الأصل.(٢) لذا لما سأل رجل الإمام مالكاً رحمه الله تعالى عن تعريف أهل السنة أجابه بقوله: «الذين ليس لهم لقب يعرفون به لا جهمى ولا رافضى ولا قدري»(٣).

---

(١) نظام الخلافة: ص٢٨٨ .

(٢) راجع المرجع السابق: ص٢٨٨-٢٨٩ .

- بدأ التشيع بمناصرة على بن أبى طالب وأولاده فى مواجهة بنى أمية، ثم تحول إلى الغلو فى أئمة البيت العلوى والطعن فى أبى بكر وعمر وعثمان وسائر الصحابة رضي الله عنهم .

- الإمام مالك رحمه الله: هو أبو عبد الله مالك بن أنس إمام دار الهجرة فى وقته، جمع علم المهاجرين والأنصار فى الموطأ أشهر كتبه. توفى فى سنة١٧٩هـ.

(٣) أبو زهرة (الإمام مالك): ص١٨٠ .

ثالثاً: أهل السنة والجماعة

لم يأبه المسلمون الأوائل بما ظهر من نظريات فكرية منافية لما أُخِذَ عن الصحابة رضي الله عنهم مطمئنين إلى كثرتهم العددية، ولكن لما استفحل الخطر، وظهر تعلم الفلسفة ودراسة علم الكلام، وخاض أهل البدع فى عقائد المسلمين بعقولهم وأهوائهم، وأزداد نفوذ المعتزلة، خاصة فى خلافة المأمون(١) على رأس المائتين من الهجرة فما بعدها، دخل أهل السنة الميدان، بمنهجهم المتميز عن أهل البدع من المعتزلة وغيرهم، حيث كان منهجهم مبنياً على تقديم النقل الثابت على العقل، وذم الرأى المخالف للأدلة وتقديم أوهام العقل وخيالاته الذى هو منهج أهل الكلام.

ونحن وإن كنا لا نستطيع أن نقطع بتاريخ محدد(٢) أو واقعة معينة تسببت مباشرة فى ظهور مصطلح واسم (أهل السنة والجماعة) إلا أن لقب السنى كان يطلق فى هذه الفترة فى مقابلة لقب المعتزلي.

رابعاً: محنة الإمام أحمد رحمه الله

ابتلى المسلمون فى زمن الإمام أحمد رحمه الله ببدعة أن القرآن مخلوق وهى مقالة ضالة(٣) ترجع إلى جهم بن صفوان وكان ملحداً عنيداً وزنديقاً زائغاً، وقد تلقى هذه المقالة عن الجعد بن درهم، ولكنها لم تشتهر فى أيام الجعد كما اشتهرت عن الجهم. فإن الجعد لما أظهر هذه المقالة طارده بنو أمية فهرب منهم وسكن الكوفة فلقيه فيها الجهم فتقلد هذه المقالة عنه، ولم يكن له أتباع غيره، فلما تمكن منه خالد بن عبد الله القسرى (الأمير) قتله يوم عيد الأضحى بالكوفة. وذلك سنة ١٢٤ هـ.

---

(١) يتحمل الخليفة العباسى المأمون الكثير من مسئولية ترجمة كتب الفلسفة اليونانية إلى العربية، ومن ثم انتشارها بين المسلمين فجلبت ما جلبته من الاختلاف والفرقة، وساعدت أهل البدع على تأصيل مذاهبهم المبتدعة ووضع القواعد الكلامية لها، حيث خلطوا بدعهم بمصطلحات الفلسفة اليونانية.

(٢) فى تفسير قوله تعالى: ﴿**يوم تبيض وجوه وتسود وجوه**﴾ لابن كثير ورد عن ابن عباس قوله: تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة. وقال عمرو بن قيس الملائى -توفى سنة ١٤٣هـ-: (إذا رأيت الشاب أول ما ينشأ مع أهل السنة والجماعة فارجه) انظر الشرح والإبانة لابن بطة ص١٣٣ .

(٣) مذهب أهل السنة أن القرآن كلام الله غير مخلوق.

وقتل الجهم(*) على يد سالم بن أحوز بأصبهان وقيل بمرو وكان سالم يومئذ نائبها. ثم تقلد هذه المقالة المخذولة عن الجهم بشر بن غياث بن أبى كريمة المريسى المتكلم شيخ المعتزلة، وأحد الذين أضلوا الخليفة المأمون(*) العباسى وجدد القول بخلق القرآن، وتقلد هذه المقالة الباطلة عن بشر القاضى أحمد بن أبى دؤاد، وأعلن هذه المقالة الجهمية، وحمل الخليفة المأمون على امتحان الناس بالقول بخلق القرآن. وكان بسببه ما كان على أهل السنة من الحبس والضرب والقتل وغير ذلك.(١)

وقد أخذ الكثيرون بالرخصة نتيجة الإكراه على ذلك خشية العقوبة المنتظرة ولكن الإمام أحمد رحمه الله جهر عند امتحانه بمعتقد أهل السنة فى ذلك. وتمسك بمنهج أهل السنة فى الاستدلال بالكتاب والسنة وأقوال الصحابة مما كان له أثره فى حفظ منهج أهل السنة فى مواجهة خصومه من المعتزلة. فالتفت حوله الأمة من جديد لتحافظ على عقيدتها ومنهجها القويم. ولذلك سمى رحمه الله (إمام أهل السنة والجماعة).

وقد حبس أحمد وجُلدَ أيام المأمون ثم المعتصم ثم الواثق. فلما تولى المتوكل الخلافة كشف عن الناس الغمة وأعاد الحق إلى نصابه، وأخرج الإمام أحمد رحمه الله من الحبس.

إن دفاع الإمام أحمد المجيد فى المشكلة يمكن أن يعد برهاناً ساطعاً لا على موقفه السلفي الواضح واتخاذ السنن والآثار قدوة ومنهجاً فى العلم، وأسلوباً فى العمل فحسب، وإنما فضلاً عن هذا أيضاً فقد دلل بهذا الموقف على الاتجاه العام لأهل السنة والجماعة فى محافظتهم على التراث ودقتهم المنهجية فى تلقيه وإظهاره: يقول الإمام: «لست أتكلم إلا ما كان من كتاب أو سنة أو عن الصحابة

---

(١) يراجع فى ذلك:
ابن كثير فى البداية والنهاية: جـ١٠/ ٣٣١.
معارج القبول جـ١/ ٢٣٠.

(*) جهم بن صفوان: أبو محرز السمرقندى الضال المبتدع رأس الجهمية لم يرو شيئاً، ولكنه زرع شراً عظيماً. قتل سنة١٢٨ هـ لخروجه على أمراء خراسان.

(*) الخليفة المأمون: من الخلفاء العباسيين من أبناء هارون الرشيد، وأعلمهم بعلم الكلام والفقه، احتضن علماء المعتزلة وفى عصره ترجمت الكتب اليونانية واختلط علم الكلام عند المعتزلة بمصطلحات الفلسفة اليونانية توفى سنة٢١٨هـ تولى الخلافة فى عام ٩٧هـ.

والتابعين، وأما غير ذلك فالكلام فيه غير محمود»[١]. وتقدم إلى المعركة العقائدية وسلاحه عقيدة راسخة كان لها أبعد الأثر فى فشل خصومه وإعلاء شأن السنة فاقترن اسم ابن حنبل[*] بالبدع كخصم عنيد لها وأصبح علماً على التمسك بمنهج السلف فقيل عنه[٢] (بموت أحمد بن حنبل تظهر البدع)[٣].

خامساً: ظهور مصطلح السلفية

[ظهر الاختلاف بين أهل الحديث الذين تمسكوا بالنقل وبين المعتزلة الذين أقروا الجدل واعتمدوا على العقل واستبعدوا النقل (فتركوا الحديث وتحاملوا على المحدثين وكذبوهم وأولوا المتشابه من آي القرآن الكريم تأويلاً لم يقرهم أهل السنة عليه[٤])][٥].

ظل أهل الحديث من بعد الإمام أحمد على المنهج الشرعى المميز لهم، إلى أن ظهر (أبوالحسن الأشعري) الذى استخدم المنهج الكلامى فى الدفاع عن عقائد أهل السنة والجماعة فى مواجهة المعتزلة.

وتابع الأشعرى فى ذلك شيوخ آخرون[٦]، بدعوى نصرة عقائد أهل السنة بمنهج المعتزلة أى باستعمال علم الكلام واعتبروا علم الكلام من العلوم الشرعية إذا أريد به موافقة الكتاب والسنة. فإن لم يوافق الكتاب والسنة فليس بكلام شرعى ككلام أهل الاعتزال وأمثاله.

---

(١) راجع ترجمة الإمام أحمد للحافظ الذهبي: ص٢٣.

(*) الإمام أحمد بن حنبل: إمام أهل السنة والجماعة، شيخ الحديث والسنة الصابر على المحنة، أبو عبد الله الشيباني، عرف بالإمامة فى الحديث والفقه، مع الورع والتقوى والصلاح والزهد والعبادة، توفى فى بغداد سنة ٢٤١هـ الموافق ٨٥٥م. يقول ابن تيمية رحمه الله: [وأحمد بن حنبل وإن كان قد اشتهر بإمامة السنة والصبر فى المحنة، فليس ذلك لأنه انفرد بقول أو ابتدع قولاً، بل لأن السنة التى كانت موجودة معروفة قبله، علمها ودعا إليها وصبر على من امتحنه ليفارقها] نقلاً من السلفية وقضايا العصر ص٢١

(٢) حلية الأولياء لأبى نعيم: جـ٦ / ص١٦٨.

(٣) نظام الخلافة: ص٢٤٥.

(٤) المعتزلة لزهدى جار الله: ص٢٥٣.

(٥) نظام الخلافة: ص٣٨٣.

(٦) منهم أبو بكر الباقلانى وعبد القاهر البغدادى وأبو المعالى الجوينى وأبو حامد الغزالى ومحمد بن تومرت وفخر الدين الرازى والريجى وغيرهم من الأشاعرة.

يقول طاش كبرى زاده: وبالجملة يشترط فى الكلام أن يكون القصد فيه تأييد الشرع بالعقل وأن تكون العقيدة مما وردت فى الكتاب والسنة. ولو فات أحد هذين الشرطين لا يسمى كاملاً أصلاً.(١) فيزعم الأشاعرة أن علم الكلام محمود إن أريد به نصرة عقائد السلف. وأنه بهذا المنهج يكون الرد على المخالفين.

أما إن استعمل علم الكلام فى مخالفة الكتاب والسنة على طريقة المعتزلة والمتكلمين واتباع الفلاسفة فهو مذموم. ويرى الأشاعرة أن أهل السنة كالحلقات الدائرية يتصل بعضها ببعض وتتداخل كل دائرة منها فى الأخري. فالدائرة الأولى تضم الصحابة والتابعين أى السلف والدائرة الثانية تضم أهل السنة والجماعة الذين اتخذوا السلف قدوة وأصلاً لهم والدائرة الثالثة هى دائرة شيوخ الأشاعرة.(٢) ويرى الأشاعرة أن طريقة السلف فى الاقتصار على الكتاب والسنة أسلم وأحوط ولكن طريقة الأشاعرة فى الرد على المخالفين لأهل السنة بعلم الكلام أعلم وأحكم.(٣) وأن الأشاعرة بذلك امتداداً للسلف وأطلقوا على أنفسهم لقب (الخلف)(٤) وأنهم جمعوا بين العقل والنقل معاً.

ولكن نظريات الأشاعرة الكلامية لم تلق قبولاً لدى المتمسكين بمنهج الأوائل أتباع الإمام أحمد وأهل الحديث، والذين أطلق عليهم فى فترة من الفترات اسم (الحنابلة) لتمسكهم بعقيدة أهل السنة والجماعة التى عليها الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله.

---

(١) مفتاح السعادة: أحمد بن مصطفي المعروف بطاش كبرى زادة (٩٦٢هـ-١٥٥٤م) جـ٢ / ص٢٠ .

(٢) راجع فى ذلك: نظام الخلافة ص٣٨٣-٣٨٤ .

(٣) وسيأتى مزيد بيان لذلك والرد عليه وبيان خطأ قائله.

(٤) يقول: د. عبد الرحمن بن زيد الزنيدي: «أن اعتبار السلفية ظاهرة عباسية نشأت نتيجة عجز العامة (الجمهور) عن مواكبة الفكر العقلانى لدى الفلاسفة والمتكلمين الذى شاع فى العصر العباسي، ووقوف مداركهم عند النصوص الشرعية الواضحة البسيطة حيث انبعثت من الجمهور قياداته التى تتخذ من العودة إلى النصوص وفهمها من خلال آثار الصحابة موقفاً مضاداً للتيارات العقلانية هذا التصور وهو أن السلفية إنما حدثت فى ظل دولة بنى العباس مضادة للتيارات الفكرية الجديدة غير صحيح لأن السلفية بصفتها منهجاً لفهم الإسلام والتزامه تمثلت فى جيل الصحابة بصورتها الأنقي، ولهذا كانت الدعوة إلى السلفية دعوة إلى الرجوع لذلك المنهج. ولأن الدعوة إلى السلفية، أى إلى منهج صحابة رسول الله ﷺ نادى بها الرسول ﷺ ونادى بها علماء الصحابة أنفسهم وتابعوهم قبل العصر العباسي».
السلفية وقضايا العصر ص٢٢ وانظر منهاج السنة النبوية لابن تيمية تحقيق محمد رشاد سالم جـ٢ / ٤٨٢، ٤٨٦ .

رأي الحنابلة أتباع السلف فى ذلك الوقت أن منهج الأشاعرة الجديد يعتبر أيضاً انسياقاً منهم فى التيار الكلامى البدعى وهم فى الأصل أهل حديث لا يحيدون عن منهج السلف، ولا يقبلون فى ذلك منهجاً وسطاً.

وبظهور منهج (الخلف) صار لقب (السلفية) يطلق عندئذ فى مقابلة لقب (الخلفية).[١]

واتباع المذهب الأشعرى وإن كانوا يعدون من أقرب المذاهب إلى المذهب السلفى لكونهم أيدوا أهل السنة فى عدة مسائل إلا أنهم فى نظر السلفيين ليسوا بسلفيين خُلَص، لأن المذهب السلفى بمعناه الدقيق يرفض علم الكلام ويلفظه سواء كان على طريقة المعتزلة أو على طريقة الأشاعرة.[٢]

من مخالفات المذهب الأشعرى للمذهب السلف

لما خالف الأشاعرة منهج السلف خالفوهم فى بعض الأمور الاعتقادية. مثال ذلك:-

١- فرق الأشاعرة بين صفات الذات وصفات الأفعال الإلهية، واقتصروا فى إثبات الصفات على صفات سبعة، وانكروا صفات الأفعال كالاستواء والفرح والغضب والرحمة وتكلموا فيها،[٣] فوافقوا المعتزلة فى نفي بعض الصفات وتأويلها وإنكار بعض صفات الذات كاليدين والعينين والوجه والقدم.

٢- قال الأشاعرة (بنظرية الكسب) فى تفسير أفعال الإنسان. وهى وسط بين اعتقاد المعتزلة ورأى الجبرية، فأثبتوا لله المشيئة، وأثبتوا للعبد قدرة لكنها غير مؤثرة، فحركات العبد الاختيارية حاصلة تحت القدرة، متوقفة على اختيار القادر، ويسمى هذا الفعل كسباً. فيكون خلقاً من الله تعالي، إبداعاً وإحداثاً، وكسباً من العبد، حصولاً تحت قدرته.[٤] وهذا الاعتقاد لا يختلف كثيراً عن اعتقاد الجبرية.[٥]

(١، ٢) يراجع:
مبحث نشأة مصطلح أهل السنة والجماعة فى كتاب (نظام الخلافة فى الفكر الإسلامي) ص٢٨٤-٢٩٣.
مبحث نشأة مصطلح السلفية فى كتاب (قواعد المنهج السلفي) ص٢٣-٣٩.
كلاهما للدكتور مصطفى حلمى حفظه الله.

(٣) منهج علماء الحديث والسنة د. مصطفى حلمى ص١٧٢-١٧٦.

(٤) المرجع السابق: ص١٧٦-١٧٩.

(٥) المرجع السابق: ص١٧٩.
فالكسب عند الأشاعرة هو اقتران الإرادة البشرية بالفعل من غير أثر. والصواب أن لمشيئة العباد أثر فى أفعالهم بها تقع تلك الأفعال كما قال تعالى: ﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾[البقرة: ٢٨٦].

٣- ينصر الأشاعرة مذهب غلاة الجهمية فى الإرجاء وهو القول بأن الإيمان هو المعرفة ولا يلزم النطق بالشهادة ولا العمل.

٤- قولهم أن كلام الله نفسي: فالقرآن معناه من الله وألفاظ القرآن مخلوقة وهى عبارة عن كلام الله.

أبو الحسن الأشعري

ينسب إليه المذهب الأشعري. ولد عام ٢٦٠هـ بالبصرة ينتهى نسبه إلى أبى موسى الأشعري، فهو: أبو الحسن على بن إسماعيل بن اسحاق بن سالم بن اسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبى موسى الأشعري رضي الله عنه.

كان أبوه من أهل السنة والجماعة، كما كان محدثاً، وقد أوصى عند وفاته إلى زكريا بن يحيى الساجي، أحد أئمة الفقه والحديث، وعنه روى أبو الحسن الأشعرى بعض الأحاديث.

درس الفقه على المذهب الشافعي، ودرس علم الكلام على مذهب المعتزلة على يد أبى على الجبائي، أحد أئمة المعتزلة المعروفين.

تبين له فساد مذهب المعتزلة، فقام بالرد عليهم، فكون مذهباً جديداً يجمع بين منهج المعتزلة فى الاستدلال، ومذهب أهل السنة فى الاعتقاد. فخالف أهل الحديث فى المنهج فترتب على ذلك مخالفات لأهل السنة فى بعض المعتقدات، ولكن يذكر له دوره فى الرد على المعتزلة وبيان فساد ما هم عليه.

وقد تبين له فى أواخر حياته صحة مذهب السلف منهجاً واعتقاداً، فالتزمه. يشهد لذلك آخر كتبه (الإبانة).

من أشهر مؤلفاته:-

١- الإبانة عن أصول الديانة.

٢- اللمع فى الرد على أهل الزيغ والبدع.

٣- استحسان الخوض فى علم الكلام.

٤- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين.

توفى أبو الحسن الأشعرى عام ٣٢٤هـ.

حديث افتراق الأمة

بترك ما كان عليه الصحابي رضي الله عنهم

عن معاوية رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة وهى الجماعة».

وفى رواية للترمذى عنه صلى الله عليه وسلم قال: «افترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة. وتفرقت النصارى على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة. قالوا: من هى يا رسول الله؟ قال: من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي».

والحديث ظاهر الدلالة فى بيان الفرقة الناجية، والتنبيه على التزام هدى الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى فهم الدين وتطبيقه. فجماعة الحق على ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى الاعتقاد والمنهج والعلم والعمل.

والحديث أخرج رواياته العديد من أئمة الحديث: أبو داود والترمذى وأحمد والحاكم والدارمي والآجرى واللالكائي.

وممن ذكر صلاحيته للاحتجاج به الحاكم ووافقه الذهبي. وقال ابن تيمية: (وهو حديث صحيح مشهور).

وقد صححه الألبانى في سلسلته الصحيحة برقم٢٠٣، ٢٠٤ .

وما جاء فى الحديث من وقوع الاختلاف فى الأمم السابقة مما أشار إليه القرآن الكريم فى مواضع متعددة، وما جاء فى الحديث من وقوع هذا الاختلاف فى هذه الأمة إما هو من باب القياس على الأمم السابقة، أو أخذاً بذلك كسنة كونية قدرها الله فى عباده، وإما هى بإخبار من الوحى المنزل. والقرآن الكريم أشار إلى ذلك بصور متعددة: تارة بالإخبار عن أن الأمة ستختلف وتفترق وتارة ببيان أن الاختلاف سنة كونية، وأن الفصل بين العباد يكون يوم القيامة، وتارة بالنهى عن التفرق والاختلاف فى الدين والتوعد عليه.

وهذا كله بين واضح.

قال تعالى: ﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾[هود].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾[النحل: ٩٢-٩٣].

وقال تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾

[المؤمنون: ٥٣].

وقال تعالى فى أهل الكتاب: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[النحل: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[السجدة: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾[آل عمران: ١٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾[فصلت: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾[الزخرف: ٦٥].

وقال تعالى في بني إسرائيل: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾[الجاثية: ١٧]. وهذا فى القرآن كثير.

لذا كان النهى للأمة عن التفرق والوعيد عليه. قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾[الأنعام: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾[الأنعام: ١٥٩].

والأمة المقصودة فى الحديث هى لدى عامة السلف أمة الإجابة، وعليه تكون الفرق المستحقة للهلاك -فى الحديث- محصورة بالطوائف المنتسبة للإسلام، وتجمعها خاصية واحدة يحددها مفهوم المخالفة للفرقة الناجية، فإذا كانت الفرقة الناجية إنما استحقت هذه النجاة بصفتها المذكورة فى الحديث، وهى التزام هدى الرسول ﷺ، وهدى أصحابه، فإن سبب هلاك الفرق الأخرى انحرافها عن هدى الرسول ﷺ، وهدى أصحابه.

وإذا كان هذا الهدى يمثل سمتاً واحداً، وقدراً محدداً معيناً لمن جاء بعدهم، فإن مجال الانحراف الذى تقع به تلك الفرق خلاف ذلك.

فهـو أنماط متعددة قـابلة للتوليد فى أشكال جـديدة، ثم إنه نسبى تتفاوت فـيه الفرق فيما بينها من حيث قربها من المعيـار الثابت المتمثل فى سمت الفرقة الناجية أو بعدها الذى يزداد شيئاً فشيئاً حتى يصل إلى حد التنكر حتى للانتساب للإسلام ومن ثم الردة الصريحة وهنا تـخرج الفرقة عن زميلاتهـا من الفرق التى لم تصل إلى هذا الحد والتى ما زالت فى دائرة الحديث.

والانحراف فى مـجال العقـيدة وموضـوعات الإيمان يأتى فى مـقدمة أسـباب الخروج عن دائرة الفـرقة الناجـية ولهذا كـانت فرق القـدرية والروافض والخوارج والمرجئة من أوائل الطوائف دخولاً فى فرق الهلاك، وكلمـا كانت الشعب المتفرعة لهـذه الطوائف أكثـر انحرافـاً عن عقـيدة السلف، كـانت أشد إيغـالاً فى هاوية الهلاك.(١)

أما قوله ﷺ عن ما عدا الفرقة الناجية التى التزمت ما كان عليه وأصحابه أى عن الثنتين والسبعين فرقة كلهـا فى النار. فإن المقصود به -لدي السلفيين- أن هذه الفرق قـد انعقدت عليـها أسباب دخـول النار بانحرافهـا عن هدى الرسول ﷺ وأصحـابه. ومع هذا فـينبغى أن نعى جـيداً احـتيـاطات السلفيين فى تطبـيق هذا الحديث على أتباع تلك الفرق اتساقاً مع قواعدهم العقدية:(٢)

فهم أولاً: يفسرون قول الرسول ﷺ (كلها فى النار) بأن ذلك لا يعنى الخلود فـيهـا، فالخلود فى النار إنما هو لـلمشـركين الخارجين عن أمـة الإجابة إلى أمـة الدعوة، أما المسلمـون المنحرفون بما لم يصل للشرك والكفـر فإنهم لا يخلدون فى النار وإن دخلوها.

---

(١) السلفيـة وقضايا العـصر للدكتـور عبد الرحمن بن زيـد الزنيدى ط. مركز إشـبيلية للدراسـات والإعلام الرياض. ط. الأولى ص٦٥-٦٦ .

(٢) يقول ابن تيمية فى كتابه (الإيمان): «وكذلك سائر الثنتين وسبعين فرقة من كان منهم منافقاً فهو كافر فى الباطن، ومن لم يكن منافقاً بل كان مؤمناً بالله ورسوله فى الباطن لم يكن كافراً فى الباطن، وإن أخطأ فى التأويل كائناً ما كان خطؤه، وقد يكون فى بعضهم شعبة من شعب النفاق ولا يكون فيه النفاق الذى يكون صاحبه فى الدرك الأسـفل من النار. ومن قال إن الثنتين وسبعين فرقة كل واحـد منهم يكفر كفراً ينقل من الملة فقد خالف الكتاب والسنة وإجماع الصحابة ﷺ أجمعين، بل وإجماع الأئمة الأربعة وغير الأربعة فليس فيهم من كفـر كل واحد من الثنتين وسبعين فرقة وإنما يكفر بعضـهم بعضاً ببعض المقالات أ.هـ. ص١٩٠ . ط. المكتبة القيمة بالقاهرة.

كذلك فإن قوله (كلها فى النار) يعنى استحقاقهم للنار لانحرافهم أما الدخول الفعلى من عدمه، ومدة البقاء، فهذه لها أحوال متفاوتة:

- فقد لا يدخل الشخص النار أساساً، إما لتوبة يختم بها حياته يرجع بها عن آرائه المنحرفة، أو بحسنات من العبادة والدعوة والجهاد ماحية، أو مصائب تكفر عنه.... إلخ.

- وقد تنتشله رحمة الله، ويدخل فى قوله سبحانه: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[النساء: ٤٨].

- وقد يدخل النار، ثم يخرج منها قبل استيفاء مدة عذابه بشفاعة الشافعين ورحمة أرحم الراحمين.

وقد يدخلها حتى يستوفى عذابه ثم يخرج منها إلى الجنة برحمة أرحم الراحمين.

هذه المراتب تتوزع فيها العصاة والمبتدعة من أهل القبلة من أمة محمد ﷺ.

أما الخلود فى النار فإنه للكفار والمشركين، وهؤلاء ليسوا من أمة محمد ﷺ (أمة الإجابة) أصلاً.[١]

وهم ثانياً: لا يحكمون على شخص معين وإن انحرف وابتدع ما دام من أهل القبلة بأنه من أهل النار وإن كان قوله أو فعله من أسباب دخول النار، يقول ابن تيمية:

ولا نشهد لمعين أنه من أهل النار لأنا لا نعلم لحوق الوعيد له بعينه، لأن لحوق الوعيد المعين مشروط بشروط وانتفاء موانع، ونحن لا نعلم ثبوت الشروط وانتفاء الموانع فى حقه، وفائدة الوعيد بيان أن هذا الذنب سبب مقتضى لهذا العذاب، والسبب قد يقف تأثيره على وجود شرطه. وانتفاء مانعه[٢]. هذا موقف السلف فى شأن حديث التفرق.[٣]

(١) السلفية وقضايا العصر: ص٦٧-٦٨ وانظر شرح العقيدة الطحاوية تحقيق أحمد شاكر ص٢٣٢-٢٣٥ .
(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ج ١٢/ ٤٨٤ .
(٣) السلفية وقضايا العصر: ص٦٨-٦٩ .

الوصية النبوية بالتمسك بهديه وهدى أصحابه عند الاختلاف

عن العرباض بن سارية ﷺ قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا. قال: أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً. فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة.

رواه أبو داود والترمذى وقال: حديث حسن صحيح.

كما رواه الإمام أحمد وابن ماجه. وقال فيه الحافظ أبو نعيم: (هو حديث جيد من صحيح حديث الشاميين).

قال ابن رجب الحنبلي: وقوله ﷺ [فإنه من يعش منكم] بعدى [فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى عضوا عليها بالنواجذ] هذا إخبار منه ﷺ بما وقع فى أمته بعده من كثرة الاختلاف فى أصول الدين وفروعه وفى الأعمال والأقوال والاعتقادات، وهذا موافق لما روى عنه من افتراق أمته على بضع وسبعين فرقة وأنها كلها فى النار إلا فرقة واحدة وهى ما كان عليه هو وخلفاؤه الراشدون من الاعتقادات والأعمال والأقوال وهذه هى السنة الكاملة، ولهذا كان السلف قديماً لا يطلقون اسم السنة إلا على ما يشمل ذلك كله[1] ا.هـ.

ويقول ابن رجب الحنبلى أيضاً: وفى أمره ﷺ باتباع سنته وسنة الخلفاء الراشدين بعد أمره بالسمع والطاعة لولاة الأمور عموماً دليل على أن سنة الخلفاء الراشدين متبعة كاتباع السنة بخلاف غيرهم من ولاة الأمور[2] ا.هـ.

قلت: ويشهد لاتباع سنة الخلفاء الراشدين من الصحابة كاتباع سنته ﷺ أنه ﷺ جمع بين سنته وسنتهم فى ضمير واحد فقال ﷺ: «عضوا عليها بالنواجذ» ولم يقل: «عضوا عليهما بالنواجذ» فاعتبرهما شيئاً واحداً فى الأمر

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلى ط. الحلبى ط. الخامسة ص٢٥٨ .
(٢) المصدر السابق ص٢٥٨، ٢٥٩ .

بالتمسك بهما -وهذا دليل على أن سنة الخلفاء الراشدين إنما هى الفهم الصحيح والتطبيق السليم لسنة الرسول ﷺ فلابد من التقييد فى الفهم والعمل- بطريقة السلف رضي الله عنهم وأئمتهم هم الخلفاء الراشدون.

دور ابن تيمية في إنعاش المذهب السلفي

ولد ابن تيمية رحمه الله سنة ٦٦١هـ. وتوفى بدمشق سنة ٧٢٨هـ.

نشأ ابن تيمية رحمه الله نشأة علمية دينية،(١) وتعمق فى دراسة منهج الأوائل وعلومهم، واستوعب الكتاب والسنة فهماً وتدقيقاً، وخاض فى علوم الفلاسفة والمتكلمين فحصاً وتقييماً، فحاز من العلوم الكثير وسلك مسلك الاعتدال، ووجد الهدي فى مذهب السلف، والابتداع والضلال فى مناهج الفلاسفة والمتكلمين، كما واجه المقلدين والجامدين من فقهاء المذاهب، مبيناً بعدهم عن الكتاب والسنة ومنهج الأئمة، رغم ادعاء الاتباع والتمسك بما كانوا عليه.

لقد ظهر ابن تيمية فى عصر متأخر كانت الانشقاقات قد حدثت، وجهلت الغالبية الاتجاه السلفي، وسطت تراكمات الفكر الفلسفى والتأويل الكلامى والشطح الصوفى حتى ظن غالبية المسلمين أنها هى الإسلام.

وأغلب الظن أن ابن تيمية فتح عينيه على الواقع المرير للعالم الإسلامى فى ذلك الوقت(٢)، وأدرك بثاقب نظره أن العلة تكمن فى جهل المسلمين بتراثهم، والتجائهم إلى ما هو بعيد عن الروح الإسلامية ككتاب (السياسة المدنية) للفارابي، ورسائل إخوان الصفا، (وقانون إلياسا) المغولي، فأدرك أنه قد (فسد الراعى وفسدت الرعية). فشمر عن ساعديه ليعيد إلى الأذهان عظمة الإسلام بعد أن غابت علومه فى غياهب الكتب وكاد يطمسها الزمن وتضيع فى متاهات النسيان، ولم يعد قائماً فى ذاكرة المسلمين إلا الأفكار الدخيلة التى لا تمت بصلة إلى

(١) كان جده محدثاً مشهوراً وكذلك كان أبوه.

(٢) شهدت حياة ابن تيمية غزو التتار لبلاد المسلمين. بدأ غزو التتار عام ٦١٦هـ. وسقطت بغداد فى أيديهم عام ٦٥٦هـ. واشترك ابن تيمية بنفسه فى جهاد التتار بعد أن وصلت جيوشهم إلى حماة وقد عاصر ابن تيمية دولة المماليك.

تراثهم. وكم من أباطيل وأراجيف ومفتريات دست فى وقائع التاريخ حتى كادت تصير من الأمور المسلمة التى لا تناقش؟ ومن السهل أن تصبح الأكاذيب حقائق عن طريق طمس المعالم الأصيلة للوقائع وإحلال أخرى محلها تتفق مع الأهواء والمشارب والنزعات!!.(١)

وجد ابن تيمية نفسه وسط هذا الطوفان الذى يحاول أن يُغْرِق فى طريقه كل شئ فوقف صامداً، وكان سلاحه حاسماً وبتاراً، لقد أحاط بالعلوم الإسلامية كلها، بل واتجه إلى غير الإسلامية أيضاً، فتمكن بواسطة هذه الأسلحة أن يحارب فى عدة ميادين فى وقت واحد، وإن كثرة خصومه لتعطينا الدليل على تمكن هذا الشيخ وغزارة علومه. ومن العجب أنه لم يكتف بالحجاج العقلى الفلسفي، بل أخذ يفند أحداث التاريخ ليجلوها ويمسح عنها ما علق بها من معالم كادت تطمس الحقائق نفسها.(٢)

وقد أضفى ابن تيمية على مؤلفاته طابع خاص يتميز بحرارة الجدل وعنف الخصومة فقد كان العصر عصر تراجع للمذهب السنى -أو السلفى بتعبير أدق- أمام طغيان علم الكلام والتصوف وفرق الشيعة والفلاسفة، بل إن الفقهاء المتزمتين أيضاً لم يسلموا من قلمه. لقد خشى إمامنا على العقيدة الإسلامية من الانحرافات والبدع، وتعددت الميادين التى خاضها فى سبيل إحياء المذهب السلفي، فقد أدرك المنهج السليم فى العقائد والعبادات معاً، فأغضب الكثيرين منه، وألب عليه خصومات عديدة، وخاض معارك ضارية ضد خصوم أقوياء، تمكنوا من سجنه(٣) مما يدل على العنف الذى اتسمت به تلك المعارك، كما يدل على عجز خصومه فلا عجب بعد هذا أن تلاحظ طابع الشدة فى كتابته التى يدافع بها عن الاتجاه السلفى في مواجهة المنحرفين عنه.(٤)

لقد خشى شيخ الإسلام أن يتجاهل المسلمون تراثهم، ويبتعدوا عن الكتاب والسنة، ويندفعوا فى اتجاهات شتى يصبحون معها أعواناً لأعداء الإسلام، فلم يجد بُداً من التمسك بمنهج السلف -وهو لا يعدو الوقوف عند النصوص-، وجد

(١) نظام الخلافة د. مصطفى حلمي: ص٤٨٠-٤٨١ بتصرف.
(٢) د. مصطفي حلمي: المرجع السابق، ص ٤٨٠-٤٨١ بتصرف.
(٣) سجن رحمه الله بقلعة القاهرة ثم الاسكندرية، وسجن بقلعة دمشق مرتين وتوفى بها عام٧٢٨هـ.
(٤) راجع نظام الخلافة: ص٤٧٨-٤٧٩ .

فى المنهج الطريق القويم لاصلاح ما أفسده الغلاة من كل الطوائف. لهذا تلاحظ سيطرة النصوص على فكر ابن تيمية سيطرة دائمة. إنه يدور فى دائرتها ويصطبغ به مذهبه وفقهه وآراؤه كلها.[١]

منهج ابن تيمية

تعد جهود ابن تيمية مع تعددها وتنوعها تعبير عن منهجه[٢]، فلم يترك ناحية من نواحى الدين إلا طرقها وعالجها فى كتاباته، وأظهر رأى أهل السنة والجماعة فيها مستخدماً منهجه الذى لا يحيد عنه. مستوعباً حجج المعارضين التى ظهرت حتى عصره ثم باسطاً وجهة نظر أهل السنة وردودهم عليها.

لقد عاد ابن تيمية إلى النصوص من الكتاب والسنة ولكنه أظهرها لنا بعد استيعابه لنظريات الفقهاء والمتكلمين فى ثوب جديد مجلوة بحصيلة الأفكار الفقهية والكلامية، وتفوق على الفقهاء والمتكلمين فى متانة الحجة وقوة البرهان.[٣]

لقد وجد ابن تيمية فى الأدلة السمعية ضالته لأن النقل يُضيِّق من شقة الخلاف وهو أسلم المناهج، وكل من حاد عنه اكتشف خطأه فى النهاية، وهو ميراث النبوة، لذا جعل ابن تيمية من نصوص الكتاب والسنة حجر الزاوية فى منهجه كما صاغ آراءه السياسية فى هذه الحدود.[٤]

لقد كان شيخ الإسلام يقيم الأفكار والنظريات بميزان النقل لأنه كان محيطاً تماماً بالكتاب والسنة حتى قيل (كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث) كذلك كان استحضاره لآيات القرآن عندما يريد إقامة الدليل مثار الدهشة والعجب فلم يضعف قولاً أو ينصر رأياً على آخر إلا لموافقته لما دل عليه القرآن والحديث. أى أن التزام ابن تيمية بالنصوص هو الذى حدد له الطريق وخط له المنهج.[٥]

---

(١) السلفية وقضايا العصر ص٤٨ .

(٢) أهم معالم منهج ابن تيمية رحمه الله المستخلصة من كتبه:-

أ- إثبات الاتفاق بين الدليل العقلى والدليل النقلي.

ب- رفض التأويل والمصطلحات الكلامية والفلسفية ومحاولة تقييمها وإخضاعها للمعانى التى جاء بها الكتاب والسنة، والتعبير عن العقائد الإسلامية بالألفاظ الشرعية.

ج- نقض المنطق وهدمه واستبعاده. ← ؟!!

(٣) راجع نظام الخلافة: ص٥٢٩ وقواعد المنهج السلفي: ص٢٢ .

(٤) راجع نظام الخلافة: ص٤٨١-٤٨٢ .

(٥) المرجع السابق: ص٤٨٧ .

لقد تسلح بالقرآن والحديث. فالحق هو الذى جاء به الرسول ﷺ وهو الذى اتفق عليه صريح المعقول وصحيح المنقول.

وهذا المنهج هو فيصل التفرقة بين الحقيقة والبدعة. إنه يطعن فيمن يحكمون بالظن وهوى النفوس ثم يحاولون إيجاد السند من أصل دينى إما بالرأى والقياس، فيعدونه من العقليات، أو الهوى والذوق ويسمونه ذوقيات، أو بالتأويل كما يفعل الخوارج مدعين اتباعهم للقرآن، أو كما يفعل الشيعة عندما يتلمسون الأدلة من الأحاديث الموضوعة.

إن الموقف الذى اتخذه ابن تيمية يضارع فى دقته وسلامته المنهج العلمى الحديث. إنه لم يتخذ أحكاماً سابقة فى الذهن ليبررها بالنصوص، ولكنه بدأ من النصوص ناقداً لها، فاحصاً إياها بفكر العالم الخبير، مبقياً السليم مستبعداً الخاطئ والمنحول.(١)

لم يدع ابن تيمية العقل جانباً، وإنما وضعه فى خدمة الشرع، ولم يقدمه على النصوص كما يفعل المعتزلة. فالعقل قائم فى خدمة النص. فالنصوص لها المكانة الأولى فى منهج ابن تيمية، وفيها الغنى عن كل ما عداها، لسبب جوهرى وهو أن الرسول ﷺ قد بين أصول الدين كلها، ونهى عن اتباع البدع والعقل لا يتعدى فى مهمته دور النظر والاستدلال من واقع النصوص لأنه فى هذه الحالة يصبح طريقاً إلى الإيمان عن اقتناع ووعى وهو يتبع فى منهجه هذا شيخه الإمام أحمد بن حنبل.(٢)

أما المنهج الذى وضع المعتزلة فيه العقل بمكانة الصدارة ونصبوه وسيلة للاستدلال يأتى فى المرتبة الأولى فهو عند ابن تيمية منهج خاطئ، يدل على العجز عن إيجاد الدليل النقلي، لأنهم لا ينظرون فى الإسناد، ومدى صحة النقل وثبوته، ولا معرفة لهم بصناعة الحديث والإسناد، وإذا عثروا على دليل من واقع الأحاديث يوافق رأيهم نقلوه، من غير دراية بالحديث من حيث الإسناد أو المتن.(٣)

---

(١) راجع نظام الخلافة: ص٤٨٧ .

(٢) راجع نظام الخلافة: ص٤٨٠-٤٨٢ بتصرف.

(٣) راجع نظام الخلافة: ص٤٨٣ بتصرف.

فتقديم النظر العقلى على الدليل الشـرعى خطأ، وكل ما خالف صحيح المنقول فقد خالف أيضاً صريح المعقول.

إن فى الكتاب والسنة عامة أصول الدين ومسائله فى قـضايا التوحيد والصفات والقدر والنبوة والمعاد. وآيات الله السمعية وآياته العقلية كلها متوافقة.

والاختلاف بين المتكلمين هو موضع الطعن عند ابن تيمية لأنه يرى أنه اختلاف مذموم لا يـبين أين توجد الحقيـقة وما هو سندها ويبتـعدون عما جـاء به الكتاب والسنة لأنهم لا يعـرفونه بينمـا الحق واحد لا يخـرج عما جـاءت به الرسل وهو الموافق لصـريح العقل وفطرة الله التى فطر عـباده عليـها. ويدل علي عـقم علم الكلام وقـصوره عند ابن تيـميـة ما ظهـر من ندم متكلمى الأشـاعرة فـى أواخر حياتهم.[1]

لقد بذل ابن تيمية المحاولات تلو الأخرى فى كتبه ومناقشاته لإثبات أن السلف كانوا أهل نظر ودراية إلى جانب كونهم أهل نقل ودراية، وأنهم أثروا عدم تضييع جهـودهم وأوقاتهـم فى محاولات عـقيـمة، إذ رأوا فى كـتاب الله تعـالى وسنة رسوله ﷺ الكفاية، وأقامـوا البناء كاملاً فى العقيدةوالشـريعة والعبادات والنظم والأخلاق جـميعاً. فـإذا أرادت الأمة أن تأخذ بزمام أمـورها من جديد بين الأمم فعليها باتباع طريقتهم. وهذا معنى قـول عبد الله بن مسعود [من كان منكم مستناً فليستن بمن قـد مات،[2] فإن الحي لا تؤمن عليـه الفتنة] أولئك أصحـاب رسول الله ﷺ : (كـانوا أبر هذه الأمة قلوباً، وأعـمـقهـا علماً، وأقلهـا تكلفاً، قـوم اختـارهم الله لصحبة نبـيه، وإقامة دينه، فـاعرفوا لهم حـقهم، وتمسكوا بدينهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم).[3]

---

(١) راجع نظام الخلافة: ص٤٨٥ بتصرف.

(٢) يريد أصحاب النبي ﷺ الذين سبقوا.

(٣) انظر منهج علماء الحديث والسنة: ص١٧١ .

صور من جهاد ابن تيمية ضد التتار

لم يقف جهاد ابن تيمية عند الجهاد بالقلم واللسان وإنما تعداه إلى القتال فى سبيل الله بالسيف والسنان، وله سجل مشرف فى قتال التتار الغازين لديار المسلمين. فقد تصدى للتتار بكل ما يملك من قوة علمية ونفسية بل بدنيه، فقد وقف فى دمشق مع نائب السلطان الأفرم يحرض المسلمين على الثبات ضد التتار فى حين فر من المدينة أكثر العلماء وكبار رجال الدولة، كما أغلظ لسلطان التتار غازان لسوء معاملته للمسلمين مع ما فى ذلك من خطر على حياته، ولما رأى اشتداد خطر التتار سافر من سوريا إلى مصر، وحرض السلطان الناصر ورجاله على حرب التتار بعبارات شديدة، ثم اشترك بنفسه فى معركة (مرج الصفر)، وانطلق بين الجنود يحرضهم ويؤكد لهم استحقاقهم لنصر الله ما داموا قد أخلصوا فى طاعة الله. ثم انطلق يقاتل معهم قتالاً شديداً ضد التتار.[١]

دور الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى تجديد الدعوة السلفية

ولد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله فى بلدة العيينة سنة ١١١٥هـ. ونشأ نشأة علمية دينية، ورحل فى طلب العلم، وتأثر كثيراً بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية[٢] رحمه الله وتلميذه ابن القيم[٣] رحمه الله.

ولقد وجد الشيخ محمد بن عبد الوهاب الأوضاع المتردية فى نجد وما حولها، وانتشار البدع والخرافات بين الناس، حتى شاع فيهم صرف العبادات لغير الله تعالى والوقوع فى الشركيات، والتعلق بالأشجار والأحجار والأولياء وقبور الصالحين والتوسل والتبرك بها لتفريج الكربات وقضاء الحاجات.

---

(١) راجع فى ذلك: مقارنة بين الغزالى وابن تيمية: د. محمد رشاد سالم ص٢٥-٢٦ .
البداية والنهاية جـ١٤، فوات الوفيات لابن شاكر ١/ ٧٢-٧٣ .والعقود الدرية ص١١٨ وما بعدها.

(٢) لذا فكثيراً ما يستشهد بأقواله وفتاويه فى رسائله.

(٣) ويدل على ذلك اختصاره لكتابه القيم (زاد المعاد).

وقد كشف الشيخ عن ساعد الجد، وقام لتصحيح عقائد الناس، ومحاربة الشركيات والبدع، وتحمل فى ذلك الكثير والكثير، واتخذت دعوته الإصلاحية الطابع الدينى السياسي، إذ ألف الكتب والرسائل فى الدعوة إلى التوحيد وعقائد السلف الصالح، وأيد دعوته أمير الدرعية (محمد بن سعود) حتى انتشرت دعوته وتمكنت بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ثم قتال المعاندين بعد وصول الحجة إليهم.[١] ومن أشهر المسائل التى دعا إليها الشيخ مخالفيه: -[٢]

١- الدعوة إلى توحيد الألوهية وإفراد الله بالعبادة وهذه أهم قضايا دعوة الشيخ.

٢- منع التوسل المبتدع مع الإقرار بالتوسل المشروع.

٣- منع البناء على القبور والعكوف عليها وإقامة الأضرحة والقباب حتى لا تكون ذريعة إلى الشرك.

٤- توحيد الله فى أسمائه وصفاته.

٥- محاربة البدع المستحدثة.

٦- الدعوة إلى الاجتهاد ومحاربة التقليد المذموم.

وقد توفى رحمه الله سنة ١٢٠٦هـ بعد أن رأى ثمار دعوته المباركة فى الأرض.

وما زالت آثار هذه الدعوة منتشرة فى بقاع الأرض خاصة فى الجزيرة العربية (المملكة العربية السعودية).

وقد تأثر بهذه الدعوة الكثير من العلماء والمصلحين، فكانت هذه الدعوة هى الشعلة ليقظة إسلامية معاصرة. ووصلت آثارها إلى أنحاء كثيرة فى مشارق الأرض ومغاربها فى مصر والشام والعراق والهند وباكستان وأفريقيا وغيرها.

---

(١) وقد سلك الشيخ فى نشر دعوته أساليب كثيرة منها الوعظ والتدريس والخطابة والرسائل وتأليف الكتب ومناظرة المخالفين ثم لجأ إلى القتال لحماية أنصار الدعوة وإيجاد المناخ المناسب لنشرها. ؟ !

(٢) يراجع فى ذلك أشهر كتبه وهو (كتاب التوحيد الذى هو حق الله على العبيد) والذى جمع فيه آيات وأحاديث فى بيان مسائل التوحيد وقضاياه.

وممن تأثر بها وأشاد بصاحبها:

الشيخ جمال الدين القاسمى بالشام،

والشيخ محمد بن إسماعيل الصنعانى (١٠٩٩هـ-١١٨٢هـ)

والشيخ محمد بن على الشوكانى (١١٧٢هـ-١٢٥٠هـ)

وهما من علماء اليمن المشهورين.

الأستاذ محمد رشيد رضا (١٢٨٢-١٣٥٤هـ)(١٨٦٥م-١٩٣٥م)

والأستاذ محمد حامد الفقى من مصر. وغيرهم كثير.[1]

ومما ساعد على استمرارية دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية وعظم انتشارها:-

١- القوة السياسية للدعوة: المتمثلة فى نصرة (آل مسعود) لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

٢- دور علماء الدعوة فى نشر الدعوة بالمؤلفات والرسائل وبث الدعاة لها فى كثير من المناطق الإسلامية.

٣- موسم الحج: حيث يتعرف خلاله الحجاج على حقيقة الدعوة السلفية للشيخ محمد بن عبد الوهاب ومن ثم اعتناقها وتبنى الدعوة إليها.[2]

(١-٢) يراجع فى ذلك:-

الصفات الإلهية فى الكتاب والسنة النبوية فى ضوء الإثبات والتنزيه للدكتور محمد أمان بن على الجامى ط. دار الإيمان. الإسكندرية. ص١٢١-١٣٨.

دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب تاريخها مبادؤها أثرها تأليف محمد بن عبد الله بن سليمان السلمان ط. المطبعة السابقة.

من قواعد المنهج السلفي في الاستدلال

(١) الاستدلال بالكتاب والسنة.

(٢) تقديم النقل علي العقل.

(٣) رفض التأويل الكلامي.

(٤) التمسك بفهم الصحابة.

من قواعد المنهج السلفى فى الاستدلال

ظهر اصطلاح (السلف) و(السلفية) واشتهر بعد أن ظهر النزاع ودار حول مسائل أصول الدين بين الفرق الكلامية، وادعاء كل فرقة أنها على الحق المبين، أو أنها لا تخرج عما كان عليه الأوائل، فكان لابد من أن توضع أسس وقواعد واضحة المعالم للمنهج الذى كان عليه السلف، حتى لا يلتبس الأمر على كل من يريد الاقتداء بهم والسير على منوالهم، وهذا المنهج عرف بالاستقراء والتتبع لطريقة السلف فى الاستدلال والتعرض لمسائل الأصول. وقد وجد أن المنهج السلفى يقوم على قواعد أساسية(١) وهي:-

١- الاستدلال بالكتاب والسنة.

٢- تقديم النقل علي العقل.

٣- رفض التأويل الكلامي.

٤- التمسك بفهم الصحابة.

الاستدلال بالكتاب والسنة:

تمسك السلف عند الاحتجاج فى مسائل الدين بالاقتصار فى الاستدلال على الكتاب والسنة، إذ فيهما كفاية لكل متطلع لمعرفة أمور دينه، كما أن الشرع أوجب علينا الأخذ بالكتاب والسنة، ونهانا عن اتباع غير الكتاب والسنة.(٢) وقد ساعدت العناية الكبيرة التى أولاها السلف للقرآن الكريم تلاوة وحفظاً وفهماً وتفسيراً أن ينالوا منه الحقائق البينة ويستنبطوا منه القواعد المحكمة، وأن يردوا على التساؤلات العديدة المطروحة بين الناس عن حقائق عالم الغيب وأدركوا بذلك أن القرآن الكريم كاف فى الرد على أعداء الدين دون الحاجة إلى مناهج المتكلمين وطرقهم.

كما اعتنى السلف الصالح بالسنة النبوية دراية ورواية، فكانوا أهل الحديث ورواته، والعلماء بصحيحه وسقيمه، ودقائق مسائله.

---

(١) راجع فى ذلك:
قواعد المنهج السلفى للدكتور مصطفى حلمي.

(٢) والآيات فى ذلك كثيرة، ذكرنا طرفاً منها.

ولم يفرق السلف فى الإستدلال بين الكتاب والسنة.

فالسنة تبين الكتاب وتفسره، بل السنة خير تفسير يفسر به القران بعد القرآن، وقد يتوقف فهم مجمل القرآن على تفصيل السنة، وقد تأتى السنة بأحكام غير مذكورة فى القرآن. فيوجب ذلك الأخذ بالكتاب والسنة جميعاً دون تفريق بينهما، فكلاهما وحى من عند الله من حيث المعنى. وفى الحديث: «ألا أنى أوتيت القرآن ومثله معه».

والسنة أصل فى الاستنباط قائم بذاته ثبت وجوب الأخذ بها فى [النصوص الكثيرة جداً الواردة فى القرآن التى تدل بصورة قاطعة على لزوم اتباع السنة والالتزام بها واعتبارها مصدراً للتشريع واستفادة الأحكام منها. وقد جاءت هذه النصوص دالة على ما ذكرنا بأساليب متنوعة وصيغ مختلفة: فهى تأمر بطاعة الرسول وتجعل طاعته طاعة لله، وتأمر برد المتنازع فيه إلى الله وإلى الرسول أى إلى كتابه وسنة نبيه وتأمر بأخذ ما يأتينا به الرسول والابتعاد عما ينهانا عنه، وتصرح أن لا إيمان لمن لا يحكم رسول الله فيما يختلف فيه مع غيره. وتقول: ألا اختيار لمسلم فيما قضى به رسول الله وتحذر المخالفين لأمره من سوء العاقبة والعذاب الأليم]. (١-٢)

قال تعالي: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[الحشر: ٧] وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا﴾[الأحزاب: ٢٦]. وقال: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾[الأحزاب: ٦]. وقال: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾[النور: ٥٤].

واتباع السنة واجب فى الأصول والفروع، فى العقيدة والعمل، فى الظاهر والباطن لعموم الأدلة وإجماع الأمة. قال الشافعي: (أجمع العلماء على أن من استبانت له السنة لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس). (٣)

---

(١) الوجيز فى أصول الفقه د.عبد الكريم زيدان ص١٦٢-١٦٣.

(٢) ولا يخفى أن الإجماع كحجة ليس بدليل ولكنه دليل على وجود دليل من الكتاب أو السنة أو القياس الجلي، علمه من علمه وجهله من جهله، والقياس كحجة إلحاق فرع لم يرد فى الكتاب والسنة بأصل من الكتاب والسنة فى الحكم لاشتراكهما فى العلة، فمرد الإجماع والقياس إلى الكتاب والسنة كذلك.
أما القواعد الفقهية التى سار عليها العلماء على اختلاف بينهم فيها فهى قواعد أخذت من أدلتها من الكتاب والسنة وعممت على الأحكام التى تندرج تحت عمومها فمردها جميعاً إلى الكتاب والسنة أيضاً.
فبالجملة اعتمد السلف على الكتاب والسنة فى أخذ أحكام الدين جميعها فى الأصول والفروع فى الاعتقاد والفقه ولم يخرجوا عنهما بحال من الأحوال.

(٣) منة الرحمن فى نصيحة الاخوان للشيخ ياسر برهامى ط. مكتبة الايمان. الإسكندرية: ص٥٤ بتصرف يسير.

والسنة وحى من عند الله. قال تعالى: ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما﴾[النساء: ٣٣]. ولذا لا يجوز الاستغناء عنها بزعم الاكتفاء بالقرآن. بل مَنْ علم القرآن وجد فيه السنة ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[الحشر: ٧]. وهى تبين القرآن ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[النحل: ٤٤]. ويستحيل تعارض القرآن مع السنة الصحيحة، كما لا تتعارض السنة مع السنة، بغير إمكان الجمع بتخصيص أو تقييد أو نسخ أو غير ذلك. والكتاب والسنة بمنزلة واحدة من جهة التشريع وإن كان القرآن يقدم تشريعاً وتعظيماً وفضلاً فهو كلام الله.(١)

ويجب تقديم الحديث على الرأى والقياس والعرف والمصلحة المرسلة وأقوال العلماء وأئمة المذاهب وعمل بعض الأئمة. وأهل السنة لا يختلفون فى ذلك كأصل وإنما يقع خلافهم فى تطبيقه كثبوت الحديث صحة وضعفاً، وعمومه أو خصوصه، وإطلاقه أو تقييده، لكن لا يقدم عند أحد منهم قول أحد على قول النبي ﷺ وكلهم قال: [إن صح الحديث فهو مذهبي]. أو نحوها.(٢)

ومصادر أدلة الأحكام الكتاب والسنة والإجماع والقياس، وهذه متفق عليها عند أهل السنة وما سوى ذلك فمحل اجتهاد بينهم مثل قول الصحابى والمصالح المرسلة والاستصحاب وغيرها.(٣)

وبالجملة قد [اجتمع المسلمون من عهد النبي ﷺ وحتى يومنا هذا على وجوب الأخذ بالأحكام التى جاءت بها السنة النبوية وضرورة الرجوع إليها لمعرفة الأحكام الشرعية، والعمل بمقتضاها، فما كان الصحابة ولا من جاء بعدهم يفرقون بين حكم ورد فى القرآن وبين حكم وردت به السنة، فالجميع عندهم واجب الاتباع، لأن المصدر واحد، وهى وحى الله، والوقائع الدالة على إجماعهم كثيرة لا تحصى].(٤)

---

(١) المرجع السابق: ص٥٥، ص٥٦ .

ويدل على كون السنة وحياً قوله تعالى: ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾.

(٢) المرجع السابق: ص٥٥ .

(٣) المرجع السابق: ص٥٦ .

(٤) الوجيز فى أصول الفقه: د. عبد الكريم زيدان: ص١٦٣ .

وقد جاءت الأدلة الكثيرة فيها الأمر بالتزام الكتاب والسنة والعمل بما فيهما، متضمنة الإعراض عما سواهما، وترك ما يخالفهما:-

قال تعالي: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[الأعراف: ٣] والمراد ما أنزل إليكم من ربكم هو القرآن والسنة المبينة له لا آراء الرجال.

وقال تعالي: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾[النساء: ٦١] وعموم الآية يفيد أن من دعى إلى العمل بالقرآن والسنة وصد عن ذلك فهو من المنافقين، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص سبب الآية.

وقال تعالي: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾[النساء: ٥٩].

والرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول بعد وفاته ﷺ هو الرد إلي سنته. وتعليق الإيمان على رد التنازع إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ يفهم منه أن الرد إلى غيرهما ينافى الإيمان بالله.

وقال تعالي: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[النساء: ٦٥].

وقال تعالي: ﴿قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين﴾.

وقال تعالي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾

[النساء: ٥٩].

وقال تعالي: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾[المائدة: ٩٢].

وقال تعالي: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾[النور: ٥٤].

وقال تعالي: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[النور: ٥١].

قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[القصص: ٤٩]. وقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[القصص: ٥٠].

قال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة: ٣٨].

والهدى الذى أتى من عند الله هو كتابه وأحكامه على ألسنة رسله. والتى فيها الهداية والأمن من الخوف والحزن.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾[البقرة: ١٢٠].

وهدى الله فى كتابه وكلام رسوله ﷺ.

وقال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ﴾

[طه: ١٢٣].

عموم الآية إذ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾[آل عمران: ٢٣].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾[النساء: ٦١].

قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾

[آل عمران: ١٦٤].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾

[النساء: ١٧٠].

قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

[المائدة: ١٦].

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

[النحل: ٤٤].

آثار فى النهى عن الخروج عن الكتاب والسنة

روى مسلم فى صحيحه أن النبي ﷺ خرج على أصحابه وهم يختصمون فى القدر، فكأنما يفقأ فى وجهه حب الرمان من الغضب. فقال: بهذا أمرتم أو لهذا خلقتم! تضربون القرآن بعضه ببعض بهذا هلك الأمم قبلكم. وفى رواية: - «إنما أهلك من كان قبلكم باختلافهم فى الكتاب»[(١)].

وقال ﷺ «أخوف ما أخاف عليكم جدال منافق عليم اللسان»[(٢)].

وقال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم» وفى رواية: «فلا تجالسوهم»[(٣)].

وفى الحديث المرفوع: «والمرآء فى القرآن كفر»[(٤)].

وفى الحديث: «ذرونى ما تركتكم فإنما هلك الذين من قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم».

عن عمر بن الخطاب ؓ قال: أناس من أهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله.

أخرجه سعيد بن منصور فى سننه.

وعن عبد الله بن مسعود ؓ قال: إنما هلك من كان قبلكم باتباعهم الكتب وتركهم كتاب الله.

وعن الأوزاعى رحمه الله قال: عليكم بالأثر وإياكم والكلام فى ذات الله. وكان رحمه الله يبغض أهل الأهواء وينهى عن مجالستهم أشد النهي.

---

(١) أخرجه مسلم ح٢٦٦٦، والطبرانى والبزار. انظر المجمع١/ ١٥٦ .

(٢) أخرجه ابن حبان فى صحيحه ١/ ٢٣٨، والطبرانى فى الكبير ،ورجاله رجال الصحيح، انظر المجمع ١/ ١٨٧ .

(٣) متفق عليه.

(٤) أخرجه أبو داود ح٤٦٠٣، وأحمد ٢/ ٢٥٨ وابن حبان فى صحيحه١/ ٢٣٢ .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «إن أصحاب الرأى أعداء السنن أعيتهم أن يحفظوها وتفلتت منهم أن يعوها واستحيوا حين سئلوا أن يقولوا لا نعلم فعارضوا السنن برأيهم فإياكم وإياهم».

من الأمثلة الدالة على اقتصار السلف فى الاستدلال على الكتاب والسنة وترك ما سواهما:-

١- مناقشات الصحابة فى سقيفة بني ساعدة لاختيار من يخلف النبي صلى الله عليه وسلم فى إمامة الأمة. وقد سلم الجميع لحديث النبي صلى الله عليه وسلم «الأئمة من قريش» ومِنْ ثَمَّ اختاروا للأمامة أبا بكر الصديق رضي الله عنه.

٢- مراجعة بعض الصحابة رضي الله عنهم لأبى بكر الصديق فى قتال مانعى الزكاة ثم موافقتهم له لما بين أن الشرع لا يفرق بين تاركى الصلاة ومانعى الزكاة.

٣- مراجعة ابن عباس رضي الله عنهما للخوارج الذين كفروا علياً وأصحابه فرد عليهم شبههم بالكتاب والسنة فتاب منهم من تاب ورجعوا إلى الحق.

٤- محاورة الإمام أحمد لقاضى المحنة ابن أبى دؤاد والتى اقتصر فيها فى رده على الكتاب والسنة متمسكاً بطريقة السلف فى ذلك.(١)

٥- محاورة عبد العزيز المكى مع بشر المريسى والتى سجلها فى كتابه (الحيدة) فى قضايا خلق القرآن والأسماء والصفات الإلهية.(٢)

٦- رسالة الإمام أحمد فى (الرد على الجهمية والمعطلة).

٧- الإمام البخارى فى جزء (خلق أفعال العباد).

٨- الدارمى فى رده على بشر المريسي. ← شيخ المعتزلة

(١) انظر منهج علماء الحديث والسنة: ص١٠٩-١٢٢.

(٢) المرجع السابق: ص١٢٣-١٤٠. مع وجود بعض المآخذ على هذا الكتاب حيث أنكر فيه أن يقال سمع الله وبصر الله لعدم ورود النص بذلك وهذا خطأ من جهتين الأولى: أنه قد ورد به النص كقول عائشة رضي الله عنها «سبحان الذى وسع سمعه الأصوات» متفق عليه وقول النبي صلى الله عليه وسلم «فيسمعهم الداعى وينفذهم البصر» رواه مسلم وغيره وفسره غير واحد على أنه بصر الرحمن عز وجل. الجهة الثانية: أن ورود الأسماء كاف فى إثبات الصفات لأن الاسم يتضمن الصفة فاسم الحى يدل علي صفة الحياة واسم القدير يتضمن صفة القدرة وهذا هو الحق فى هذه المسألة عند عامة أهل السنة والحديث. (وكتبه ياسر برهامي).

مناظرة بالكتاب والسنة
من آثار السلف الصالح

دخل غيلان على عمر بن عبد العزيز وكان قد تكلم فى القدر فقال له عمر ويحك يا غيلان ما هذا الذى بلغنى عنك؟ قال: يا أمير المؤمنين أتكلم فتسمع قال: تكلم فقرأ غيلان أول سورة الإنسان وفيها: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[الإنسان: ٣] يؤيد بها قوله فى نفى القدر. فقال له عمر: ويحك من ههنا تأخذ الأمر وتدع بدء خلق آدم عليه السلام؟ ثم تلى عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة: ٣٠] إلى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[البقرة: ٣٣].

ومراد عمر تذكيره بالأصل والمبدأ، وأن الله خلق الإنسان، وخلق أعماله، ولا ينفى ذلك مسئوليته عما يفعله.

فقال غيلان: والله يا أمير المؤمنين لقد جئتك ضالاً فهديتنى وأعمى فأبصرتنى وجاهلاً فعلمتني، والله لا أتكلم فى شئ من هذا الأمر أبداً.

ولكن غيلان نقض العهد بعد وفاة عمر بن عبد العزيز في زمان هشام. فجاء به هشام وذكره بقول الله تعالى فى سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وسأله هشام: علام استعنته على أمر بيده لا تستطيعه إلا به، أو على أمر فى يدك ثم أمر به ليضربوا عنقه.(١)

٢- تقديم النقل على العقل

سار السلف على تقديم الأدلة الشرعية (السمعية) (النقلية) فى إثبات عقائد الدين وحقائقه الدينية، ورفضوا رفضاً قاطعاً إتباع منهج علماء الكلام فى الاستدلال بالأدلة العقلية المأخوذة من علم الكلام والفلسفة.

---

(١) منهج علماء الحديث والسنة فى أصول الدين: د. مصطفي حلمي ط. دار الدعوة الاسكندرية ص٤٥-٤٦ نقلاً عن (التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع) للملطى ص١٦٨ وكتاب السنة لأحمد بن حنبل ط. السلفية بمكة المكرمة سنة ١٣٤٩هـ جـ٢ / ص١٢٧ .

فكان نهج السلف أن يبدأوا بالشرع أولاً . . . ثم يخضعون له العقل، ومِنْ ثَمَّ يقدمون الرواية على النظر العقلى وفق طرق المتكلمين.

وهم يرون أن العقل يوافق الشرع ولا يخالفه، وقد يأتى الشرع بمحارات العقول، وهو لا يأتى أبداً بمحالات العقول فلا تعارض بين نقل صحيح ونظر عقلى سليم. والنقل الصحيح حجة، والنظر العقلى تابع للدليل السمعى ولا يتعارض معه أبداً.

أما المتكلمون فإنهم يقدمون أدلتهم العقلية على الأدلة السمعية. فيبدأون فى البحث عما تقبله عقولهم وترضاه من آراء المتكلمين، ثم يخضعون لها نصوص الشرع. وهم يرون أن الأدلة العقلية قطعية، وأن الأدلة النقلية أدلة ظنية، لذا يعمدون إلى تأويل ما خالف أرائهم العقلية من الشرع ليوافق ما هم عليه.

وقد ورد العديد من أقوال السلف التى تبين رفضهم لعلم الكلام ونبذه، مما يبين بطلان تقديمه على الشرع فى الاستدلال، وسنذكر طائفة منها قريباً.

يقول ابن تيمية رحمه الله: ولهذا لا يوجد فى كلام أحد من السلف أنه عارض القرآن بعقل ورأى وقياس ولا بذوق ووجد ومكاشفة، ولا قال قط: قد تعارض فى هذا العقل والنقل، فضلاً عن أن يقول: فيجب تقديم العقل، والنقل: يعنى القرآن والحديث وأقوال الصحابة والتابعين إما أن يفوض وإما أن يؤول ولم يكن السلف يقبلون معارضة الآية إلا بآية أخرى تفسرها وتنسخها أو بسنة الرسول ﷺ تفسرها، فإن سنة رسول الله ﷺ تبين القرآن وتدل عليه وتعبر عنه.(١)

يقول شارح الطحاوية: [وكيف يتكلم فى أصول الدين من لا يتلقاه من الكتاب والسنة، إنما يتلقاه من قول فلان، وإذا زعم أنه يأخذه من كتاب الله، لا يتلقى تفسير كتاب الله من أحاديث الرسول، ولا ينظر فيها، ولا فيما قاله الصحابة والتابعون لهم بإحسان المنقول إلينا عن الثقات النقلة] ا.هـ

يقول الشاطبى فى الاعتصام(٢): إن الشريعة بينت أن حكم الله على العباد لا يكون إلا بما شرع فى دينه على ألسنة أنبيائه ورسله ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا

---

(١) من الفتاوى الكبرى لابن تيمية جـ١٣ / ص٢٨-٢٩ نقلاً عن معالم الانطلاقة الكبرى لمحمد بن عبد الهادى المصرى ط. دار طيبة ص٦٧ .

(٢) جـ ١/ ٤٥ .

مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء: ١٥] وقال: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾[النساء: ٥٩] وقال: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[الأنعام: ٥٧]، وأشبه ذلك من الآيات والأحاديث، فخرجت عن هذا الأصل فرقة زعمت أن العقل له مجال فى التشريع وأنه محسن ومقبح فابتدعوا فى دين الله ما ليس فيه.(١)

وقال ابن أبى العز فى شرحه للعقيدة الطحاوية ص١٩٠-١٩١: [وكل من قال برأيه وذوقه وسياسته مع وجود النص، أو عارض النص بالمعقول فقد ضاهى إبليس حيث لم يسلم لأمر ربه بل قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[الأعراف: ١٢]. وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾[النساء: ٨٠]. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[آل عمران: ٣١] وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[النساء: ٦٥]. أقسم سبحانه بنفسه أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا نبيه ويرضوا بحكمه ويسلموا تسليما].(٢)

وقال أبو المظفرالسمعانى فى صون المنطق ص١٨٢:

[اعلم أن فصل ما بيننا وبين المبتدعة هو مسألة العقل فإنهم أسسوا دينهم على المعقول وجعلوا الاتباع والمأثور تبعاً للمعقول، وأما أهل السنة: قالوا: الأصل فى الدين الاتباع والمعقول تبع ولو كان أساس الدين على المعقول لاستغنى الخلق عن الوحى وعن الأنبياء صلوات الله عليهم ولبطل معنى الأمر والنهي، ولقال من شاء ما شاء، ولو كان الدين بنى على المعقول وجب ألا يجوز للمؤمنين أن يقبلوا أشياء حتى يعقلوا].(٣)

ويقول ابن تيمية رحمه الله فى مجموع الفتاوى جـ٣:

إن كثيراً مما دل عليه السمع يعلم بالعقل أيضاً، والقرآن يبين ما يستدل به العقل ويرشد إليه وينبه عليه كما ذكر الله ذلك فى غير موضع. فإنه سبحانه وتعالى بين

---

(١) نقلاً عن (منهج الماتريدية فى العقيدة) من سلسلة رسائل ودراسات فى منهج أهل السنة برقم٣٧ للدكتور محمد بن عبد الرحمن الخميس. ط.دار الوطن للنشر. الرياض ط.الأولى: ص١٨ .

(٢) نقلاً عن المرجع السابق: ص١٨-١٩ .

(٣) نقلاً عن المرجع السابق: ص١٧-١٨ .

من الآيات الدالة عليه وعلى وحدانيته وقدرته وعلمه وغير ذلك مما أرشد العباد إليه ودلهم عليه، كما بين أيضاً ما دل على نبوة أنبيائه، وما دل على المعاد وإمكانه فهذه المطالب هى شرعية من جهتين: من جهة أن الشارع أخبر بها، ومن جهة أنه بين الأدلة العقلية التى يستدل بها عليهما، والأمثال المضروبة فى القرآن هى أقيسه عقلية، وقد بسط فى غير موضع، وهى أيضاً عقلية من جهة أن تعلم بالعقل أيضاً.(١)

من أقوال العلماء فى ذم علم الكلام والانشغال به(*)

قال الشافعى رحمه الله: «لأن يُبْتَلى العبدُ بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك خير له من أن ينظر فى علم الكلام». وقال: «حكمى فى علماء الكلام أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم فى العشائر والقبائل ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ فى الكلام». وقال أيضاً.

كل العلوم سوى القرآن مشغلة ... إلا الحديث والفقه فى الدين
العلم ما كان فيه قال حدثنا ... وما سوى ذلك وسواس الشياطين

وقال الإمام أحمد رحمه الله: «لا يفلح صاحب كلام أبداً وعلماء الكلام زنادقة».

وعن أبى يوسف صاحب أبى حنيفة رحمهما الله أنه قال لبشر المريسي: «العلم بالكلام هو الجهل، والجهل بالكلام هو العلم، وإذا صار الرجل رأساً فى الكلام قيل زنديق أو رمى بالزندقة». وقوله: «الجهل بالكلام هو العلم» أراد اعتقاد عدم صحته فإن ذلك علم نافع، أو أراد به الإعراض عنه، أو ترك الالتفات إلى اعتباره، فإن ذلك يصون علم الرجل وعقله، فيكون علماً بهذا الاعتبار. والله أعلم.

---

(١) نقلاً عن المرجع السابق: ص٢٠ .

(*) يراجع فى ذلك:
أضواء البيان للشنقيطى فى تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[محمد: ٢٤]
مقدمة العقيدة الطحاوية ط. الشيخ أحمد شاكر.
الروض الباسم فى الذب عن سنة أبى القاسم لابن الوزير اليمانى جـ٢ / ص١٦٨ ط. المطبعة السلفية القاهرة سنة١٣٨٥هـ. ولمزيد من التفصيل راجع: منهاج السنة النبوية وبيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول وكتاب النبوات والفتوى الحموية كلها لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله. وكذلك الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، واجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية كلاهما لابن القيم.

وعن أبى حنيفة النعمان رحمه الله قال عندما سئل فى الكلام: «مقالات الفلاسفة، عليك بالأثر وطريقة السلف وإياك ما أحدث وكل محدثة فإنها بدعة»

وعن أحمد بن حنبل عن أبى عمر حفص بن عمر الضرير رحمهما الله أنه قال: الكلام كله جهل وإنك كلما كنت بالجهل أعلم كنت بالعلم أجهل.

وعن مالك رحمه الله قال: إياكم والبدع قيل: يا أبا عبد الله وما البدع؟ قال: أهل البدع الذين يتكلمون فى أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته ولا يسكتون كما سكت عنه(*) الصحابة والتابعون لهم بإحسان.

وعنه قال: من طلب الدين بالكلام تزندق. ويروى هذا أيضاً عن أبى يوسف.

وعن عبد الله بن المبارك رحمه الله قال: أجمع أهل الفقه والآثار فى جميع الأمصار أن أهل الكلام أهل بدع وزيغ، ولا يعدون عند الجميع فى طبقات العلماء. وإنما العلماء أهل الأثر والتفقه فيه، ويتفاضلون فيه بالإتقان والميز والفهم.

وعن الشافعى رحمه الله قال: ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطاطاليس.[١]

وعن الحسن البصرى رحمه الله قال: إنما أهلكتهم العجمة، (أى المتكلمون) فحرفوا على حسب هواهم.

وعن جعفر بن محمد الصادق رحمه الله قال: إذا بلغ الكلام إلى الله فأمسكوا عنه، إن أقواماً تكلموا فى الله فتاهوا.

وعن سفيان الثورى رحمه الله قال: عليكم بالأثر وإياكم والكلام فى ذات الله.

وعن الأوزاعى رحمه الله قال: اصبر نفسك على السنة، وقف حيث وقف القوم، وقل فيما قالوا، وكف عما كفوا.

---

(١) أرسطاطاليس بن نيقوماخس أول من وضع فن المنطق وهو من أهل اصطخر ذكره الشهرستاني فى الملل والنحل، وابن الصلاح والنووى فى الطبقات والكندى وابن زولاق فى تاريخ مصر وصون المنطق للسيوطى وغيرهم.

(*) المقصود بالسكوت من هذه الأمور هو السكوت عن الخوض فى تفاصيل الحقيقة والكيفية والتأويلات ذلك على طريقة المتكلمين وإلا فالكتاب والسنة والآثار مليئة بتوضيح العقيدة الصحيحة فى الأسماء والصفات والقدر بأوضح الأدلة العقلية والنقلية. (وكتبه ياسر برهامي).

وقال: عليك بآثار السلف وإياك آراء الرجال وإن زخرفوها بالقول.

وعن الإمام الذهبى رحمه الله قال: من أمعن النظر فى علم الكلام إلا وأداه اجتهاده إلى القول بما يخالف السنة، ولهذا ذم علماء السلف النظر فى علم الكلام، فإن علم الكلام مولَّد من علم الحكماء والدهرية.

وعن هشام بن عبد الملك رحمه الله أنه قال لابنه يعظه إياكم وأصحاب الكلام فإن أمرهم لا يؤول إلى الرشاد.

وعن عبد الله بن طاهر رحمه الله أنه سئل: يا أبا يعقوب هذه الأحاديث التى تروونها فى النزول ما هي؟ فقال له: أيها الأمير هذه الأحاديث رواها من روى أحاديث الطهارة والغسل والصلاة والأحكام، ونقلها العلماء. ولا يجوز أن ترد هى كما جاءت بلا كيف، فإن يكونوا فى هذه عدولاً وإلا فقد ارتفعت الأحكام وبطل الشرع. فقال له السائل: شفاك الله كما شفيتني. وهذا مروى عن أبى حاتم وأبى زرعة الرازي.

وعن الجنيد بن محمد رحمه الله قال: أقل ما فى الكلام سقوط هيبة الرب من القلب، والقلب إذا عرى من الهيبة لله عري من الإيمان.(١)

وعن ابن قتيبة رحمه الله قال: «فأما الكلام فليس من شأننا ولا أرى أكثر من هلك إلا به».(٢)

---

(١) راجع كذلك: صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام للحافظ السيوطي.

(٢) منهج علماء الحديث والسنة: ص١٠٣ نقلاً عن الاختلاف فى اللفظ لابن قتيبة ص٢٢٥ .

أقوال علماء الكلام فى ذم الكلام والانشغال به

وقد نُقِلَ عن كبار علماء الكلام أنفسهم -خاصة الأشاعرة منهم- ما فيه ذم علم الكلام والاشتغال به، وإقلاعهم فى آخر حياتهم عنه، لما رأوا من قبح غوائله. فمن ذلك :-

قال الرازى فى آخر حياته: لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفى عليلاً ولا تروى غليلاً، ورأيت أقرب الطرق: القرآن. أقرأ فى الإثبات ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ و﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾. وأقرأ فى النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ ثم قال: «من جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتي».

وقال أيضاً فى وصيته: ولقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوى الفائدة التى وجدتها فى القرآن العظيم، لأنه يسعى فى تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى، ويمنع من التعمق فى إيراد المعارضات والمتناقضات، وما ذلك إلا للعلم بأن العقول البشرية تتلاشى وتضمحل فى تلك المضايق العميقة والمناهج الحقية.[1]

* وقال أبو الوفاء بن عقيل لبعض أصحابه: أنا أقطع أن الصحابة ماتوا وما عرفوا الجوهر والعرض،[2] فإن رضيت أن تكون مثلهم فكن، وإن رأيت أن طريقة المتكلمين أولى من طريقة أبى بكر وعمر فبئس ما رأيت.

وقال الوليد بن أبان الكرابيسى لبنيه حين حضرته الوفاة يوصيهم: «هل تعلمون أحداً أعلم بالكلام مني؟ قال بنيه: لا. قال: فتتهموني؟ قالوا: لا: قال: فإنى أوصيكم أتقبلون؟ قال: نعم. قال: عليكم بما عليه أهل الحديث. فإنى رأيت الحق معهم.

---

(١) والرازى من أعظم أئمة التأويل فى زمانه، وكتب ذلك فى (أقسام اللذات) اعترافاً منه بأن طريق الحق اتباع القرآن فى قضية أسماء الله تعالى وصفاته.

(٢) الجوهر: ما يقوم بنفسه (ذات)، والعرض: ما يقوم بالجوهر (صفة). مثالك زيد أسود، والأعراض تسعة، كم، أين، متى، وضع، ملك، أن يفعل، أن ينفعل، إضافة.

وعن أبى المعالى الجوينى قال: «لقد جلت أهل الإسلام جولة وعلومهم وركبت البحر الأعظم، وغصت فى الذي نهوا عنه، كل ذلك فى طلب الحق، وهرباً من التقليد، والآن فقد رجعت عن الكل إلى كلمة الحق، عليك بدين العجائز، فإن لم يدركنى الحق بلطيف بره فأموت على دين العجائز، ويختم عافية أمرى عند الرحيل بكلمة الإخلاص، فالويل لابن الجويني».

وكان أيضاً يقول لأصحابه: «يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام فلو عرفت أن الكلام يبلغ بى ما بلغ ما اشتغلت به».

وذكر عن الحفيد ابن رشد وهو أعلم الناس بالفلسفة أنه قال: ومن الذى قال فى الإلهيات شيئاً يعتد به؟.

وذكروا عن الشهرستانى أنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم. وقال فى ذلك: -

لعمرى لقد طفت المعاهد كلها — وسيرت طرفى بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعاً كف حائر — على ذقن أو قارعاً سن نادم

وقال الفخر الرازي: -

نهاية إقدام العقول عقال — وغاية سعى العالمين ضلال

وأرواحنا فى وحشة من جوفنا — وحاصل دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا — سوى أن جمعنا فيه قيل وقال

وعن أبي المعالى الجوينى قال: لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما اشتغلت بالكلام.

وعن أبي حامد الغزالى قال: من أشد الناس غلواً أو إسرافاً طائفة من المتكلمين كفروا عوام المسلمين، وزعموا أن من لا يعرف الكلام معرفتنا ولم يعرف العقائد الشرعية بأدلتها التى حررناها فهو كافر. فهؤلاء ضيقوا رحمة الله على عباده أولاً، وجعلوا الجنة وقفاً على شرذمة يسيرة من المتكلمين.

وقال أيضاً: وأما الخلافيات التى أحدثت فى العصور المتأخرة، وأبدع فيها من التحريرات والتصنيفات والمجادلات ما لم يعهد مثلها فى السلف، فإياك أن تحوم حولها، واجتنبها اجتناب السم القاتل. فإنها الداء العضال واحترز من شياطين الإنس، فإنهم أراحوا شياطين الجن من التعب فى الإغواء والإضلال.(١)

والمتأمل لعلم الكلام ومحصلته يتبين له مخالفته للشرع من وجوه منها:-

١- إن مباحثه مبتدعة محدثة.

٢- أن دراسته تشغل عن دراسة الكتاب والسنة.

٣- أن منهجه مغاير للمنهج القرآنى فى عرض مسائل العقيدة وتناولها.

٤- أن مبادئه وأصوله تتنافى مع الكتاب والسنة.

٥- إن الاشتغال بعلوم الكلام أدى إلى تفكك وحدة الأمة، وأوقع الكثيرين فى الشك والحيرة والتخبط بل والإلحاد(٢).

٦- أنهم لم يفلحوا فى الرد على أهل الكتاب من اليهود والنصاري، ومحصلة جهودهم هنا غير كافية، مع أنهم ما أحدثوا منهجهم إلا بزعم الرد على المخالفين بأدلة عقلية لا شرعية لعدم إيمان أهل الكتاب بالقرآن والسنة.(٣)

---

(١) راجع فى ذلك: تفسير الشنقيطى لقوله تعالى: ﴿**أفلا يتدبرون القرآن**﴾.
والسيوطى فى صون المنطق والكلام.

(٢) راجع فى ذلك رسالة الدكتوراة(موقف الإمام ابن القيم من أراء المتكلمين) للدكتور محمد سعيد صبرى صالح.

(٣) وقد نجح العلماء السلفيون فى إفحام أهل الكتاب وبيان ضلالهم بأدلة القرآن والسنة، كما فى (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) لابن تيمية، (هداية الحيارى فى الرد على أسئلة اليهود والنصارى) لابن القيم. يقول ابن تيمية: (كثير من المصنفين فى الكلام لا يردون على أهل الكتاب إلا ما يقولون أنه يعلم بالعقل مثل تثليث النصارى ومثل تكذيب محمد ﷺ ولا يناظرونهم فى غير هذا من أصول الدين، وهذا تقصير منهم ومخالفة لطريق القرآن، وقد ذكرت فى الرد على النصارى من مخالفتهم للأنبياء كلهم مع مخالفتهم لصريح العقل ما يظهر به من كفرهم ما يظهر».

درء تعارض النقل والعقل

لا يعنى تقديم السلف للنقل على العقل، واقتصارهم فى الاستدلال على الكتاب والسنة، ورفضهم تأويل النصوص بالأدلة العقلية على طريقة المتكلمين، أن السلف ينكرون دور العقل فى التوصل إلى الحقائق والمعارف، أو أنهم لا يستعملون الفكر والنظر فى الآيات الكونية. ولكن ذلك يعنى أنهم لا يسلكون فى استعمال العقل الطريقة التى سلكها علماء الكلام فى الاستدلال بالعقل وحده فى المسائل العقائدية والغيبية، وتقديمه على كلام الله عز وجل خالق العقل والعقلاء، وتقديمه على سنة النبي ﷺ المبلغ عن الله بالوحي، والمعصوم من الخطأ فى البيان.

فالسلف فى منهجهم لا يدعون وجود تعارض بين الشرع والعقل، بل ينفون هذا التعارض الذى يصطنعه علماء الكلام المتأثرون بالفلاسفة اليونانيين.

ولكن شتان بين وظيفة العقل عند السلف، ودوره عند علماء الكلام والفلاسفة.(١)

فعند علماء السلف:

العقل أمر معنوى يقوم بالعاقل سواء سُمِّيَ عارضاً أو صفة: وهو مخلوق خلقه الله وأودعه فى الإنسان، وهو يؤدى وظيفته من خلال قدراته، ومن خلال ما حوله مما يحيط به ويدركه، وقدرات العقل كمخلوق محدودة، وإدراك العقل للكون على اتساعه مقصور على الإحاطة بما تدركه حواس الإنسان وحواس الإنسان محدودة، فالقدرة المطلقة والإحاطة الشاملة، من صفات الخالق وليست من صفات العقل المخلوق.

والعقل الإنسانى غير معصوم من الخطأ، وعقلاء الفلاسفة وعلماء الكلام يقع منهم من الجهل والضلال الكثير، والرد إليهم يوقع فى الحيرة والاضطراب

---

(١) يراجع فى ذلك: الصفات الإلهية فى الكتاب والسنة للدكتور محمد أمان بن على الجامى ط. دار الإيمان ص٥٨-٦١ . السلفية بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية ط. دار الدعوة ص٥٨-٨٩ . ومنهج علماء الحديث والسنة فى أصول الدين ط. دار الدعوة: ص١٤٢-١٥١ . كلاهما للدكتور مصطفى حلمي. وتمام المنة فى الرد على أعداء السنة وتيسير علم الحديث للشيخ محمد إسماعيل ط. الجماعة الإسلامية بالاسكندرية.

واختلاف الأحـزاب فكيف يعارض كلام الله وكلام رسوله المعـصوم ﷺ بأقوال من يجوز عليه الخطأ والضلال.

ولا يأتى الشرع بما يرفـضه العقل، فـلا يعارض نقل صحيح عـقلاً صحيـحاً. والشرع قد يأتـى بما تحتار فيه العـقول، ولكن لا يأتى بما يستحـيل على العقل أن يتقبله.

والعقل يوجب علينا تصديق الشرع فى كل مـا أخبر به، لأن العقل آمن برسالة الرسول ﷺ وهو المبلغ عن الله فوجب الأخذ بما جاء به من الوحي.

ومقام التصـديق بالرسول ﷺ يوجب اتباعه لا معارضته أو مـخالفته ولو قلنا برد العقل للنص الذى أخـبر به النبي ﷺ لكنا بذلك قد أبـطلنا دلالة العقل التى أوجبت علينا قبول كل ما أخبر به النبي ﷺ .

والرد إلى الشرع يحدث الائتـلاف والاجتماع، وهو انقياد لأمـر واحد يتصف بالصدق، ولا يوجد ما يمنع اجتماع الخلق على الأدلة الشرعية.

بخلاف العقل فالرد إلى عقول الرجال يسبب اختلاف الآراء وقبول رأى منها لا يعنى صدقـه يقيناً، فـلا سبيل إلى ثبـوته ومعرفـته، ولا هو وسيـلة لجمع الناس واتفاقهم.

العقل وإن كان شرعاً مناط التكليف، ولكن الشرع لم يجعل له دوراً فى تشريع الحلال والحرام ووضع الواجبات الدينية والمنهيات الشرعية.

إن التنزيل جـاء برد الناس عند التنازع إلى الكتاب والسنة وهذا يـوجب تقديم السمع لا العقـل قال تعالى: ﴿**فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**﴾[النساء: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿**اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ**﴾[الأعراف: ٣].

أما علماء الكلام وأتباع الفلاسفة فإنهم:

يقدسون العقل غاية التقديس، بل أن بعض الفلاسفة يرى أن العقل عيناً قائمة بنفسها.

ويرون أن دلالة العقل قطعية وبرهانية يقينية.

ويحصرون الاستدلال بالعقل فى مصطلحاتهم الكلامية وبراهينهم المأخوذة من المنطق والفلسفة.

ويجعلون للعقل إحاطة كلية وإدراكاً واسعاً لكل ما فى الكون، وقدرة على الوصول إلى الحقائق الغيبية، لذا يخوضون بعقولهم فى أمور الإلهيات والغيبيات وما وراء الطبيعة.

لذا فهم يوجبون على الله تعالى ما توجبه عقولهم، ويمنعون عن الله ما تمنعه عقولهم، فيما يتعلق فى أفعال الله عز وجل وصفاته وأسمائه.

ولذا فهم يخضعون بالتأويل نصوص الشرع من الكتاب والسنة لما ذهبت إليه عقولهم من الأدلة. فأدلتهم العقلية أصل والشرع تابع لها.(*)

ويلزمهم على ذلك :-

- أن ظاهر الكتاب والسنة قد يخالف العقل.
- أن دلالة العقل قطعية.
- أن دلالة النص ظنية.
- أن الواجب صرف النص عن ظاهره ليوافق العقل إن تعارضا.
- أن الأخذ بظاهر الكتاب والسنة يؤدى إلى الضلال فى أمهات مسائل أصول الدين.

(*) يقول ابن تيمية رحمه الله: (والعجب أن من هؤلاء أي مدعى النظر والاستدلال من يصرح بأن عقله إذا عارضه الحديث -لاسيما فى أخبار الصفات- حمل الحديث على عقله وصرح بتقديمه على الحديث وجعل عقله ميزاناً للحديث فليت شعرى هل عقله هذا كان مصرحاً بتقديمه فى الشريعة المحمدية فيكون من السبيل المأمور باتباعه أم هو عقل مبتدع جاهل ضال حائر خارج عن السبيل فلا حول ولا قوة إلا بالله) أ.هـ من نقض المنطق لابن تيمية ص٤٩ .

- أن الصحابة رضي الله عنهم جـهلوا هذه الأدلة العقلية فلم يهتـدوا إلى الحق فى مسائل أصول الدين، أو أنهم انشغلوا عنها بأعباء الدعوة والجهاد فى سبيل الله.

أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يبين للصحابة أن ظاهر الكتاب والسنة غير مراد.

- أن المتكلمين أفضل علماً وأحكم فهماً من السلف.

- أن الفهم الكامـل لعقائد الإسـلام لم يعرف إلا على عهـد المتكلمين. وكل ذلك باطل.

فالحجـة كل الحجة فى ما ثبت فى كتـاب الله تعالى وسنة النبي صلى الله عليه وسلم، وليس لأحد أن يخـالف الكتاب أو السنة لقول قـائل كائناً من كـان، وأن الله تعالى أتم دينه قبل وفـاة نبيه وأكمله قـال تعالي: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾[المائدة: ٣] وأن النبي صلى الله عليه وسلم بينه غاية البيان، فبلغ الرسالة كـاملة، وأدى الأمانة تامة، وتركنا على المحجـة البيضاء ليلهـا كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، والصحابة أعلم الناس بهذا الدين إذا أخذوه عن النبي صلى الله عليه وسلم فوعوه وعـياً تاماً، ونقلوه نقلاً كـاملاً، وعملوا به ففـتح الله البلاد على أيديهم، ومكنهم فى الأرض، وانقادت لهم قلوب العبـاد قبل رقابهم، فدخلوا فى دين الله طواعية أفواجاً.

علماء السلف أهل نظر واستدلال

يقول ابن تيمية رحمه الله: «ومن العجب أن أهل الكلام يزعمون أن أهل الحديث والسنة أهل تقليد، ليسوا أهل نظر واستدلال، وأنهم ينكرون حجة العقل، وربما حكى إنكار النظر عن بعض أئمة السنة، وهذا مما ينكرونه عليهم فيقال لهم: ليس هذا بحق فإن أهل السنة والحديث لا ينكرون ما جاء به القرآن هذا أصل متفق عليه بينهم، والله قد أمر بالنظر والتفكر والتدبر فى غير آية، ولا يعرف عن أحد من سلف الأمة ولا أئمة السنة وعلمائها أنه أنكر ذلك، بل كلهم متفقون على الأمر بما جاءت به الشريعة من النظر والتفكر والاعتبار والتدبر وغير ذلك. ولكن وقع اشتراك فى لفظ (النظر) و(الاستدلال) ولفظ (الكلام) فإنهم أنكروا ما ابتدعه المتكلمون من باطل نظرهم وكلامهم واستدلالهم، فاعتقدوا أن إنكار هذا مستلزم لإنكار جنس النظر والاستدلال. اهـ.(١)

أمثلة لاستدلالات عقلية للسلف الصالح

جاء جماعة من الدهرية إلى الإمام أبى حنيفة فقال لهم: أجيبونى عن مسألة؟ فقالوا: هات فقال: ما تقولون فى رجل يقول لكم إنى رأيت سفينة مشحونة بالأحمال مملوءة من الأثقال قد احتوشها فى لجة البحر أمواج متلاطمة ورياح مختلفة وهى من بينها تجرى مستوية ليس لها ملاح يجريها ولا متعهد يدفعها فهل يجوز ذلك فى العقل؟ قالوا: لا هذا شئ لا يقبله العقل! فقال أبو حنيفة: يا سبحان الله إذاً لم يجز فى العقل سفينة تجرى فى البحر مستوية من غير متعهد ولا مجر فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها وتغير أعمالها وسعة أطرافها وتباين أكنافها من غير صانع وحافظ؟ فقالوا: صدقت.

وسئل الشافعي: ما الدليل على وجود الصانع؟ فقال: ورقة الفرصاد طعمها ولونها وريحها وطبعها واحد عندكم؟ قالوا: نعم. قال: فتأكلها دودة القز فيخرج منها الإِبْرَيْسَم، والنحل فيخرج منها العسل، والشاة فيخرج منها البعر، ويأكلها الظباء فينعقد فى نوافجها المسك فمن الذى جعل هذه الأشياء كذلك مع أن الطبع واحد؟ فأسلم المخالفون له على يديه.

---

(١) نقض المنطق لابن تيمية: ص٤٧ .

وذكر الإمام أحمد قلعة حصينة ملساء لا فرجة فيها ظاهرها كالفضة المذابة وباطنها كالذهب الإبريز، ثم انشقت الجدران وخرج من القلعة حيوان بصير فلابد من الفاعل. عنى بالقلعة البيضة وبالحيوان الفرخ.

وسأل هارون الرشيد الإمام مالكاً عن ذلك فاستدل باختلاف الأصوات وتردد النغمات وتفاوت اللغات.

واستحسن العلماء واحتجوا بقول لأعرابى سئل عن الدليل فقال: البعرة تدل على البعير، والروث على الحمير، وآثار الأقدام على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، أما تدل على الصانع الحليم العليم القدير؟.

وعن الحسن البصرى قال: كانوا -يعنى الصحابة- يقولون الحمد لله الذى لو جعل هذا الخلق خلقاً دائماً لا ينصرف لقال الشاك فى الله لو كان لهذا الخلق رب لحادثه، وأن الله قد حادثه بما ترون من الآيات: أنه جاء بضوء طبق ما بين الخافقين، وجعل فيها معاشاً وسراجا وهاجا، ثم إذا شاء ذهب بذلك الخلق، وجاء بظلمة طبقت ما بين الخافقين، وجعل فيها سكناً، ونجوماً وقمراً منيراً، وإذا شاء بنى بناء جعل فيه من المطر والبرق والرعد ما شاء وإذا شاء صرف ذلك، وإذا شاء جاء ببرد يقرقف الناس -أى يرعدهم- وإذا شاء ذهب بذلك وجاء بحر يأخذ بأنفاس الناس، ليعلم الناس أن لهذا الخلق رباً يحادثه بما يرون من الآيات، كذلك إذا شاء ذهب بالدنيا وجاء بالآخرة.

حادثه: أى جدده وجوده، فهو حادث، ويتعدى بالألف فيقال (أحدثه).

ودار نقاش بين راهب وخالد بن يزيد بن معاوية عن أحوال أهل الجنة. فسأله الراهب: أليس تقولون أنكم فى الجنة تأكلون وتشربون لا يخرج منكم أذى؟ أفلهذا مثل تعرفونه فى الدنيا؟ قال خالد: نعم الصبى يأكل فى بطن أمه من طعامها وشرابها ثم لا يخرج منه أذى. قال الراهب: أليس تقولون أن الجنة تأكلون فيها فواكه ولا ينقص منها شئ؟ أفلهذا مثل فى الدنيا تعرضون؟ قال خالد: نعم الكتاب يكتب منه كل شئ ثم لا ينقص منه شئ.

---

(١) منهج علماء الحديث: ص٤٨ نقلاً عن الشاطبى فى الاعتصام جـ٢ / ص١٨٧ ط. دار الشعب سنة ١٩٧٠م -القاهرة.

ذكر الشاطبى فى الاعتصام بعضاً من طرق الصحابة رضي الله عنهم إزاء تلقيهم الأخبار المروية فى مسائل التوحيد وتقبل العقل لها والاستدلال على صحتها بنظر عقلي. فمن ذلك.[1]

١- فهمهم وصف الصراط بأنه كحد السيف بأن العادة قد تخرق حتى يمكن المشى والاستقرار.

٢- اثبتوا الميزان للحساب بكيفية تليق بالآخرة، لأن الأعمال ليست كالأجسام التي توزن في الدنيا.

٢- اثبتوا عذاب القبر بأن رد الروح إلى البدن وتعذيبه يقبله العقل فالمحتضر يعالج سكرات الموت ويُخبر بآلام وكذلك أصحاب الأمراض المؤلمة ولا نرى عليه أثر ذلك.

٤- اثبتوا سؤال الملكين للميت وإقعاده فى قبره من قبيل خرق العوائد وخروج حكم ذلك عن حكمنا المعتاد فى الحياة الدنيا. ومثله إنطاق الجوارح لتشهد على صاحبها يوم القيامة، وقراءة الأمى الذى لا يقرأ لصحف أعماله يوم القيامة... إلخ.

٥- رؤية الله عز وجل فى الآخرة جائزة، ولا يمنعها العقل، إذ لا دليل فى العقل يدل على أنه لا رؤية إلا على الكيفية المعتادة عندنا فى الدنيا.

٦- تكلم الله تعالى: لا يمنع العقل ذلك فى حقه تعالى على وجه لا يشابه كلام المخلوقين ولكن على الوجه اللائق بجلاله عز وجل.

روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه أخبر بأحاديث رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة فعارضه سائل بقوله تعالى: ﴿**لا تدركه الأبصار**﴾ فقال له: «ألست ترى السماء» فقال: بلي. فسأله: أتراها كلها؟ أجاب: لا.

وقد تكلم أناس فى معية الله مع العباد وإحاطته بهم مع كونه مستوى على عرشه فوق سماواته. فضرب الإمام أحمد لذلك مثلين عقليين ولله المثل الأعلى. فقال: «لو أن رجلاً فى يده قوارير فيها ماء صاف، لكان بصره قد أحاط بما فيها مع مباينته له، فالله -وله المثل الأعلى- قد أحاط بصره بخلقه وهو مستو على عرشه.

والمثال الثاني: لو أن رجلاً بنى داراً لكان مع خروجه عنها يعلم ما فيها. فالله الذى خلق العالم يعلمه مع علوه عليه كما قال تعالى: ﴿**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾[الملك: ١٤].

---

(١) راجع فى ذلك (منهج علماء الحديث والسنة فى أصول الدين): ص٤٣-٤٤ .

النظر العقلى عند السلف

أدرك السلف أنه لا تعارض بين النقل الصحيح والعقل الصحيح، وعرفوا قدر العقل فى تأييد ما جاء به الشرع، وأكثروا من التأمل فى الايات الكونية، والنظر فى الأمثلة العقلية، الشاهدة على صدق الكتاب والسنة، والدالة على صحة العقائد الإسلامية، فألحقوا النظر العقلى بالأدلة الشرعية، وأمعنوا فى دراسة كتاب الكون المنظور، كما أمعنوا فى دراسة الوحى المقروء، ومكنتهم رجاحة عقولهم، وسلامة نفوسهم، واجتنابهم لمتاهات الفلسفة، واضطراب المتكلمين، من الوصول إلى موافقة العقل للشرع فى كل ما جاء به، وأنه لا تعارض بينهما، وأقاموا بذلك الحجة البالغة لمن تأمل كلامهم ودرس علمهم ووعى ما قالوا وما كتبوا.

والنظر العقلى والتأمل الفكرى فى الآيات الكونية الشاهدة على صدق وصحة العقائد الإسلامية منهج شرعي، دل عليه القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ وسار عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعى التابعين ومن سار على طريقتهم من علماء أهل السنة والجماعة.

وقد أحسن السلف فهم هذه الطريقة واستخدامها عند الحاجة إلى تأكيد ما ثبت فى الكتاب والسنة، وقد سجلت مناظراتهم وكتبهم التطبيق العملى لهذا النهج.

ولبيان ذلك كله نبين أولاً:

أدلة للنظر العقلى فى القرآن الكريم.

أدلة للنظر العقلى فى السنة النبوية.

أدلة للنظر العقلى عند السلف.

النظر العقلى فى القرآن الكريم

القرآن الكريم لا تنقضى عجائبه، ويحتاج إلى مَنْ يُعْمِل فيه فكره ونظره، ويتدبره بإخلاص وطلب للحق فينال منه الحقائق البينة، والقواعد المحكمة، والأمثلة الصائبة، فيستغنى بما عنده من الهدى عن الخوض فيما خاض فيه المتكلمون والفلاسفة.

وقد عرف السلف ذلك كله واستوعبوه فهماً وعلماً، ومارسوه تطبيقاًفى مناقشاتهم ومناظراتهم، ولقد أدرك هذه الحقيقة البعض من أئمة الكلام والفلسفة ورأوا أن الأخذ بطريقة القرآن والتمسك بها هى أصلح منهج لإصلاح العقائد والعقول[1] يقول الرازى فى اواخر حياته: لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفى عليلاً ولا تروى غليلاً ورأيت أقرب الطرق القرآن. أقرأ فى الاثبات: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾.

وأقرأ فى النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ ثم قال: من جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتي. ا.هـ.[٢]

وقال أيضاً فى وصيته: ولقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوى الفائدة التى وجدتها فى القرآن العظيم لأنه يسعى فى تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى ويمنع من التعمق فى إيراد المعارضات والمتناقضات وما ذلك إلا للعلم بأن العقول البشرية تتلاشى وتضمحل فى تلك المضايق العميقة والمناهج الحقية.[٣]

ولقد وقع فى القرآن المخاصمة مع الفرق الضالة، وذكر القرآن بأدلته السمعية العقائد الحقة، وأنكر على المعتقدات الباطلة، وبين شبهات المخالفين وذكر الرد عليها بالأدلة البرهانية والخطابية.[٤]

(١) راجع قواعد المنهج السلفى ص٢٢٣-٢٥٩ .

(٢-٣) المرجع السابق نقلاً عن الرازي: ص٢٢٣ .

(٤) راجع فى ذلك مقدمة الفوز الكبير فى أصول التفسير لشاه ولى الله بن عبد الرحمن.

قال السيوطي: قال العلماء: قد اشتمل القرآن على جميع أنواع البراهين والأدلة، وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحذير تبنى من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله قد نطق به لكن أورده على عادات العرب دون دقائق طرق المتكلمين لأمرين:-

أحدهما: بسبب ما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

والثاني: أن المائل إلى الدقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام، فمن استطاع أن يفهم بالأوضح الذى يفهمه الأكثرون لم ينحط إلى الأغمض الذى لا يعرفه إلا الأقلون ولم يكن ملغزاً. فأخرج تعالى مخاطباته فى محاجة خلقه فى أجلى صورة ليفهم العامة من جليهم ما يقنعهم وتلزمهم الحجة وتفهم الخواص من أبنائها ما يربى على ما أدركه فهم الخطباء ا. هـ.(١)

فالقرآن أقام الحجة العقلية على صحة ما جاء به من أمور الاعتقاد ولكن بطريقة أيسر فهما، وأقوى حجة، وأوضح دلالة، يستوعبها العالم والجاهل، الأعرابى فى الصحراء، والنجباء من العقلاء، وهى فوق ذلك حجة دامغة، لا سبيل إلى ردها أو التشكيك فيها.

فإذا جمعت الأدلة السمعية للقرآن، وأضيفت إليها ما أكدته الأدلة العقلية الواردة فى القرآن حصلت بها الحجة البالغة ولله الحمد والمنة.

فالأدلة العقلية فى القرآن توصل إلى ما يريده المتكلمون من أدلتهم العقلية، ولكن بوسيلة غير وسيلتهم، إذ تخلو من مصطلحات المتكلمين وعلوم الفلاسفة، وبالتالى من حيرتهم واضطرابهم واختلافهم، فاتفقت الأدلة القرآنية فى الهدف مع طريقة المتكلمين، وحققت ما لم تحققه، واختلفا فى الوسيلة والمنهج.

والمراد بالحجة العقلية احتجاج المتكلم على ما يريد إثباته بدليل عقلى يقطع به المعاند له فيها(٢) وكمالها أن تكون حجة واضحة يفهمها كل عاقل.

لقد أثبت علماء السلف أن أدلة الشرع عقلية أيضاً وليست نقلية فحسب، فإن القرآن الكريم جاء بالأدلة العقلية على أحسن بيان وأقومه واستخلصوا منه الطرق

(١) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطي: جـ٢ / ١٧٢ .
(٢) الإتقان فى علوم القرآن: ص١٧٢ / جـ٢ نقلاً عن ابن أبى الأصبع.

المبينة على البراهين المنطقية التى تخاطب الإنسان أينما كان وحيثما وجد، وكلها دل عليها القرآن الذى وصفه الله تعالى بأنه يهدى للتى هى أقوم.(١)

وسنذكر هنا طرقاً من ذلك إن شاء الله تعالى.

أمثلة للأدلة العقلية فى القرآن الكريم

إثبات وجود الخالق عز وجل:-

وردت بالقرآن الكريم آيات عديدة تحتوى على أدلة عقلية واضحة فى إثبات وجود الخالق عز وجل فمن أمثلة ذلك:

١- قال تعالى: **﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾**[البقرة: ١٦٤].

٢- قال تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾**[الزمر: ٢١].

ويسترعى الانتباه أن هذه الأدلة العقلية ليست أدلة جافة جامدة كأدلة المتكلمين، وهى إلى جانب إثبات وجود الخالق عز وجل تبعث فى النفس الإقرار بنعمه وآلائه، والشعور بالخضوع له، وتبين قدرته على الخلق والإبداع، وأنه على كل شئ قدير، فليست مجرد إثبات صانع للكون لا يعرف عنه شيئاً إلا إثبات وجود مطلق له، دون تعريف بهذا الخالق، وإثبات هذا الوجود أمر مشترك بينه وبين مخلوقاته، لم تزد عليه أدلة المتكلمين عليه شيئاً. ناهيك عن وقع هذه الآيات على النفس وزيادة اليقين والهدى فى القلب بها، وزيادة إيمان العبد بالله تبارك وتعالى خالقه ومولاه.

---

(١) منهج علماء الحديث والسنة: ص١٤٧ يقول ابن تيمية فى الفتاوى جـ١٢ / ٨: (القرآن قد دل على الأدلة العقلية التى بها يعرف الصانع وتوحيده وصدق رسوله، وبه يعرف إمكان المعاد، ففى القرآن من بيان أصول الدين التى تعلم مقدماتها بالعقل الصريح ما لا يوجد مثله فى كلام أحد من الناس بل عامة ما يأتى به حذاق النظار من الأدلة العقلية يأتى القرآن بخلاصتها وبما هو أحسن منها بالحق وأحسن تفسيرا قال تعالى: **﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾**[الفرقان: ٣٣].

٣- قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[غافر: ٦٤-٦٥].

٤- قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠) وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ﴾[غافر: ٧٩-٨١].

٥- قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾

[فصلت: ٩-١٢].

٦- قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[البقرة: ٢٨].

٧- قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ﴾[الطور: ٣٥-٣٦].

إثبات أنه وحده المستحق للعبادة:

وردت الآيات القرآنية العديدة الدالة علي استحقاقه عز وجل وحده للعبادة، وبطلان عبادة غيره عز وجل، من أمثلة ذلك:-

١- قال تعالى: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[النمل: ٥٩-٦٤].

والآيات واضحة الدلالة فى الرد على المشركين الذين يعبدون مع الله غيره ولا يفردونه بالعبادة فاستحقاق الله تبارك وتعالى للعبادة وحده ظاهر من كونه الخالق وحده الرازق وحده المنعم وحده، الذى يدفع الضر ويجلب الخير، ومن دونه - كائنا من كان- لا يملك من الأمر شيئاً. إن تبين ذلك كله للعيان جاء السؤال المعلوم إجابته لكل إنسان ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾[الأنعام: ٤٦].

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾[فاطر: ٤٠].

ومن أساليب القرآن فى الدلالة على ذلك الاحتجاج بإقرار المشركين بتوحيد الربوبية والاعتراف بخلق الله للعباد على توحيد الألوهية وهو وجوب إفراده تعالى بالعبادة دون غيره.

قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[الزمر: ٣٨].

ومن أساليب القرآن كذلك ضرب الأمثلة العقلية التى تدل على الفارق بين الشرك مع الله غيره وبين الإخلاص فى العبادة له وحده ليتبين الفارق بين المؤمن الموحد والكافر المشرك فى صورة حسية تستوعبها العقول.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر: ٢٩].

وكذلك بين الفارق بين الخالق والمخلوق، وبالتالى استحقاق الأول للعبادة وحده، ووجوب هذه العبادة على المخلوق.

قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[النحل: ١٧].

إثبات أن الإله واحد لا شريك له:

وأساليب القرآن في ذلك متعددة. منها الامتناع -عقلاً- تواجد أكثر من إله واحد للكون، فمثل هذه المشاركة في تصريف الكون وتسيير شئونه يترتب عليها اضطراب الكون وفساده، وهذه المشاركة تنافي كمال الألوهية والربوبية:-

قال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[المؤمنون: ٩١].

وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[الإسراء: ٤٢-٤٣].

وقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[الأنبياء: ٢٢].

ومن أدلة ذلك أيضاً أنه لا خالق للمخلوقات غير الله وحده، فإذا كان ذلك فكيف يتخذ معه في الألوهية شركاء.

قال تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[الرعد: ١٦].

إثبات النبوة وإرسال الرسول ﷺ

وردت آيات كثيرة في القرآن للدلالة العقلية على صدق الأنبياء عامة وصدق النبي ﷺ خاصة، وهي أدلة قوية الدلالة ظاهرة الحجة، نذكر بعضاً مما ورد في صدق نبوة النبي ﷺ وأنه رسول من عند الله تبارك وتعالى:-

١- قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[آل عمران: ٤٤].

فقصص الأنبياء السابقين وأخبار الأمم السابقة جاء بها النبي ﷺ صادقة مفصلة، وهي ليست من علم قومه، وهو لم يكن من أهل الكتاب ولم يتعلم على أيديهم، وقد جاء بما ليس عند أهل الكتاب في بعض هذه التفاصيل.

٢- قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾[العنكبوت: ٤٨].

وهذه حجة ظاهرة إذ كان ﷺ لا يقرأ ولا يكتب ثم جاء بهذا الكتاب المعجز.

٣- قال تعالى: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[يونس: ١٦].

وقال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾[المؤمنون: ٦٩] وهذه أيضاً حجة ظاهرة، فإنه ﷺ لبث فيهم عمراً عرفوه فيه جيداً وعرفوا صدقه وأمانته وصلاحه حتى لقبوه (بالأمين) فكيف يكذبوه فى أخباره عن أمر عظيم وهو رسالته وكيف لا يكذب على الناس ثم يكذب على الله!!!.

٤- قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾[الحاقة: ٤٤].

وهذه حجة ظاهرة إذ أن الله تعالى يكشف من يكذب على العباد بادعاء النبوة لئلا يلتبس الأمر على الناس، إذ كيف يكون كاذباً وينصره ويعزه بين الناس. وقد رأينا فى المكذبين من أدعياء النبوة كيف خذلهم الله وأهلكهم وفضح أستارهم وكشف كذبهم لكل ذى عينين.

إثبات البعث والنشور والإحياء بعد الإماتة:

الإيمان باليوم الآخر عقيدة غيبية، أخبرت بها رسل الله جميعاً، وكذبت بها أقوام عديدة، ولإثباتها تعددت أساليب القرآن الكريم فى استعمال الأدلة العقلية الدالة على إثبات ذلك، منها دلالة إحياء الله تعالى للأرض الميتة بإنزال المطر:-

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾[فاطر: ٩].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[الأعراف: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[فصلت: ٣٩-٤٠].

ومنها دلالة خلق الله تعالى للعباد فى النشأة الأولى، وخلقه لما هو أعظم وهم السموات والأرض فهو عز وجل على كل شئ قدير.

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[يس: ٧٨-٨٢].

فهذه الحبة الساكنة وهى أشبه بجماد هامد قد تترك على ذلك أسابيع أو أشهر أو سنوات، فإذا وضعت فى باطن الأرض، وسقيت بالماء، انبعثت فيها الحياة والحركة، والأرض الجرداء قد تترك هامدة السنين الطوال، ثم ينبتها ماء المطر فإذا هى قد اهتزت وربت.

والشجر الأخضر الرطب بالماء الذى ينبض بالحياة، إذا جف ويبس، أوقدته النار، وهذا الاشتعال يضاد رطوبته ومائه. فسبحان الخلاق العليم الذى هو على كل شئ قدير.

افيعجزه بعث الأبدان من الأجداث بعد الموت؟؟.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[الروم: ٢٧].

قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾[يس: ٨١].

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[الأحقاف: ٣٣].

والآيات فى ذلك كثيرة والأساليب متعددة ولسنا بصدد الإفاضة فيها والحصر لها[١] وفيما ذكرنا كفاية فى إثبات المطلوب.

---

(١) راجع فى ذلك تفسير مفاتيح الغيب للرازى المجلد الأول ص٥٢١-٥٢٦ . ففيه بيان لأساليب قرآنية أخرى فى إثبات الحشر والمعاد والبعث والنشور بعد الموت.

إثبات صفات الله وأفعاله:

من أساليب القرآن فى بيان صفات الله وأفعاله بيان استحقاق الله تبارك وتعالى لكل كمال فى صفاته وأفعاله وتنزيـهه عز وجل عن كل نقص وعيب وعجز، وما لا يليق من أحوال المخلوقين.

قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾[النحل: ٦٢].

وعمـوم الآية يفيد تنزيه الله تعـالى عما يعتـقده فيـه المشركون من المعتـقدات الباطلة التى كانوا عليـها ويصفونه بها مما يخالف مـا جاء به القرآن الكريم والسنة النبوية.

ومضمون الآية تنزيه الله عما لا يليق به ووصفه بكل كمال.

وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[النحل: ٥٧-٦٠].

ومن ذلك بيان بطلان عـبادة غير الله لكونـهم متصفين بالعـجز والنقص وهذا ينافي الألوهية واستحقاق العبادة.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾[مريم: ٤١-٤٢].

ضرب الأمثال العقلية فى القرآن الكريم

اعتمد القرآن ضرب الأمثلة العقلية للرد على المخالفين والمنكرين، وهذا النوع من الاستدلال من الأدلة القوية في إقامة الحجة وقد نبه القرآن على ذلك فى أكثر من آية:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧].

فالقرآن به الأمثال الواضحة الدلالة لمن يتدبرها ويعقلها، وفيها غنى للناس عن غيرها من طرق المتكلمين وغاية ما ذكره المتكلمون قد جاء القرآن بخلاصته على أحسن وجه وأتمه وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧].

فالكتاب مصدر الحق، والميزان هو العدل الذى جاء به الكتاب فلا يظن ظان أن الحق فى غيره وأن العدل عند سواه. ولمن أراد الحق والعدل أن يرجع إلى كتاب الله المنزل يتدبره ويتأمله.

وقال تعالى: ﴿فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

والآية نص فى الجهاد فى الدعوة إلى الله وإحقاق الحق من الدين وإبطال الباطل من شبه المشبهين وضلالات الضالين وإنكار الجاحدين هو بالقرآن العظيم فيه بيان العقائد وأدلتها ورد الشبه عنها.(1)

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ [الكهف: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣] والمراد: (ولا يأتيك يا محمد ﷺ هؤلاء المشركون وأمثالهم بكلام يحسنونه ويزخرفونه ويصورون به باطلاً أو اعتراضاً فاسداً إلا جئناك بالكلام الحق الذى يدفع باطلهم ويدحض شبهتهم وينقض اعتراضهم ويكون أحسن بياناً وأكمل تفصيلاً).(2)

---

(1)(2) منهج علماء الحديث والسنة د. مصطفى حلمي: ص١٤٩-١٥٠ نقلاً عن تفسير الإمام الجزائرى السلفى عبد الحميد بن باديس رحمه الله ص٤٢٩ص٤٢١ .

ومن أمثلة ذلك: ضرب الأمثلة لبيان الفارق بين المؤمن الموحد والمشرك الكافر فى صورة حسية يدركها العقل.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾[الروم: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر: ٢٩].

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[النحل: ٧١].

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

[النحل: ٧٥-٧٦].

القياس فى القرآن الكريم:

ومن أساليب القرآن فى الاستدلال العقلى استعمال الطرق القياسية فى الاحتجاج على المخالفين.

ومن أمثلة ذلك: التسوية بين المتماثلين والتفرقة بين المختلفين:-

قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾

[القلم: ٣٦].

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[الجاثية: ٢١].

وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾[ص: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ﴾[الأنعام: ٥٠].

الجدل والمجادلة فى القرآن الكريم

الجدل لغة: شدة الخصومة والقدرة عليها، ومقابلة الحجة بالحجة وجادله: أى خاصمه.

والمجادلة: المناظرة والمخاصمة.

يقال: جادلتُ الرجل فجدلته جدلاً أى غلبته ورجل جدل إذا كان أقوى فى الخصام.

وفى الحديث النبوي: «ما أوتى الجدلَ قومٌ إلا ضلوا».

والمراد بالجدل فى الحديث: الجدل على الباطل وطلب المغالبة به لا إظهار الحق، فإن ذَلك محمود، لقوله تعالى: ﴿**وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾.[1]

وبالنظر إلى ورود لفظ (الجدل) ومشتقاته فى القرآن الكريم فى مواضع عديدة يتبين أن الجدل منه ما هو مذموم ومنه ما هو جائز شرعاً وممدوح.

أما الجدل المشروع فما كان فى الدعوة إلى الله عز وجل والدفاع عن الحق. قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿**وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾[النحل: ١٢٥]. وهذا الجدل المشروع شروطه: -

١- أنه للدفاع عن الحق الذى جاء به الشرع وللدعوة إليه.

٢- أنه موافق للكتاب والسنة ومستمد من أدلتهما.

قال تعالى: ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ**﴾ ببيان الحق لمن يحتاج إلى معرفته بأدلته من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ﴿**وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**﴾ لمن يعص الله على علم فيذكر بالله وباليوم الآخر ﴿**وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ فى حق أولئك المكابرين المعاندين أهل الكفر والشرك.

وفى المقابل فالجدل المذموم ما خالف ذلك، فهو جدل مخالف للحق، مخالف لأدلة الكتاب والسنة، لا يراد به وجه الله، ولا يستمد أدلته من الكتاب والسنة، يريد به صاحبه معارضة الحق الذى جاء به الشرع، من أجل الباطل الذى هو عليه.

---

(١) يراجع فى ذلك لسان العرب لابن منظور جـ١ / ص٥٧١ طبعة دار المعارف.

فأما ذم الجدل في خلاف الحق الذي دل عليه الشرع:-

فقد قال تعالى: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ [الكهف: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج: ٨] و [لقمان: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج: ٣].

وقال تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [غافر: ٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ [غافر: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ [غافر: ٦٩].

قال تعالى: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الأنفال: ٦].

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥].

وأما ذم الجدل الذي لا يراد به وجه الله.

فقد قال تعالى: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٧].

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج: ٣].

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾[غافر: ٥٦].

ويدخل فى جملة الدلالة على مشروعية المجادلة بالحق ما ورد عن مجادلات رسل الله السابقين ومناظراتهم مع أقوامهم، وكذلك ما ورد فى مجادلة النبي ﷺ للكفار والمشركين.

وقد ظن بعض المتكلمين أن ورود الأمر بالمجادلة دليل على مشروعية تعلم وممارسة علم الكلام، وهذا باطل، يعلم بطلانه من سنن الأنبياء والسابقين، فما عرفوا علم الكلام، ولا مارسوه، ولا يعلم عن نبى أنه كان فيلسوفاً أو متكلماً. ونبينا ﷺ فى محاوراته ومراسلاته مع الكفار والمشركين لم يستعمل مصطلحات المتكلمين ولا طرقهم. فعلم من هديهم صلوات الله وسلامه عليهم أن الجدل المراد شرعاً بخلاف جدل المتكلمين وبعيداً عن مصطلحاتهم. ومن الآيات فى جدل أنبياء الله ورسله:-

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾[هود: ٣٢].

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾[هود: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾[الأعراف: ٧١].

وأما الجدل فى عهده ﷺ فوردت فيه آيات:

قال تعالى: ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[النساء: ١٠٩].

قال تعالى: ﴿وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[الحج: ٦٨].

قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾[المجادلة: ١].

وقال تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾

[الرعد: ١٣].

حكم الجدال والمراء ولو فى الحق

أنزل الله تعالى كتابه وجعله حجة على عباده، فيه كفاية لمن يبحث عن الحق. فمن بحث عن الحق فيه وجده.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾[الكهف: ٥٤].

فمن علم الحق بدليله من الكتاب أو السنة فليس له أن يزيد فى الكلام، ويحاور فى الخطاب، فالجدال هنا باب شر، والمراء فى الدين بعد تبين الحق مذموم.

وفى الحديث أن النبي ﷺ قال: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل». وقرأ ﷺ الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[الزخرف: ٥٨] رواه أحمد والترمذى وابن ماجه وسنده صحيح.

فالجدل بقصد إفحام الغير وتعجيزه، أو تنقيصه بالقدح فى كلامه ونسبته إلى القصور والجهل، جدال محظور، لا نجاة من إثمها إلا بالسكوت إذ الباعث عليها الترفع بإظهار العلم والفضل والتهجم على الغير مع ما فى المماراة من تهييج الغضب ودفع المخالف إلى الانتصار لكلامه بما يمكنه من حق أو باطل.(١)

قال بلال بن سعيد: إذا رأيت الرجل لجوجاً ممارياً معجباً برأيه فقد تمت خسارته. وقال ابن أبى ليلي: لا أمارى صاحبي، فإما أن أكذبه وإما أن أغضبه.

والمراء: هو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه، إما فى اللفظ، وإما في المعنى، وإما فى قصد المتكلم، وترك المراء بترك الإنكار والاعتراض. فإن كان الكلام حقاً فصدق به، وإن كان غير ذلك فبين بالشرع دليل بطلانه وكفى.

والخصومة لجاج فى الكلام ليستوفى به مال أو حق مغصوب ولا تكون الخصومة مذمومة إلا إن كانت بالباطل أو بغير علم، كالذى يدافع قبل أن يعلم الحق فى أى جانب، أو يمزج بخصومته كلمات مؤذية لا حاجة لها فى نصرة الحجة وإظهار الحق، أو يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره. وهذا هو مقصود اللدد والخصومة واللجاج وهو مذموم جداً.(٢)

---

(١) يراجع فى ذلك (تهذيب موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين) للقاسمى مراجعة وتحقيق طائفة من الجامعيين: ص٢٣-٢٤ .

(٢) يراجع المصدر السابق: ص٢٣-٢٤ .

فأما المظلوم الذى ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد أو إسراف، وزيادة لجاج، ومن غير قصد عناد وإيذاء، ففعله ليس بحرام. ولكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلا، فإن ضبط اللسان فى الخصومة على قدر الاعتدال متعذر.(١)

وفى الحديث: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم». رواه البخاري.

والخصومة توغر الصدر وتهيج الغضب، فينسى المتنازع سبب الخصومة ويبقى الحقد فيه، حتى يفرح كل واحد بمساءة صاحبه، ويحزن بمسرته، ويطلق لسانه فيه، فمن دخل فى الخصومة تعرض لهذه المحظورات.

وأقل ما فى الخصومة تشويش الخاطر. فينبغى ألا يفتح بابه إلا لضرورة، مع حفظ اللسان والقلب عن تبعات الخصومة، وذلك صعب جداً.(١)

إن الأولى والأصلح والمطلوب شرعاً استخدام طريقة القرآن فى الحجاج والجدل والتعبير عن حقائق الإيمان. ولا يخفى أنها أفضل الطرق، وهى من أساليب الرسل فى مناقشة الأمم الذين بعثوا إليهم.(٢) والأمثلة على ذلك كثيرة من نوح عليه السلام إلى محمد ﷺ:

فعن مجادلة نوح عليه السلام لقومه. قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾[هود: ٣٢].

وعن مجادلة إبراهيم عليه السلام لقومه قال تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾[الأنعام: ٨٠-٨٣].

وفصل القرآن مناظرة إبراهيم عليه السلام مع النمرود.

إن الدارس للقرآن الكريم المتدبر لآياته يلتقى مع مناظرات متعددة للكفار والاحتجاج عليهم بالأدلة العقلية الكافية الشافية.(٣)

وقد أمر الله تعالى بالجدل بالتى هى أحسن. قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾[العنكبوت: ٤٦]. وقال سبحانه: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[النحل: ١٢٥].

---

(١) يراجع المصدر السابق: ص٢٣-٢٤.

(٢) انظر النبوات لابن تيمية: ص١٦١.

(٣) انظر منهج علماء الحديث والسنة: ص١٧٠-١٧١.

أمثلة للأدلة العقلية فى الحديث النبوي

روى الإمام أحمد رحمه الله تعالى فى مسنده عن بشير بن جحاش قال: إن رسول الله ﷺ بصق يوماً فى كفه فوضع عليها إصبعه. قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالي: بني آدم أنيَّ تعجزني وقد خلقتك مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتصدَّق وأنيَّ أوان الصدقة». (١)

وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن العاص بن وائل أخذ عظماً من البطحاء ففتته بيده ثم قال لرسول الله ﷺ: أيحيى الله هذا بعد ما أرى؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم يميتك الله ثم يحييك ثم يدخلك جهنم. قال: ونزلت الآيات من آخر يس. (٢)

قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا سيخلو به ربه كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر».

فسئل: كيف يا رسول الله ونحن كثير.

فقال: سأنبئك بمثل ذلك فى آلاء الله هذا القمر من آيات الله كلكم يراه مخلياً به. فالله أعظم.

والتشبيه هنا تشبيه الرؤية بالرؤية لا للمرئي بالمرئي فإن الله تعالى ليس كمثله شئ.

* **حوار النبي ﷺ مع نصارى وفد نجران:-**

وردت فى كتب السيرة والتفسير قصة المباهلة المشهورة بين النبي ﷺ ووفد نصارى نجران. وقد أورد الطبرى فى تفسيره بعضاً من هذا الحوار نذكره:-

قال لهم النبي ﷺ ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه؟ قالوا: نعم.

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه وله شاهد فى الصحيحين عن أبى هريرة وهو حديث حسن إن شاء الله.

(٢) قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

قال: ألستم تعلمون أن ربنا حى لا يموت وأن عيسى يأتى عليه الفناء؟ قالوا: بلى.

قال: ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه؟ قالوا: بلى.

قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً؟ قالوا: لا قال: ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء؟ قالوا: بلى.

قال: فهل يعلم عيسى من ذلك شيئاً إلا ما علم؟

قالوا: لا.

قال: فإن ربنا صور عيسي في الرحم كيف شاء.

قال: ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث؟ قالوا: بلى.

قال: ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها؟ ثم غذى كما يتغذى الصبى ثم كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث؟ قالوا: بلى.

قال: فكيف يكون هذا كما زعمتم؟.

قال: فعرفوا ثم أبوا إلا جحوداً. فأنزل الله تعالى: ﴿**الٓمٓ ① اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾[آل عمران]. (١)

حجية أحاديث الآحاد فى العقائد والأحكام

ومن أساليب المتكلمين التى يبررون لأنفسهم بها نبذ الكتاب والسنة زعمهم أن حديث الآحاد لا يحتج به فى العقائد، فيسقطون السنة النبوية من حساباتهم فى إثبات أمور العقيدة والتوحيد، إذ إن أكثر السنة النبوية آحاد، والمتواتر منها بالنسبة إلى الآحاد قليل.

وحجتهم أن الأحاديث المتواترة تفيد القطع واليقين فيحتج بها، وأحاديث الآحاد -على كثرتها- ظنية تفيد العلم الظنى لا اليقيني. فيعمل بها فى الأحكام لا فى العقائد، إذ إن الشرع نهى عن اتباع الظن والأخذ به.

---

(١) منهج علماء الحديث والسنة فى أصول الدين: د. مصطفى حلمى ط. دار الدعوة الإسكندرية: ص٣٦-٣٧. نقلاً عن الواحدي فى أسباب النزول ص٦١-٦٢ط. الحلبى ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م.

وحديث الآحاد هو كل حديث لم يبلغ حد التواتر، حتى وإن كان مستفيضاً، حتى وإن كان صحيحاً مما اتفق عليه البخارى ومسلم وتلقته الأمة عنهما بالقبول.

والمحصلة: نبذ أكثر السنة النبوية وقصر الاحتجاج فى أغلب مسائل العقيدة والتوحيد على القرآن وحده مع تقديم أقوال المتكلمين وآرائهم على الآيات عند تعارضهما فى الأذهان مستخدمين التأويل لصرف المعانى عن ظاهرها لتوافق مذاهب المتكلمين.

والصواب: أن أحاديث الآحاد الصحيحة حجة بنفسها فى العقائد والأحكام لا يفرق بينها وبين الأحاديث المتواترة وعلى هذا جرى علماء الأمة جيلاً بعد جيل(١) والتفريق بين الأحاديث المتواترة والآحاد فى الاحتجاج فى العقائد باطل من وجوه منها:-

١- أن هذا القول قول مبتدع محدث، لا أصل له فى الشريعة، لم يعرفه السلف الصالح رضوان الله عليهم، ولم ينقل عن أحد منهم، ولا خطر لهم على بال،(*) وفى الحديث: «من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» متفق عليه، وقوله ﷺ «إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار». رواه أحمد وأصحاب السنن والبيهقي. والجملة الأخيرة منه عند النسائى والبيهقى بإسناد صحيح.

وإنما قال هذه المقالة جماعة من علماء الكلام، وأخذ بها من تأثر بهم من علماء الأصول من المتأخرين، وتلقاها عنهم بعض المعاصرين بالتسليم دون مناقشة أو برهان.

وما هكذا شأن العقيدة خاصة ممن يشترطون لثبوت مسائلها بثبوتها بأدلة قطعية عندهم.

---

(١) راجع فى ذلك للأهمية:
-الحديث حجة بنفسه فى العقائد والأحكام، ووجوب الأخذ بأحاديث الآحاد فى العقيدة والرد على شبه المخالفين، كلاهما للشيخ الألبانى رحمه الله. الفتاوى لابن تيمية: جـ١٨ / ١٦ ، جـ٢٠ / ٢٥٧ .
- الصواعق المرسلة على الجهمية المعطلة: لابن القيم جـ٢ / ٣٥٧-٣٧٩، جـ٢ / ٤٢٠-٤٣٤ .
- إحكام الأحكام لابن حزم: جـ١ / ١١٩-١٣٣ .
- الرسالة للشافعي: ص٤٠١-٤٣١ .
(*) رد خبر الآحاد فى العقائد مذهب المعتزلة وتابعهم عليه الأشاعرة والماتريدية.

وأعجب من ذلك وأغرب ادعاء اتفاق الأصوليين على الأخذ بذلك، وهي دعوى باطلة، وجرأة زائدة، فكيف يكون الاتفاق على ذلك وقد نص على أن خبر الآحاد يفيد العلم -كما يفيد العمل- الإمام مالك والشافعي وأصحاب أبي حنيفة وداود بن علي وابن حزم [(١)] والحسين بن علي الكرابيسي والحارث بن أسد المحاسبي وغيرهم. [(٢)]

قال ابن خويز منداد في كتاب (أصول الفقه) وقد ذكر خبر الواحد الذي لم يروه إلا الواحد والاثنان: ويقع بهذا الضرب أيضاً العلم ضروري، نص على ذلك مالك، وقال أحمد في حديث الرؤية: (نعلم أنها حق، ونقطع على العلم بها) وقال القاضي أبو يعلى في أول المخبر: (خبر الواحد يوجب العلم إذا صح سنده ولم تختلف الرواية فيه، وتلقته الأمة بالقبول، وأصحابنا يطلقون القول فيه، وأنه يوجب العلم، وإن لم تتلقه الأمة بالقبول).

قال: (والمذهب على ما حكيت لا غير).

وقال بذلك أبو اسحاق الشيرازي في كتبه في الأصول كالتبصرة وشرح اللمع وغيرهما، ولفظه في الشرح: (وخبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول يوجب العلم والعمل، سواء عمل به الكل أو البعض) ولم يحك فيه نزاعاً بين أصحاب الشافعي وحكى هذا القول القاضي عبد الوهاب من المالكية عن جماعة من الفقهاء. وذكره أبو بكر الرازي في كتابه أصول الفقه. [(٣)]

٢- أن الشرع دل على أخذ العلم من الأفراد والجماعات الناقلين له قال تعالي: ﴿**وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**﴾[التوبة: ١٢٢]. والطائفة تقع على الواحد فما فوقه، والإنذار إعلام بما يفيد العلم. والتبليغ لأمور الشرع من عقيدة وغيرها بلا فرق.

---

(١) راجع إحكام الأحكام لابن حزم جـ١ / ١١٩-١٣٨ حيث ذكر في الاحتجاج على ذلك أدلة كثيرة قوية.
(٢) وجوب الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة للألباني: ط. دار العلم بنها: ص٢٣ .
(٣) المصدر السابق: ص٢٣-٢٥ .

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾[الحجرات: ٦]. وفى قراءة: ﴿فتثبتوا﴾. ومفهوم الآية قبول خبر الواحد الثقة.

وفى الأحاديث الحث على تبليغ ما أخبر به النبي ﷺ، فلازم ذلك قبول خبره من الواحد طالما أنه من طريق صحيح.[1]

فإن قيل: أحاديث الآحاد تفيد الظن والشرع نهى عن اتباع الظن.[2] فجوابه:-

هذا فى الظن المرجوح الذى لا يفيد علماً. فيكون قائماً على الهوى مخالف للشرع. وليست أحاديث الآحاد من ذلك فى شيء. بل هى من الشرع.

ولازم ذلك رد العمل بأحاديث الآحاد فى الأحكام والمعاملات إذا اعتبرناها من الظن المنهى عن الأخذ به شرعاً. وهذا باطل غاية البطلان.

وعلى هذا نقول:-

أين الدليل الذى يعتد به على ترك العمل بحديث الآحاد فى العقائد والتوحيد. هل ثبت ذلك بآية قرآنية أو حديث نبوى صحيح.

وهل ثبت عن الصحابة رضي الله عنهم العمل بذلك أو التصريح به.

وهل ثبت عن أحد من الصحابة رد ما أخبره به أحدهم من أحاديث نبوية تضمن أمور عقائدية... وهل فعل ذلك أحد من أئمة التابعين ومن بعدهم.

إننا نجزم بلا شك أنه ما من أحد من الصحابة أو التابعين أو أئمة الهدي رد خبر الواحد الذى يتضمن أموراً عقائدية، بل كانوا يتقبلون الخبر بالقبول واليقين طالما ثبتت صحته، كما فى أحاديث الرؤية وتكليم الله وندائه ونزوله فى ثلث الليل الأخير كل ليلة... إلخ.

٣- أن النبي ﷺ قال «بلغوا عني» متفق عليه ومن بلغ عنه فقد أقام الحجة على المبلغ، وحصل له بذلك العلم، وادعاء أن العلم والحجة لا تقوم بإخبار المبلغ، ما كان للأمر بذلك معنىً.

---

(١) والآيات والأحاديث الموجبة للأخذ بما جاء به القرآن الكريم والسنة الشريفة عامة وشاملة للمتواتر والآحاد بلا فرق، وفى العقائد والأحكام بلا فرق. وكفى بها حجة ظاهرة لا سبيل إلى دفعها إلا الهوى ومناصرة المتكلمين. وانظر فى ذلك كتاب (الرسالة) للإمام الشافعي.

(٢) قال تعالى: فى حق المشركين: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾[النجم: ٢٨].

وقد كان رسول الله ﷺ يرسل الواحد من أصحابه يبلغ عنه فتقوم الحجة بذلك على من بلغه.(١)

وقد أرسل ﷺ علياً ومعاذاً وأبا موسي رضي الله عنهم فى أوقات مختلفة إلى اليمن يبلغون عنه ويعلمون الناس الدين. وأهم شيء فى الدين إنما هو العقيدة.

وهذا دليل قاطع على أن العقيدة تثبت بخبر الواحد وتقوم به الحجة على الناس وإلا ما اكتفى ﷺ بإرسال الواحد بمفرده. ولأرسل معه من يتواتر به النقل.

٤- أن القول المذكور يستلزم اختلاف المسلمين فيما يجب عليهم اعتقاده فيكون الحديث حجة فى حق الصحابى باطلاً مردوداً فى حق من بعده فالصحابى الذى سمع من النبي ﷺ حصل له اليقين بما سمع واعتقد ذلك عن يقين.

ومن جاء بعده فلم يقبل قول هذا الصحابى لكونه حديث آحاد لا يرى هذا الاعتقاد ويرده. وما ثبت تواتراً فى زمن التابعين ولم يثبت بعدهم متواتراً اختلف الاعتقاد بين الزمنين.. وهكذا.

ومن لوازم ذلك أن حديث الصحابى كان صدقاً وحجة فى حق الصحابي، ويعد باطلاً ومردوداً فى أزمان بعده.

ومن لوازم ذلك رد كل ما رواه الصحابة مباشرة عن النبي ﷺ فى أمور الاعتقاد إذا لم ينقل عنهم متواتراً ويبقى إثبات ما كان فيها من اعتقادات أخذها الصحابة من النبي ﷺ كأفراد على وصول عقول المتكلمين إلى إدراكها وإثباتها.

٥- أن القول المذكور من لوازمه أن لا يكتفى بإخبار الواحد من علماء الحديث بأن هذا الحديث متواتر إذ إنه خبره عن تواتر الحديث خبر آحاد لا يحتج به. أى أنه لا يحتج إلا بما شهد بتواتره جميع الناس لا واحد أو قلة من أهل الاختصاص. ومثل هذا لا يتيسر لكل أحد أن يثبت شهادة الجميع بتواتر الحديث إما لنقص العلم عنده أو لعدم الاطلاع على كتب أكثر أهل الحديث.

---

(١) وانظر الرسالة للشافعى فى مبعوثيه ﷺ: ص٤١٤-٤١٩.

ويزيد الأمر غرابة أن هؤلاء المتكلمين أبعد الناس عن تعلم الحديث ومطالعة كتب علمائه، وبضاعتهم فيه مزجاة ويفوتهم من أقوال المحدثين الكثير والكثير.(١)

وأعجب من ذلك ذمهم للتقليد فى أمور العقيدة، وهم فى علم الحديث لا يملكون إلا التقليد فيه.

٦- فإن قيل: حديث الآحاد يفيد الظن، ويحتمل الخطأ فيه، عمداً أو سهواً، أو بعدم ضبط فى النقل ونحوه. وما كان هذا صفته لا تؤخذ منه عقائد. فوجب ترك العمل بحديث الآحاد لذلك. والجواب: هذا مردود من وجهين:-

الأول: إجماع السلف على قبول أحاديث الآحاد فى العقائد وإثبات صفات الرب تعالى والأمور الغيبية العلمية بها.

الثاني: هذا الادعاء يوجب أيضاً طرح العمل بأحاديث الآحاد فى الأحكام والفرعيات لنفس العلة وهذا باطل. فإن الذين نقلوا هذا هم الذين نقلوا هذا، فإن جاز عليهم الخطأ والكذب فى نقلها، جاز عليهم ذلك فى نقل غيرها، وحينئذ فلا وثوق بشيء نقل لنا عن نبيناﷺ وهذا انسلاخ من الدين.

قال ابن القيم رحمه الله: ولا يمتنع إثبات الأسماء والصفات بها، كما لا يمتنع إثبات الأحكام الطلبية بها، فما الفرق بين باب الطلب وباب الخبر، بحيث يحتج بها فى أحدهما دون الآخر وهذا التفريق باطل بإجماع الأمة، فإنها لم تزل تحتج بهذه الأحاديث فى الخبريات، كما تحتج بها فى الطلبيات العمليات، ولاسيما الأحكام العملية تتضمن الخبر عن الله بأنه شرع كذا، وأوجبه ورضيه ديناً، فشرعه ودينه راجع إلى أسمائه وصفاته، ولم تزل الصحابة والتابعون وتابعوهم، وأهل الحديث والسنة يحتجون بهذه الأخبار فى مسائل الصفات والقدر والأسماء والأحكام، ولم ينقل عن أحد منهم البتة أنه جوز الاحتجاج بها فى مسائل الأحكام دون الأخبار عن الله وأسمائه وصفاته، فأين سلف المفرقين بين البابين؟.

---

(١) ويدل على شدة جهلهم بالحديث المتواتر إنكار تواتر بعض الأحاديث المعلوم تواترها عند علماء الحديث والمشتغلين به كنزول الله تعالى إلى السماء الدنيا فى الثلث الأخير من كل ليلة وكرؤية المؤمنين لربهم فى الجنة يوم القيامة ونزول المسيح عليه السلام فى آخر الزمان وظهور الدجال. . . إلخ.

نعم سلفهم بعض متأخرى المتكلمين الذين لا عناية لهم بما جاء عن الله ورسوله وأصحابه، بل يصدون القلوب عن الاهتداء فى هذا الباب بالكتاب والسنة وأقوال الصحابة، ويحيلون على آراء المتكلمين وقواعد المتكلفين، فهم الذين يعرف عنهم التفريق بين الأمرين، وادعوا الإجماع على هذا التفريق، ولا يحفظ ما جعلوه إجماعاً عن إمام من أئمة المسلمين، ولا عن أحد من الصحابة والتابعين، وهذا عادة أهل الكلام، يحكون الإجماع على ما لم يقله أحد من أئمة المسلمين، بل أئمة المسلمين على خلافه. ا. هـ.[1]

٧- أن مآل الأخذ بهذا القول هو الاقتصار فى العقيدة على ما جاء به القرآن وترك العمل فى العقائد بالأحاديث النبوية، وعدم الاعتداد بما جاء فيها من الأمور الغيبية.

فإن أكثر الأحاديث النبوية آحاد، والمتواتر منها قليل بالنسبة إلى الآحاد، والمتواتر اللفظى منها أقل، والمتواتر المعنوى إنما تختلف ألفاظه وتتفاوت. والناس يختلفون فى إثبات هذا المتواتر ويتفاوتون.

ويشهد لذلك أن هؤلاء المتكلمين لا تجدهم يثبتون أمراً عقائدياً مستدلين بثبوته متواتراً عند علماء الحديث، فهم أبعد الناس عن الأخذ بذلك، لأنهم أجهل الناس بالأحاديث وطرقها، وأزهد الناس فى الاشتغال بها وطلبها. ولذلك تراهم يحكمون على أحاديث أنها من الآحاد وهى عند أهل العلم بالحديث من المتواتر.

وأغرب من ذلك وأعجب ادعاء بعضهم أنه لا حاجة إلى السنة فى أمور العقيدة، وأنه لم يثبت فى أحاديث الآحاد ما تنفرد السنة به فى أمور العقيدة، والأعجب تصديق البعض ذلك والأخذ به. يقول أحدهم: وليس فى العقائد ما انفرد الحديث بإثباته.[2] ويقول فى موضع آخر: وقد قرر مؤلف المقاصد: أن جميع أحاديث أشراط الساعة آحادية.[3] فهذا بوضوح ما انتهى به الأمر بالنسبة لهؤلاء القائلين بعدم الأخذ بأحاديث الآحاد فى العقائد أن نبذوا السنة النبوية كلها من الناحية العملية.

---

(١) الصواعق المرسلة لابن القيم: جـ٢ / ٤١٢-٤١٧ .

(٢) وجوب الأخذ بحديث الآحاد فى العقيدة للألباني: ص٣٥ .نقلاً عن الإسلام عقيدة وشريعة للشيخ محمود شلتوت ص٤٣١ .

(٣) المصدر السابق: ص٣٦ نقلاً عن الشيخ شلتوت ص٦١ .

٨- أن كثيراً من العقائد الإسلامية التى تلقتها الأمة عن السلف، وتلقت أحاديثها بالقبول، هى من الآحاد، وترك العمل بأحاديث الآحاد ترك لهذه العقائد الإسلامية الثابتة، وتخطئة للسلف فى اعتقادها واتخاذها ديناً، وأن يكون اسلامنا غير إسلامهم، وعقائدنا غير عقائدهم.(١)

ومن أمثلة هذه العقائد السلفية:-

١- أفضلية نبينا محمدﷺ على جميع الأنبياء والرسل.

٢- إثبات الشفاعة للنبيﷺ العظمى فى المحشر، وشفاعته لأهل الكبائر من أمته.

٣- معجزاتهﷺ المادية ما عدا القرآن الكريم.

٤- ما ورد فى الأحاديث عن بدء الخلق وصفة الملائكة والجن، وصفة الجنة والنار، وأنهما مخلوقتان الآن.

٥- القطع بأن العشرة المبشرين بالجنة من أهل الجنة.

٦- الإيمان بالميزان ذى الكفتين يوم القيامة.

٧- الإيمان بحوضهﷺ الكوثر. وأن من شرب منه لم يظمأ أبداً.

٨- الإيمان بالقلم وأنه كتب كل شيء.

٩- الإيمان بأن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء.

١٠- الإيمان بأشراط الساعة: كخروج المهدي، وظهور الدجال، ونزول عيسى عليه السلام... إلخ.

١١- الإيمان بعروجهﷺ إلى السموات العلى ورؤيته لآيات الله تعالى الكبرى فيها.

---

(١) راجع فى ذلك (وجوب الأخذ بأحاديث الآحاد فى العقيدة) للشيخ الألبانى رحمه الله: ص٣٦-٣٩ .
- وراجع لمزيد من التوسع فى هذه القضية:-
- أخبار الآحاد فى الحديث النبوى للشيخ عبد الله بن جبرين.
- أصل الاعتقاد: دكتور عمر الأشقر.
- الأدلة والشواهد على وجوب الأخذ بخبر الواحد فى الأحكام والعقائد: لسليم الهلالي.

وكما كان السلف الصالح لا يقدمون الاجتهادات العقلية على الأدلة الشرعية فى مسائل العقيدة والتوحيد فقد كانوا كذلك لا يقدمون الاجتهادات الفقهية على الأدلة الشرعية فى مسائل الفقه وقضاياه، لذا فقد كان منهجهم فى ذلك اتباع الأحكام الفقهية المبنية على الكتاب والسنة وترك ما عداها من آراء الفقهاء المخالفة للكتاب والسنة. وهم فى ذلك كله يرون العذر للمجتهدين المخالفين، لا يجعلون رد أقوالهم قدحاً فى إمامتهم وعلمهم وصلاحهم،(١) ولكن لا يرون عذراً لمن قلد الأئمة فى آرائهم التى اتضح بجلاء مخالفتها للكتاب والسنة، ولم يكن من منهج السلف التقيد بإمام معين في كل فتاويه. والاجتهاد عندهم واجب علي من قدر عليه واستكمل أدواته. {فالعامى له أن يقلد من غلب على ظنه أنه من أهل العلم والدين أما العالم فعليه أن يأخذ بالأرجح} لذا ينبغى {أن يدرس ما دونه الأئمة الأربعة وغيرهم دون تعصب لرأى أحد منهم}.(٢)

والأئمة أنفسهم حثوا تلاميذهم وأتباعهم على تقديم الكتاب والسنة على اجتهاداتهم وآرائهم إذا تبينت المخالفة.

فعن الشافعى قال: «إذا صح الحديث فهو مذهبى وإذا رأيتم كلامي يخالف الحديث فاعملوا بالحديث واضربوا بكلامى الحائط».

وعن الإمام أحمد: «ليس لأحد مع الله ورسوله كلام».

وعن الإمام مالك: «ما من أحد إلا ومأخوذ من كلامه ومردود عليه إلا رسول الله ﷺ».

وعن أبى حنيفة: «لا ينبغى لمن لم يعرف دليلى أن يفتى بكلامي».

---

(١) انظر رفع الملام عن الأئمة الأعلام لابن تيمية.

(٢) المرجع السابق.

فائدة:

تنقسم الأحكام الشرعية إلى:-

* أحكام قطعية يقينية، وهى بدورها تنقسم إلى:

أ- أحكام قطعية لا يجهلها أحد من المسلمين لاستفاضة العلم بها بين العامة والخاصة، كوجوب صوم رمضان ووجوب الصلوات الخمس وحرمة الخمر وحرمة الزنا ووجوب الغسل من الجنابة، وهذه الأحكام تسمى المعلوم من الدين بالضرورة، فمن خالف هذا المعلوم من الدين بالضرورة يكفر كفر عين.

ب- أحكام قطعية لا يعلمها إلا الخاصة من العلماء، ويجهلها الكثير من العامة، كحرمة زواج المرأة وخالتها، أو المرأة وعمتها، وأن للجدة السدس فى الميراث، وأن القاتل عمداً لا يرث، وهذه الأحكام مع كونها قطعية فمن يخالفها لا يكفر حتى تقام عليه الحجة التى يكفر مخالفها.

نقل الإمام النووى فى شرحه على صحيح مسلم عن الإمام الخطابى أنه قال بعد ذكره أن مانعى الزكاة فى عهد أبى بكرﷺ هم أهل بغي: فإن قيل كيف تأولت أمر الطائفة التى منعت الزكاة على الوجه الذى ذكرت وجعلتهم أهل بغي؟ وهل إذا أنكرت طائفة من المسلمين فى زماننا فرض الزكاة وامتنعوا عن أدائها يكون حكمهم حكم أهل البغي؟ قلنا: لا، فإن من أنكر فرض الزكاة فى هذه الأزمان كان كافراً بإجماع المسلمين، والفرق بين هؤلاء وأولئك أنهم إنما عذروا لأسباب وأمور لا يحدث مثلها فى هذا الزمان، منها قرب العهد بزمان الشريعة الذى كان يقع فيه تبديل الأحكام بالنسخ، ومنها أن القوم كانوا جهالاً بأمور الدين، وكان عهدهم بالإسلام قريباً، فدخلتهم الشبهة فعذروا فأما اليوم وقد شاع دين الإسلام واستفاض فى المسلمين علم وجوب الزكاة حتى عرفها الخاص والعام واشترك فيه العالم والجاهل، فلا يعذر أحد بتأويل يتأوله فى إنكارها. وكذلك الأمر فى كل من أنكر شيئاً مما أجمعت الأمة عليه من أمور الدين إذا كان علمه منتشراً كالصلوات الخمس، وصوم شهر رمضان، والاغتسال من الجنابة، وتحريم الزنا والخمر، ونكاح ذوات المحارم، ونحوها من الأحكام إلا أن يكون رجلاً

حديث عهد بالإسلام ولا يعرف حدوده فإنه إذا أنكر شيئاً منها جهلاً به لم يكفر وكان سبيله سبيل أولئك القوم فى بقاء اسم الدين عليه.

أما ما كان الإجماع فيه معلوماً من طريق علم الخاصة كتحريم زواج المرأة على عمتها وخالتها وأن القاتل عمداً لا يرث، وأن للجدة السدس، وما أشبه ذلك من الأحكام فإن من أنكرها لا يكفر، بل يعذر فيها لعدم استفاضة علمها فى العامة. ا.هـ. كلام الخطابى رحمه الله.

**** أحكام ظنية غير قطعية:**

والأحكام الظنية التى تلقتها الأمة بالقبول من يخالفها يعد مبتدعاً يعامل معاملة المبتدعين فى الدين.

ومن خالف الحديث الصحيح فهو مخطئ ينكر عليه، ولا يعتد بخلافه لكونه من الخلاف غير السائغ وليس له الدليل المعتبر بل هو مخالف لما صح من الدليل.

✪✪✪✪✪

٣- رفض التأويل الكلامي

رفض التأويل الكلامى من السمات البارزة للمنهج السلفى فى الاستدلال، وهذا يعنى الأخذ بظاهر النصوص فى مسائل الاعتقاد.

وظاهر النصوص ما يتبادر منها من المعانى بحسب ما تضاف إليه وما يحتف بها من القرائن.

والواجب فى النصوص إجراؤها على ظاهرها بدون تحريف.

فإذا كان الله تعالى أنزله باللسان العربى من أجل عقله وفهمه، وأمرنا باتباعه، وجب علينا إجراؤه على ظاهره بمقتضى ذلك اللسان العربي، إلا أن تمنع منه حقيقة شرعية.

ولا فرق فى هذا بين نصوص الصفات وغيرها، بل قد يكون وجوب التزام الظاهر فى نصوص الصفات أولى وأظهر، لأن مدلولها توقيفي محض لا مجال للعقول فى تفاصيله.[1]

قال تعالى: ﴿**وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ**﴾[الشعراء: ١٩٢-١٩٥]. وقال تعالى: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾[الزخرف: ٣]. وقال تعالى: ﴿**اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ**﴾[الأعراف: ٣].

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن نصوص الصفات تجرى على ظاهرها اللائق بالله عز وجل من غير تحريف، وأن ظاهرها لا يقتضى تمثيل الخالق بالمخلوق. فاتفقوا على أن لله تعالى حياة وعلماً وقدرة وسمعاً وبصراً حقيقة، وأنه مستو على عرشه حقيقة، وأنه يحب ويرضى، ويكره ويغضب حقيقة، وأن له وجهاً ويدين حقيقة لقوله تعالى: ﴿**وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ**﴾[الفرقان: ٥٨] وقوله: ﴿**وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾[البقرة: ٢٩] ﴿**وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[المائدة: ١٢٠]، ﴿**وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾[الشورى: ١١] وقوله: ﴿**الرَّحْمَٰنُ**

---

(١) انظر (تقريب التدمرية) للشيخ محمد بن صالح العثيمين. ط. مكتبة السنة القاهرة ط. الأولى ١٤١٣هـ-١٩٩٢م: ص٥٥ بتصرف يسير.

عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾[طه: ٥] وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[المائدة: ٥٤]، ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[المائدة: ١١٩]، ﴿وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾[التوبة: ٤٦] ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾[النساء: ٩٣] وقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[الرحمن: ٢٧]، ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[المائدة: ٦٤] فأجروا هذه النصوص وغيرها من نصوص الصفات على ظاهرها، وقالوا: إنه مراد على الوجه اللائق بالله تعالى بلا تحريف ولا تمثيل.

فساد ترك الأخذ بظاهر النصوص فى العقائد:

والذين يجعلون ظاهر النصوص معنىً فاسداً فينكرونه يكون خطؤهم على وجهين: -

الأول: أن يفسروا النص بمعنى فاسد لا يدل عليه اللفظ فينكرونه لذلك، ويقولون: إن ظاهره غير مراد.

مثال ذلك: قوله تعالى فى الحديث القدسي: «يا ابن آدم مرضت فلم تعدني، يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني، يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني»(١).

قالوا: فظاهر الحديث أن الله يمرض ويجوع ويعطش وهذا معنى فاسد فيكون غير مراد.

فنقول: لو أعطيتم النص حقه لتبين لكم أن هذا المعنى الفاسد ليس ظاهر اللفظ، لأن سياق الحديث يمنع ذلك فقد جاء مفسراً بقول الله تعالى فى الحديث نفسه: «أما علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده، أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه، واستسقاك عبدى فلان فلم تسقه». وهذا صريح فى أن الله سبحانه لم يمرض ولم يجع ولم يعطش وإنما حصل المرض والجوع والعطش من عبد من عباده.(٢)

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه(٢٥٦٩/ ٤٣) كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل عيادة المريض من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

(٢) تقريب التدمرية للشيخ العثيمين: ص٥٧-٥٨ .

الوجه الثاني: أن يفسروا اللفظ بمعنى صحيح موافق لظاهره لكن يردونه لاعتقادهم أنه باطل وليس بباطل.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾[طه: ٥].

قالوا: فظاهر الآية أن الله علا على العرش، والعرش محدود، فيلزم أن يكون الله سبحانه محدوداً، وهذا معنى فاسد فيكون غير مراد.(١)

فنقول: إن علو الله تعالى على عرشه -وإن كان العرش محدوداً- لا يستلزم معنى فاسداً فإن الله تعالى قد علا على عرشه علواً يليق بجلاله وعظمته ولا يماثل علو المخلوق علي المخلوق، ولا يلزم منه أن يكون الله محدوداً وهو علو يختص بالعرش والعرش أعلى المخلوقات، فيكون الله عالياً على كل شيء، وهذا من كماله وكمال صفاته فكيف يكون معنى فاسداً غير مراد؟!.(٢)

وقد يجتمع الخطأ من الوجهين فى مثال واحد، مثل قوله ﷺ: «إن قلوب بنى آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء».

فقالوا على الوجه الأول: ظاهر الحديث أن قلوب بنى آدم بين أصابع الرحمن فيلزم منه المباشرة والمماسة وأن تكون أصابع الله سبحانه داخل أجوافنا، وهذا معنى فاسد فيكون غير مراد.

وقالوا: على الوجه الثاني: ظاهر الحديث أن لله أصابع حقيقية والأصابع جوارح وهذا معنى فاسد فيكون غير مراد.

فنقول على الوجه الأول:

إن كون قلوب بنى آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن حقيقة لا يلزم منه المباشرة والمماسة، ولا أن تكون أصابع الله عز وجل داخل أجوافنا، ألا ترى إلى

---

(١) أو يتوهمون أنه استواء الله تعالى على العرش كاستواء الإنسان على ظهر الدابة أو السفينة فيكون الله تعالى محتاجاً إلي العرش فى استوائه كاحتياج الإنسان إلى الدابة أو السفينة فينكرون ظاهر اللفظ لذلك.
وهذا -كما بين الشيخ- ظن فاسد فاستواء الله ليس كاستواء المخلوقين بل هو استواء خاص أضافه إلى نفسه عز وجل يليق به كسائر صفاته وأفعاله. فإن الله تعالى لا يماثل المخلوقين.

(٢) تقريب التدمرية: ص٦٠-٦١ .

قوله تعالى: ﴿والسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[البقرة: ١٦٤] فإن السحاب لا يباشر السماء ولا الأرض ولا يماسهما.

ويقال: سترة المصلى بين يديه وليست مباشرة له ولا مماسة له.

فإذا كانت البينية لا تستلزم المباشرة والمماسة فيما بين المخلوقات فكيف بالبينية فيما بين المخلوق والخالق الذى وسع كرسيه السموات والأرض وهو بكل شيء محيط، وقد دل السمع والعقل على أن الله تعالى بائن من خلقه، ولا يحل فى شيء من خلقه ولا يحل فيه شيء من خلقه وأجمع السلف على ذلك.

ونقول على الوجه الثاني:

إن ثبوت الأصابع الحقيقية لله تعالى لا يستلزم معنى فاسداً وحينئذ يكون مراداً قطعاً، فإن لله تعالى أصابع حقيقية تليق بالله عز وجل ولا تماثل أصابع المخلوقين، وفى صحيح البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع والأرضين على أصبع، والشجر على أصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع، فيقول: أنا الملك. فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر. ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾[الزمر: ٦٧] هذا لفظ البخارى فى تفسير سورة الزمر.[(١)]

فأى معنى فاسد يلزم من ظاهر النص حتى يقال أنه غير مراد؟؟.[(٢)]

فإن قيل إجراء النصوص على ظاهرها فى باب الصفات فيه تشبيه للخالق بالمخلوق فلزم ترك الظاهر وإثبات معانى يقبلها العقل وتتجنب التشبيه.

والجواب: هذا باطل من وجوه. فتوهم المشابهة والمماثلة ثم نفى ذلك يتضمن عدة محاذير منها:-

---

(١) متفق عليه. رواه البخارى فى صحيحه (رقم٤٨١١،٧٤١٤،٧٤١٥،٧٤٥١،٧٥١٣) كتاب التفسير وكتاب التوحيد. وأخرجه مسلم(٢٧٨٦/ ١٩-٢٢) كتاب صفة القيامة والجنة والنار. والنسائى فى تفسيره رقم٤٧٠، ٤٧١، ٤٧٢.

(٢) تقريب التدمرية: ص٦٢-٦٣ .

الأول: أنه فهم من النصوص صفات تماثل صفات المخلوقين، وظن أن ذلك هو مدلول النص، وهذا فهم خاطئ، فإن الصفة التى دلت عليها النصوص تناسب موصوفها وتليق به.

وتمثيل الخالق بالمخلوق كفر وضلال لأنه تكذيب لقوله تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾[الشورى: ١١] ولا يمكن أن يكون ظاهر النصوص كفر وضلال. لقوله تعالى: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ**﴾[النساء: ٢٦] وقوله: ﴿**يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا**﴾[النساء: ١٧٦].

الثاني: أنه جنى على النصوص حيث نفى ما تدل عليه من المعانى الإلهية، ثم أثبت لها معانى من عنده، لا يدل عليها ظاهر اللفظ، فكان جانيا على النصوص من وجهين.

الثالث: أنه نفى ما دلت عليه النصوص من الصفات بغير علم فيكون بذلك قائلاً على الله ما لا يعلم، وهذا محرم بالنص والإجماع، قال الله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾[الأعراف: ٣٣].

الرابع: أنه إذا نفى عن الله عز وجل ما تقتضيه النصوص من صفات الكمال لزم أن يكون الله سبحانه متصفاً بنقيضها من صفات النقص، وذلك لأنه ما من موجود إلا وهو متصف بصفة، ولا يمكن وجود ذات مجردة عن الصفات فإذا انتفت صفة الكمال عنها لزم اتصافها بصفات النقص.

وحينئذ يكون من نفى عن الله تعالى ما تقتضيه النصوص من صفات الكمال، متعدياً فى حق الله تعالى حيث جمع بين نفى صفات الكمال عنه، وتمثيله بالمنقوصات والمعدومات، بل قد يرتقى به الغلو فى النفى إلى تمثيله بالممتنعات المستحيلات ويكون أيضاً جانياً على النصوص حيث عطلها عما دلت عليه من صفات الكمال لله تعالى، وأثبت لها معانى من عنده لا يدل عليها ظاهرها فيجمع بين النفى والتمثيل فى صفات الله، وبين التحريف والتعطيل فى نصوص الكتاب والسنة ويكون ملحداً فى أسماء الله وآياته. وقد قال الله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[الأعراف: ١٨٠] وقال: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن**

يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[فصلت: ٤٠]. (١)

وباختصـــار:-

فإن الذين يخرجون النصوص الشرعية عن معانيها الظاهرة إلى معانى أخرى لم يدل عليها دليل شرعى بمقتضي ما ذهبت إليه عقولهم قد وقعوا فى عدة محاذير منها:-

١- مخالفة طريق السلف.

٢- تعطيل النصوص عن المراد بها.

٣- تحريفها إلى معان غير مرادة بها.

٤- تعطيل صفات الكمال التى تضمنتها هذه النصوص.

٥- تناقض طريقتهم فيما أثبتوه وفيما نفوه.

فيقال لهم فى جانب الإثبات: اثبتْ ما نفيتَ مع نفى التشبيه كما أثبتَّ ما أثبتَّ مع نفى التشبيه.

ويقال لهم فى جانب النفي: انفْ ما أثبتَّ خوفاً من التشبيه كما نفيتَ ما نفيت خوفاً من التشـبيه وإلا كنت متناقضاً والقول الفـصل المطرد السالم من التناقض ما كان عليه سلف الأمة وأئمـتها من إثبات ما أثبته الله لنفسـه من الأسماء والصفات إثباتاً بلا تمـثيل، وتنزيهاً بلا تعطـيل، وإجراء النصوص على ظاهرهـا على الوجه اللائق بالله عز وجل من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل. (٢)

فمنهج السلف قائم إذاً على:

أ- رفض التأويل فى النصوص العقائدية.

ب- رفض التحريف للنصوص.

ج- رفض التعطيل لمعانى النصوص.

د- رفض التشبيه والتمثيل بين الخالق والمخلوق.

هـ- رفض تكييف صفات الله عز وجل.

---

(١) تقريب التدمرية: ص٦٥-٦٦.

(٢) راجع: تقريب التدمرية: ص٣٧ بتصرف يسير.

أ- رفض التأويل

يزعم المتكلمون أن أدلتهم العقلية المأخوذة من مصطلحاتهم الكلامية أدلة قطعية وأصلٌ يجب الرجوع إليه، فإذا عارضتها الأدلة الشرعية من الكتاب أو السنة وجب -(فى زعمهم)- تأويل النصوص الشرعية تأويلاً يجعلها موافقة للأدلة العقلية. وهذا هو التأويل الذى يلجأ إليه المتكلمون فى أبحاثهم الكلامية فى مسائل التوحيد والعقائد الغيبية والصفات الإلهية.

فالتأويل إذاً فى اصطلاح المتكلمين إنما يعنى اتخاذ العقل أصلاً يكون النقل تابعاً له فإذا ما ظهر تعارض بينهما -فى زعمهم- فينبغى تأويل النص حتى يوافق العقل.

ومنهج المتكلمين فى تأويل النصوص بأدلتهم العقلية باطل من وجوه منها:-

١- أن هذا النوع من التأويل للنصوص لتوافق أقوال المتكلمين هو فى حقيقته تحريف للنصوص وتعطيل لها.

٢- أنه لا يجوز شرعاً معارضة كلام الخلاق العليم بالمصطلحات الكلامية التى وضعها بشر بعقولهم، وهى مأخوذة فى الأصل من فلاسفة وعلماء كلام من غير المسلمين.

٣- أن موافقتهم فيما ذهبوا إليه تؤدى إلى الاستخفاف بأدلة الكتاب والسنة، والتقليل من قيمتها حيث لا يستدل بها على وجه الاستقلال بما يناقض الإيمان بها، كما أنه يؤدى إلى صرف الناس عن دراسة الكتاب والسنة وفهم معانيهما.

٤- أن الحجة العقلية الصحيحة لا تعارض الحجة الشرعية الصريحة بل يمتنع تعارضهما، إلا إذا كانت الحجة العقلية فاسدة، أو الفهم للحجة الشرعية فاسد.

٥- أن الشرع قد يأتى بأمور تحتار العقول فى إدراكها، ولكنها غير مستحيلة عقلاً. مثال ذلك فى الإيمان بالملائكة، فهذا إيمان بالغيب، عرف من النصوص الشرعية المتواترة، وهى مخلوقات نورانية، تحتار العقول فى إدراك حقيقتها، ولكن وجودها غير مستحيل عقلاً، كما أن هناك مخلوقات لا ترى كالميكروبات والجراثيم الدقيقة لا ترى بالعين المجردة وثبت وجودها علمياً تحت المجهر (الميكروسكوب)،

وكالهـواء لا يرى ووجوده ثابت من آثاره حـولنا، وكالكهـرباء لا ترى وتدرك من آثارها. . . إلخ.

ولفظ التأويل فى الشرع له عدة معاني:-

١- التأويل الذى هو بمعنى التفسير والبيان وهو الغالب على اصطلاح المفسرين للقرآن كابن جرير الطبرى وغيره.

٢- التأويل الذى بمعنى الحقـيقة التى يؤول إليها الكلام كمـا قال تعالى: ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ**﴾[الأعراف: ٥٣] وأمثلة هذا النوع كثيرة فى القرآن ولاسـيما ما يتعلق بأخبار المعاد.

٣- التأويل فى اصطلاح المتأخرين وهو صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه إلى احتمال آخر مرجوح لدليل يقتضى ذلك.

فإن كـان صرف اللفظ عن ظاهره لأمـر يظنه الصارف دليـلاً وليس بدليل على الصحيح فـهذا تأويل فاسد. ومن ذلك تأويل المتكلمين لآيات وأحـاديث الأسماء والصفات بدعوى التنزيه لموافقة أدلتهم العقلية فـى قضية الأسماء والصفات. فهذا ليس بدليل تعارض به نصـوص الكتاب والسنة ودعوى التنزيه لا تعـارض الإثبات الذى عليه أهل السنة إذ إنهم لا يكيفون صفة ولا يشبهون الخالق بالمخلوق، لقوله تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾[الشوري: ١١] فنفى التشـبيه تنزيهاً للخالق مع إثبات صفتى السميع والبـصير. وبالجملة فليست أدلة المتكلمين العقلية المأخوذة من علم الكلام بـأدلة تؤول أو تخصص أو تقيـد بها الأدلة الشرعـية من الكتاب والسنة.

فإن كـان صرف اللفظ عن ظاهره بدليل شرعى صـحيح فى نفس الأمر فـهذا تأويل صحيح مقبول.(١)

---

(١) طبقاً لاصطلاح المتأخرين لما ذكرنا.

على أن التأويل الصحيح فى النصوص يتطلب كذلك.[١]

١- أن يحتمل اللفظ لغة هذا المعنى المرجوح.

٢- ورود ما يفيد وجوب هذا التأويل لظاهر النصوص الشرعية من النبي ﷺ إذ يمتنع اقتضاء صرف ظاهر نصوص الكتاب والسنة عن ظاهره بدون بيان وتنبيه وإرشاد من النبي ﷺ.

٣- بيان النبي ﷺ لذلك وأن ظاهر النص غير مراد.

٤- سلامة دليل التأويل من معارض.

وقد أقر بصحة مذهب السلف فى ترك تأويل أدلة الكتاب والسنة العديد من كبار علماء الكلام الأشاعرة فى أواخر حياتهم وأظهروا الرجوع عما يخالف ذلك قبل موتهم.

فأبو الحسن الأشعرى نفسه صرح برجوعه إلى مذهب السلف في آيات الصفات وأحاديثها ففى كتاب (مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين) ذكر أقوال جميع أهل الأهواء والبدع والمؤولين والنافين لصفات الله أو بعضها، ثم قال: «جملة ما عليه أهل الحديث والسنة الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله، وما جاء من عند الله، وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ لا يردون من ذلك شيئاً».

وقال أيضاً: «فهذه جملة ما يأمرون به ويستعملونه ويرونه، وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول، وإليه نذهب، وما توفيقنا إلا بالله، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وبه نستعين، وعليه نتوكل وإليه المصير». ا.هـ.

---

(١) راجع فى ذلك:-
- أضواء البيان فى إيضاح القرآن للشنقيطى تفسير سورة آل عمران جـ١ / ص٢٣٤-٢٣٥ .
- كلام ابن تيمية عن التأويل فى كتابه نقض المنطق: ص٥٦-٥٩ .
- رسالة الإكليل فى المتشابه والتأويل لابن تيمية ط. المطبعة السلفية.
- الرسالة المدنية لابن تيمية.

ومما يصح أن نمثل به لاستيفاء هذه الشروط الحديث القدسي فى الصحيح «يا ابن آدم مرضت فلم تعدني» وهذا من مجاز حذف المضاف تحتمله اللغة ودل عليه الدليل من نفس الحديث من قوله تعالى: «مرض عبدى فلان» وسلم هذا الدليل من معارض وهو من بيان الله ورسوله ﷺ وعلى هذا فليس من صفات الله المرض ولا الاستسقاء ولا الاستطعام تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. (وكتبه ياسر برهامي).

والباقلانى فى كتابه (التمهيد) تكلم فى فساد التأويل ورد على الآخذين به فى أسماء الله تعالى وصفاته.

وإمام الحرمين أبو المعالى الجوينى بعد أن انتصر للتأويل فى كتابه (الإرشاد) رجع عنه فى رسالته (العقيدة النظامية) وقال فيها: «والذى نرتضيه رأياً وندين الله به عقداً، اتباع سلف الأمة، فالأولى الاتباع وترك الابتداع والدليل السمعى القاطع فى ذلك أن إجماع الأمة حجة متبعة وهو مستند معظم الشريعة» ا. هـ.

وقال أيضاً: «فإذا أنصرم عصرهم (أى الصحابة) وعصر التابعين على الإضراب عن التأويل كان ذلك قاطعاً بأنه الوجه المتبع بحق فعلى ذى الدين أن يعتقد تنزه الرب تعالى عن صفات المحدثات ولا يخوض فى تأويل المشكلات ويكل معناها إلى الرب» ا. هـ.

والإمام أبو حامد الغزالى فى كتابه (إلجام العوام عن علم الكلام): «اعلم أن الحق الصريح الذى لا مراء فيه عند أهل البصائر هو مذهب السلف أعنى الصحابة والتابعين». ثم قال: «إن البرهان الكلى على أن الحق فى مذهب السلف وحده ينكشف بتسلم أربعة أصول مسلمة عند كل عاقل» ثم بين أن:-

الأول من تلك الأصول أن النبيﷺ هو أعرف الخلق بصلاح أحوال العباد فى دينهم ودنياهم.

الأصل الثاني: أنه بلغ كما أوحى إليه ولم يكتم منه شيئاً.

الأصل الثالث: أن أعرف الناس بمعانى كلام الله وأحراهم بالوقوف على أسراره هم أصحاب رسول اللهﷺ الذين لازموه وحضروا التنزيل.

الأصل الرابع: أن الصحابة رضي الله عنهم فى طول عصرهم إلى آخر أعمارهم ما دعوا الخلق إلى التأويل، ولو كان التأويل من الدين أو علم الدين لأقبلوا عليه ودعوا إليه أولادهم وأهلهم.

ثم قال الغزالي: «وبهذه الأصول الأربعة المسلمة عند كل مسلم نعلم بالقطع أن الحق ما قالوه والصواب ما رأوه»[1] ا. هـ.

---

(١) راجع تفسير قوله تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾ من أضواء البيان للشنقيطى وصون المنطق والكلام للحافظ السيوطي. وانظر المنتظم لابن الجوزى جـ٩ / ص١٧٠ . وطبقات الشافعية للسبكى جـ٦ / ص٢١٠ .

قال الشنقيطى رحمه الله: «ولا شك أن استدلال الغزالى هذا بأن مذهب السلف هو الحق استدلال لا شك فى صحته، ووضوح وجه الدليل فيه، وأن التأويل لو كان سائغاً أو لازماً لبين النبي ﷺ ذلك، ولقال به أصحابه وتابعوهم كما لا يخفى وذكر غير واحد عن الغزالى أنه رجع فى آخر حياته إلى تلاوة ما فى كتاب الله وسنة رسوله. وذكر بعضهم أنه مات وعلى صدره صحيح البخارى رحمه الله»[1].

وعن أبى الحسن الأشعرى أنه قال فى مسجد بالبصرة: «والذين ندين به هو التمسك بما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام وما روى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان عليه الإمام أحمد بن حنبل آخذون»[1] ا.هـ.

(١) راجع تفسير قوله تعالي: ﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾ من أضواء البيان للشنقيطى وصون المنطق والكلام للحافظ السيوطي. وانظر المنتظم لابن الجوزى جـ٩ / ص١٧٠ . وطبقات الشافعية للسبكى جـ٦ / ص٢١٠ .

ب- رفض تحريف النصوص

التحريف: هو التغيير والتبديل. مأخوذ من قولهم: حرفت الشيء عن وجهه حرفاً. من باب ضرب إذا أملته وغيرته، والتشديد للمبالغة وتحريف الكلام تفسيره بغير المعنى المتبادر منه.

والتحريف قسمان: تحريف للفظ وتحريف للمعني. وكلاهما وقع من أهل الكتاب فى كتبهم، فما فى أيدى أهل الكتاب من كتب هى مما وقع فيه هذا التحريف بنص القرآن:-

قال تعالي: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ**﴾[البقرة: ٧٩] فهذا تحريف لفظى للكتاب كتابة.

وقال تعالي: ﴿**وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾[آل عمران: ٧٨] وهذا تحريف لفظى للكتاب باللسان.

وقال تعالى: ﴿**يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ**﴾[المائدة: ٤١] وهذا تحريف لمعانى الكتاب.(١)

والذين يخرجون عن المعانى الظاهرة للنصوص الشرعية بغير دليل هم محرفون للكتاب.

من أمثلة ذلك:-

قول الجهمية والأشاعرة ونحوهم من أهل البدع فى قوله تعالى: ﴿**اسْتَوَى**﴾ استولى بزيادة اللام. فهو كقول اليهود حنطة لما قيل لهم قوله حطة.

وكقول بعض المبتدعة بنصب لفظ الجلالة في قوله تعالي: ﴿**وكلم الله موسي تكليما**﴾.

وكقول الأشاعرة فى قول الله تعالى ﴿**وَجَاءَ رَبُّكَ**﴾: وجاء أمر ربك. ونحو ذلك.

فهذا تحريف للفظ والمعني. وتفسير بعض المبتدعة لصفة الغضب بإرادة الانتقام. وتفسيرهم الرحمة بإرادة الإنعام. وقولهم أن المراد باليدين بالنعمة أو القدرة.(٢) وهذا تحريف للمعنى. وهذا كله من الباطل ومن التحريف المنهى عنه.

---

(١) انظر (منة الرحمن فى نصيحة الإخوان) للشيخ ياسر برهامى ط. مكتبة الإيمان الإسكندرية بتصرف: ص٣٠ .

(٢) راجع(الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية) تأليف الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان. ط. دار الدعوة السلفية الإسكندرية: ص٤٨ .

وانظر شرح العقيدة الواسطية لخليل هراس. ط. الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ص١٦ ط. الرابعة.

وانظر شرح معارج القبول جـ١ / ص٣٢١ .

جـ- رفض التعطيل

التعطيل مأخوذ من العطل وهو الخلو والفراغ والترك ومنه قوله تعالى: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾[الحج: ٤٥] أى بئر أهملها أهلها وتركوها، والمراد بالتعطيل هنا نفى الصفات الإلهية وإنكار قيامها بذاته تعالى.

والتعطيل للأسماء والصفات الإلهية مذهب الجهمية والمعتزلة. والفرق بين التحريف والتعطيل.

أن التعطيل: نفى للمعنى الحق الذى دل عليه الكتاب والسنة.

أما التحريف: فهو تفسير النصوص بالمعانى الباطلة التى لا تدل عليها.

والنسبة بينهما العموم والخصوص المطلق.

فإن التعطيل أعم مطلقاً من التحريف. بمعنى أنه كلما وجد التحريف وجد التعطيل دون العكس.

وبذلك يوجدان معاً فيمن أثبت المعنى الباطل ونفى المعنى الحق. كتفسير الأشاعرة: (استوي) باستولي، (والمجيء) بمجيء الأمر، (واليد) بالقدرة، (والرحمة) بإرادة الإنعام، ونحو ذلك من تأويلاتهم الباطلة.

ويوجد التعطيل بدون التحريف فيمن نفى الصفات الواردة فى الكتاب والسنة وزعم أن ظاهرها غير مراد ولكنه لم يعين لها معنى آخر وهو ما يسمونه بالتفويض.

والتفويض ليس من مذهب السلف. فإن السلف لم يكونوا يفوضون فى علم المعني، ولا كانوا يقرأون كلاماً لا يفهمون معناه بل كانوا يفهمون معانى النصوص من الكتاب والسنة، ويثبتونها لله عز وجل، ثم يفوضون ما وراء ذلك من كنه الصفات أو كيفياتها كما قال مالك حين سئل عن كيفية استوائه تعالى على العرش: (الاستواء معلوم والكيف مجهول).(١)

---

(١) شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية: تأليف محمد خليل هراس. ط. دار الدعوة السلفية ط١٩٩٢م- ١٤١٢هـ. الإسكندرية ص٢١-٢٢ .

د- رفض التشبيه والتمثيل بين الخالق والمخلوق

التمثيل كالتشبيه. وهو اعتقاد مشابهة الخالق بالمخلوق، وتمثيل صفاته بصفاتهم.

وهو ينقسم إلى قسمين:-

الأول: تشبيه المخلوق بالخالق وذلك كتشبيه النصارى المسيح بن مريم بالله، وكتشبيه اليهود عزيراً بالله، وكتشبيه المشركين أصنامهم بالله تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

الثاني: كتشبيه المشبهة الذين يشبهون الله بخلقه، فيقولون له وجه كوجه المخلوق، ويد كيد المخلوق، وسمع كسمع المخلوق ونحو ذلك. تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

هـ- رفض تكييف الصفات

التكييف تعيينه الكنه. يقال كَيَّفَ الشيء أى جعل له كيفية معلومة.(١)

والفرق بين التكييف والتمثيل:

أن التكييف: أن يعتقد أن صفاته تعالى على كيفية كذا. أو يسأل عنها بكيف.

وأما التمثيل فهو اعتقاد أنها مثل صفات المخلوقين.

وليس المراد من نفى التكييف نفى الكيف مطلقاً فإن كل شيء لابد أن يكون على كيفية ما، وصفات الله عز وجل لها كيفية، ولكن لا تصل إليها عقولنا كما قال تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾[الشوري: ١١]، وقال تعالى: ﴿**هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا**﴾[مريم: ٦٥]. ولكن المراد من نفى الكيف نفى علمنا بالكيف إذ لا يعلم كيفية ذاته وصفاته عز وجل إلا هو سبحانه.(٢)

تفسير قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾[الشوري: ١١].

---

(١) تقريب التدمرية: ص٥١ .

(٢) شرح الواسطية لهراس: ص٢٢ فلا يجوز أن نقول إننا نثبت الصفات بلا كيف، ولكن نثبتها بكيفية لا نعلمها، لذا نقول نثبتها من غير تكييف. أى نؤمن أن لها كيفاً يليق بالله سبحانه وتعالى ولا نكيفها بعقولنا.

اختلف في تفسير قوله تعالي: ﴿كمثله﴾ والمراد من (الكاف) ومن (مثله) فقيل: المراد بذكر المثل هنا المبالغة في النفي بطريق الكناية فإنه إذا نفى عمن يناسبه كان نفيه عنه أولى كقولهم: ملك لا يبخل وغيرك لا يجود.

وقيل: إن الكاف زائدة للتأكيد لأنه تعالى لا مثيل له وهو المشهور عند المعربين.

وقيل: إن (مثل) زائدة قاله ثعلب وغيره، كما في قوله تعالي: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ﴾[البقرة: ١٣٧] أي آمنوا بما آمنتم به.

والأول أولي: فإن الكناية باب مسلوك عند العرب ومَهْيَعٌ مألوف لهم. قال ابن قتيبة: العرب تقيم المثل مقام النفس فتقول مثلي لا يقال له هذا، أي أنا لا يقال لي.

وقيل المراد بالمثل الصفة، وذلك أن (المِثْل) بمعنى المَثَل، والمَثَلُ الصفة كقوله تعالي: ﴿مثل الجنة﴾، فيكون المعنى ليس مِثْلُ صفة الله سبحانه وتعالى شيء من الصفات، المعنى ليس يشبهه ولا يماثله شيء من المخلوقات لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، لأن أسماءه كلها حسني، وصفاته صفات كمال وعظمة، وأفعاله تعالى أوجد بها المخلوقات العظيمة من غير مشارك، فليس كمثله شيء لانفراده وتوحده بالكمال من كل وجه، ومن فهم هذه الآية الكريمة حق فهمها وتدبرها مشى بها عند اختلاف المختلفين في الصفات على طريقة بيضاء واضحة، ويزداد بصيرة إذا تأمل معنى قوله تعالي: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، فإن هذا الإثبات بعد ذلك النفي للمماثل قد اشتمل على برد اليقين وشفاء الصدور وانثلاج القلوب، فبهذه الحجة والبرهان القوى يتحطم كثير من البدع ويرغم بها أنوف طوائف من القاصرين المتكلمين، والمتكلفين المتأولين، ولاسيما إذا ضم إليه قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾[طه: ١١٠].

وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي وهو سميع لما ينطق به خلقه على اختلاف لغاتهم وتفنن حاجاتهم. البصير الذى أحاط بصره بجميع المبصرات، فيرى النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، ويرى سريان القوت في أعضاء الحيوانات الصغيرة، وسريان الماء في الأغصان.(١)

(١) راجع (الأسئلة والأجوبة الأصولية) للشيخ عبد العزيز المحمد السلمان ص٥٢-٥٣ .

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة:-

١- الرد على المشبهة الذين يشبهون الله بخلقه.

٢- الرد على المعطلة وهم الذين ينفون الصفات كالجهمية.

٣- الرد على المعتزلة ونحوهم ممن يثبتون الأسماء دون الصفات ويقولون سميع بلا سمع وبصير بلا بصر.

٤- الرد على الأشاعرة لأنهم يثبتون بعض الصفات[1] ويؤولون ويحرفون البعض وهم متناقضون. وقد ضل بضلالهم الكثيرون.

٥- فيها إثبات السمع والبصر لله تعالى على الوجه اللائق بجلاله وعظمته.

٦- تنزيه الله عن مشابهة خلقه وأن صفاته ليست كصفات خلقه. بل هى صفات لائقة بجلاله وعظمته.

٧- تقديم النفى على الإثبات لأن الأول من باب التخلية والثانى من باب التحلية.

٨- فيها نفى مجمل وإثبات مفصل، وهذا هدى أهل السنة أخذاً من هذه الآية وغيرها.

٩- الرد على من زعموا أن السمع والبصر بمعنى العلم.

١٠- فيها دلالة على كثرة صفات كماله ونعوت جلاله عز وجل وأنها لكثرتها وعظمتها لم يكن فيها مثل وإلا فلو أريد نفى الصفات لكان العدم المحض أولى بهذا المدح فهذه الآية تدل على إثبات الصفات.

١١- فيها دليل لمن يفضل السمع على البصر.[2]

١٢- الحث على مقام الإحسان.[3]

---

(١) مما يثبتون سبع صفات: الحياة-الكلام-البصر-السمع-الإرادة-العلم-القدرة.

(٢) لذكر السمع قبل البصر فى الآية.

(٣) الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

راجع فى ذلك الأسئلة والأجوبة الأصولية: ص٥٣-٥٤.

والمحصلة أن:-

مذهب السلف الإيمان بما وصف الله به نفسه فى كتابه، وبما وصفه به رسوله ﷺ والتسليم بها، وإجراؤها على ظاهرها، والإيمان بما جاء فيها على الوجه اللائق بجلال الله وكماله، من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية فى العقيدة الواسطية مبيناً مذهب السلف:

فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون فى أسماء الله وآياته، ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه، لأنه سبحانه لا سمى له، ولا كفء له، ولا ند له، ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالي. فإنه أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قيلا وأحسن حديثا من خلقه، ثم رسله صادقون مصدقون بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون[1] ولهذا قال: ﴿**سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾

[الصافات: ١٨٠-١٨٢].

فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل، وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب. وهو قد جمع فيما وصف وسمى نفسه بين النفى والإثبات.

فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. ا.هـ.

✪✪✪✪✪

(١) المبتدعة من أهل الأهواء عكسوا الأمر، فنفوا عن الله تعالى ما أثبته لنفسه من الصفات، وأثبتوا له من عند أنفسهم ما نزه نفسه عز وجل عنه مما يخالف ما تقتضيه أسماؤه وصفاته. فوقعوا فى تكذيب الكتاب والسنة وبدلوا قولاً غير الذى قيل لهم.

٤- التمسك بفهم الصحابة للكتاب والسنة وعملهم بهما

يقوم المذهب السلفى على فهم الكتاب والسنة والعمل بهما وفق فهم الصحابة رضي الله عنهم لهما، لذا يتمسك السلفيون بما ورد عن الصحابة ويقتدون بهم فى ذلك، ويرون فهمهم للكتاب والسنة أولى ومقدم على من دونهم.

والتمسك بهدى الصحابة رضي الله عنهم وعملهم مما تكلم فيه علماء السلف وبينوا حدوده وأحواله.

* ففى الجوانب العقائدية:-

ذهب السلف الصالح إلى اعتقاد ما ورد عن الصحابة رضي الله عنهم إجماعهم على اعتقاده، لا يحيدون عنه، لذا ففهم الصحابة رضي الله عنهم ومن أخذ عنهم للآيات القرآنية والأحاديث النبوية المتعلقة بعقائد الإسلام مما لا يقبل الخروج عنه عند أهل السنة والجماعة، ويقوى ذلك أن الصحابة رضي الله عنهم لا يعرف عنهم الاختلاف فى أمور العقيدة،[(١)] بل كانوا فى ذلك على إجماع واضح، يندرالخلاف فيه عنهم، وإنما خالفهم أهل البدع والأهواء ممن جاءوا بعدهم، وبدلوا وغيروا، وظهر جلياً خروجهم عن معتقد الصحابة رضي الله عنهم وأصولهم الإيمانية.

والآيات القرآنية والأحاديث النبوية فى تزكية معتقد الصحابة وأصولهم الإيمانية ظاهرة الدلالة على ذلك. قال تعالى في حقهم رضي الله عنهم: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا﴾[البقرة:١٣٧]. وقال تعالي: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠] وقال تعالي: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[البقرة: ١٤٣].

وقال ﷺ: «إن خيركم قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم الحديث»[(٢)].

وقال ﷺ «عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى عضوا عليها بالنواجذ»[(٣)].

---

(١) لم يختلف الصحابة فى مسألة اعتقادية ينبني عليها عمل قط، ولكن وقع بعض الاختلاف فى أمور نظرية لا ينبنى عليها عمل مثاله ما ورد عن اختلاف الصحابة فى رؤيته ﷺ لربه عز وجل فى ليلة الإسراء والمعراج، والاختلاف فى أيهما خلق أولاً العرش أم القلم.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه أحمد وأبو داود والترمذي. وقال حسن صحيح.

وقال ﷺ «وأصحابى أمنة لأمتى فإذا ذهب أصحابى أتى أمتى ما يوعدون» رواه مسلم.

وقال ﷺ فى الفرقة الناجية أنها على ما هو عليه ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم.

فما أجمع عليه الصحابة فى الاعتقاد المبنى على فهم فهموا به الآيات القرآنية والأحاديث النبوية لا يسع أحد عند أهل السنة والجماعة أن يخرج عنه والاصار بذلك من أهل الأهواء والبدع. ولهذا يحتج أهل السنة على أصحاب المذاهب المبتدعة بكونهم مخالفين لفهم الصحابة رضي الله عنهم للكتاب والسنة فى أمور الاعتقاد فإذا كان الإجماع فى الدين حجة فأولى الإجماع إجماع الصحابة رضي الله عنهم قال ابن كثير رحمه الله فى تفسير قوله تعالى فى سورة الأحقاف: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ**﴾[الأحقاف: ١١].

[وأما أهل السنة والجماعة فيقولون فى كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة رضي الله عنهم هو بدعة لأنه لو كان خيراً لسبقونا إليه لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها]. ا. هـ.(١)

**** وفى تفسير القرآن وفهم معانيه:**

فإن الصحابة رضي الله عنهم أعلم الناس بكتاب الله تعالى، لم يفتهم من آياته علماً وعملاً شيئاً، وبلغوا فى ذلك شأناً لا يدركهم فيه من جاء بعدهم. لذا كان مقرراً عند السلف الصالح ومن سار على دربهم تقديم فهم الصحابة للقرآن الكريم على من سواهم ممن خالفهم فى ذلك.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(٢): يجب أن يُعْلَمْ أن النبي ﷺ بين لأصحابه معانى القرآن، كما بين لهم ألفاظه، فقوله تعالى: ﴿**لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**﴾[النحل: ٤٤] يتناول هذا وهذا، وقد قال أبو عبد الرحمن السُّلَمي: حدثنا الذين كانوا يقرءون القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٤ / ص٦٥٦ ط. المكتبة التوفيقية القاهرة.

(٢) من الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ط. دار التراث القاهرة جـ٤ / ص١٧٥-١٧٦ وراجع فى ذلك مقدمة فى التفسير لابن تيمية.

العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً، ولهذا كانوا يبقون مدة فى حفظ السورة. وقال أنس: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدَّ فى أعيينا[(١)]. واقام ابن عمر على حفظ البقرة ثمان سنين[(٢)]، وذلك أن الله قال: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾[ص: ٢٩] وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾[محمد: ٢٤] وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن وأيضاً فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتاباً فى فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحونه، فكيف بكلام الله الذى هو عصمتهم وبه نجاتهم وسعادتهم. وقيام دينهم ودنياهم! ولهذا كان النزاع بين الصحابة فى تفسير القرآن قليل جداً، وهو وإن كان بين التابعين أكثر منه بين الصحابة، فهو قليل بالنسبة إلى ما بعدهم ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة، وربما تكلموا فى بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال والخلاف بين السلف فى التفسير قليل، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد ا. هـ. من الاتقان فى علوم القرآن للسيوطي.[(٣)]

ويقول ابن تيمية أيضاً:[(٤)] «فإن الصحابة والتابعين والأئمة إذا كان لهم فى الآية تفسير، وجاء قوم فسروا الآية بقول آخر لأجل مذهب اعتقدوه، وذلك المذهب ليس من مذاهب الصحابة والتابعين صار مشاركاً للمعتزلة وغيرهم من أهل البدع فى مثل هذا، . وفى الجملة: من عَدَل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئاً فى ذلك بل مبتدعاً، لأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه، كما أنهم أعلم بالحق الذى بعث الله به رسوله» ا. هـ. بتلخيص السيوطي.

**** وفى الجوانب العملية من الدين:-**

فإن ما ورد عن الصحابة ﷺ من الآراء الفقهية والأحكام الدينية والأقوال الاجتهادية لها مكانتها عند السلف الصالح ومن تابعهم من بعدهم.

---

(١) رواه أحمد في مسنده.

(٢) أخرجه في الموطأ.

(٣) ص١٧٥-١٧٦ .

(٤) المصدر السابق: ص١٨٠ .

والمعتمد عند علماء أهل السنة والجماعة أن تفسير القرآن على مراتب أولها تفسير القرآن بالقرآن حيث إن من الآيات القرآنية ما تبين ما أغمض أو أجُمْل أجمل أو أبهم فى بعض آيات القرآن. وبعد ذلك تفسير القرآن بالسنة ففيما ورد عن النبي ﷺ بيان شاف لآيات القرآن، يلى ذلك ما ورد عن الصحابة ﷺ فى تفسير آيات القرآن، ثم من بعدهم ممن أخذ عنهم من كبار التابعين.

وذلك على مراتب وأحوال:-

فما أجمع عليه الصحابة من الأحكام الفقهية فهو حجة ملزمة، فالإجماع حجة، وأقوى الإجماع إجماع الصحابة، لذا فهناك إجماع على حجيته. فـ«لم يتفق الفقهاء على إجماع إلا إجماع الصحابة، فإن إجماعهم فى الأحكام الشرعية ثبت بالتواتر، ولذلك لم يختلف فى إجماعهم أحد، حتى الذين يستبعدون حدوث الإجماع سلموا بإجماع الصحابة».[1]

أما ما أختلفوا فيه من الأحكام الفقهية وتعددت الآراء المنقولة عنهم فيها فكان السلف يتتبعون أقوالهم فيأخذون قولاً منها يعملون به، حتى ذهب البعض إلى منع الخروج عن مجموع ما ورد عنهم من الأقوال فـ«إذا كان قد أثر عن بعضهم رأى وأثر عن البعض الآخر رأى يخالفه، فالخروج عن مجموع آرائهم خروج عن جمعهم».[2]

«هذا وإن المأثور عن الأئمة الأربعة أنهم كانوا يتبعون أقوال الصحابة ولا يخرجون عنها، فأبو حنيفة يقول: «إذا لم أجد فى كتاب الله تعالى أخذت بقول أصحابه، آخذ بقول من شئت، وأدع من شئت منهم، ولا أخرج من قولهم إلى قول غيرهم» ولقد قاله الشافعى فى الرسالة برواية الربيع وهى من كتابه الجديد:[3] ولقد وجدنا أهل العلم يأخذون بقول واحد (أى الصحابة) مرة ويتركونه أخري، ويتفرقون فى بعض ما أخذوا منهم، قال: (أى مناظره) فإلي أى شيء صرت من هذا؟ قلت: اتباع قول واحدهم إذا لم أجد كتاباً ولا سنة ولا إجماعاً ولا شيئاً فى معناه يحكم».

ويقول فى كتابه الأم برواية الربيع أيضاً وهو كتابه الجديد:[3] «إن لم يكن فى الكتاب والسنة صرنا إلى أقاويل أصحاب رسول الله ﷺ، أو واحد منهم، ثم كان قول أبى بكر وعمر[4] أو عثمان إذا صرنا فيه إلى التقليد أحب إلينا، وذلك إذا لم نجد دلالة فى الاختلاف تدل على أقرب الاختلاف من الكتاب والسنة لنتبع القول الذى معه الدلالة».

---

(١) أصول الفقه لمحمد أبو زهرة ط. دار الفكر العربى القاهرة ص١٦٧-١٦٨ .

(٢) أصول الفقه لأبى زهرة ص١٦٩ . نقلاً من المصدر السابق ص١٧٠ .

(٣) أى مذهبه الجديد. وانظر الأم جـ٧ / ص٢٤٧ .

(٤) وفى الحديث: اقتدوا بالذين من بعدي: أبى بكر وعمر.

وإن هذا يدل على أنه يأخذ بالكتاب والسنة، ثم ما يجمع عليه الصحابة، وما يختلفون فيه يقدم من أقوالهم أقواها اتصالاً بالكتاب والسنة، فإن لم يستبن له أقواها اتصالاً بهما اتبع ما عمل به الأئمة الراشدون رضوان الله تبارك وتعالى عنهم، لأن قول الأئمة مشهور وتكون أقوالهم ممحصة عادة. وكذلك الإمام مالك رحمه الله، فإن الموطأ كثير من أحكامه يعتمد على فتوى الصحابة، ومثله الإمام أحمد». (١)

ولقد قال ابن القيم(٢) فى بيان أن آراء الصحابة أقرب إلى الكتاب والسنة من آراء من جاءوا بعدهم:

«إن الصحابى إذا قال قولاً، أو حكم بحكم، أو أفتى بفتيا فله مدارك ينفرد بها عنا، ومدارك نشاركه، فأما ما يختص به فيجوز أن يكون سمعه من النبي ﷺ شفاهاً، أو من صحابى آخر عن رسول الله ﷺ، وإن ما انفردوا به عن العلم عنا أكثر من أن يحاط به، فلم يرو كل منهم كل ما سمع وأين ما سمعه الصديق والفاروق وغيرهما من كبار الصحابة إلى ما رووه، فلم يرو عن صديق الأمة مائة حديث، ولم يغب عن النبي ﷺ فى شيء من مشاهده، بل صحبه من حيث بعث بل قبل البعث إلى أن توفي، وكان أعلم الأمة به ﷺ وبقوله وفعله، وهديه وسيرته، وكذلك أجلة الصحابة رواياتهم قليلة جداً بالنسبة إلى ما سمعوه من نبيهم وشاهدوه، ولو رووا كل ما سمعوه وشاهدوه لزادوا على رواية أبى هريرة أضعافاً مضعفة، فإنما صحبه نحو أربع سنين. وقد روى عنه الكثير، فقول القائل لو كان عند الصحابى فى هذه الواقعة شيء لذكره قول من لم يعرف سيرة القوم وأحوالهم، فانهم كانوا يهابون الرواية ويعظمونها ويقللون منها خوف الزيادة والنقص، ويحدثون بالشيء الذى سمعوه من النبي ﷺ مراراً ولا يصرحون بالسماع ولا يقولون قال رسول الله ﷺ فتلك الفتوى التى يفتى بها الصحابى لا تخرج عن ستة وجوه :

أحدها: أن يكون سمعها من النبي ﷺ .

الثاني: أن يكون سمعها ممن سمعها.

(١) أصول الفقه لأبى زهرة: ص١٧٠-١٧١ .

(٢) إعلام الموقعين لابن القيم: ص٢٤٨ / جـ١ ط. الشيخ منير الدمشقي.

الثالث: أن يكون فهمها من آية من كتاب الله فهماً خفى علينا.

الرابع: أن يكون قد اتفق عليه ملؤهم ولم ينقل إلينا إلا قول المفتى وحده.

الخامس: أن يكون رأيه لكمال علمه باللغة دلالة اللفظ على الوجه الذى انفرد به عنا، أو لقرائن حالية اقترنت بالخطاب أو لمجموع أمور فهمها على طول الزمان من رؤية النبي ﷺ ومشاهدة أفعاله وأحواله، وسيرته وسماع كلامه والعلم بمقاصده وشهود تنزيل الوحى ومشاهدة تأويله بالفعل فيكون فهم ما لم نفهمه نحن، وعلى هذه التقارير الخمسة تكون فتواه حجة علينا.

السادس: أن يكون فهم ما لم يروه عن النبي ﷺ، وأخطأ فى فهمه، وعلى هذا التقرير لا يكون قوله حجة ومعلوم قطعاً أن وقوع احتمال من خمسة أغلب على الظن من وقوع احتمال واحد معين، هذا مما لا يشك فيه عاقل، ولذلك يفيد ظناً غالباً قوياً على الصواب فى قوله... وليس المطلوب إلا الظن الغالب، والعمل به متعين ويكفى العارف هذا الوجه.(١)

والصحابة على علمهم ليسوا بمعصومين كأفراد، وإن كان إجماعهم معصوم فإذا كانت الأمة لا تجتمع على ضلالة فأولى الأمة بذلك جيل الصحابة. أما الواحد منهم فليس معصوماً من الخطأ فى الاجتهاد، فيرد خطؤه إن تبين بطلانه، ويعذر فى ذلك، ويبقى الاتباع للكتاب والسنة.

يقول شارح الطحاوية فى بيان حال السلف تجاه ما ثبت خطؤه من أقوال أحد الصحابة: ولكن إذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه فلابد له في تركه من عذر. وجماع الأعذار ثلاثة أصناف:

أحدها: عدم اعتقاده أن النبي ﷺ قاله.

والثاني: عدم اعتقاده أنه أراد تلكم المسئلة بذلك القول.

والثالث: اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ.

فلهم الفضل علينا والمنة بالسبق، وتبليغ ما أرسل به الرسول ﷺ إلينا، وإيضاح ما كان يخفى علينا.(٢)

---

(١) أصول الفقه لأبى زهرة: ص١٦٩-١٧٠.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص٣٣٧ط.أحمد شاكر. وانظر (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

ويشهد لفضل الصحابة وتقدمهم على من سواهم:-

١- أنهم أعلم الأمة بكتاب الله تعالى حفظاً وتلاوة وتفسيراً إذ أخذوه من فم النبي ﷺ مباشرة، وبين لهم ﷺ معانيه وهم أعلم الأمة بلغة القرآن، وبأسباب ومناسبات نزول آياته لم يغب عنهم منه شيئاً.

٢- أنهم أعلم الأمة بسنة النبي ﷺ وهديه، فهم حفظة أقواله ومشاهدوا أعماله، والأعلم بمواطن إقراره، ويعرفون مناسبة كل منها، والناسخ منها والمنسوخ، والعام منها والخاص، والمقيد منها والمطلق.

٣- أنهم من أشد الناس تمسكاً بما أخذوه عن النبي ﷺ من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ لا يفرقون فى العمل بهديه ﷺ بين صغيرة وكبيرة، وقد ضربوا فى اتباعه ﷺ وشدة حبهم لهديه وسنته أمثالاً رائعة لا مثيل لها، ولا يعرف أحد أشد حباً وشغفاً بمتابعة لشخص، كحب ومتابعة الصحابة للنبي ﷺ .

٤- أنهم أهل اجتهاد ونظر، لما ملكوا من وسائل الاجتهاد الكثيرة كالعلم بالكتاب والسنة، والإحاطة باللغة العربية، ورجاحة العقل والفراسة والفطنة، ومعرفة أسباب النزول، وعلل الأحكام، والقدرة العالية على الاستنباط والاستدلال من النصوص.

٥- أنهم أهل اللغة العربية، أحاطوا بها إحاطة تامة، علموا مشهورها وغريبها، جليلها ودقيقها، أساليبها البلاغية، مفهومها ودلائلها، لم يعرفوا لحن اللسان، ولم تلحقهم شوائب العجم.

٦- أنهم أهل صلاح وتقوي، وزهد وورع، وفراسة وكياسة، حريصون على الآخرة، معرضون عن الدنيا، فسهل عليهم الانقياد للحق، وانفتحت لهم أبواب الهدى والعلم، ولهم فى ذلك باع ونصيب لا يلحقهم فيه من بعدهم.

والله تعالى يقول: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ**﴾[البقرة: ٢٨٢].

ويقول عز وجل: ﴿**وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى**﴾[محمد: ١٧].

٧- ما لهم من أعمال عظيمة فى نصرة هذا الدين والجهاد فى سبيله، وفى نشر هذه الدعوة وتعليمها للخلق جميعاً، حتى خرجوا بها فى أرجاء المعمورة، وبلغوها تامة كما أخذوها وتلقوها.

٨- شهادة الله تعالى لهم بالإيمان والصدق ورضاه عنهم والتوبة عليهم وإخبار النبي ﷺ عن فضيلتهم ومنزلتهم وخيرتهم وعدالتهم.

٩- الأحاديث الكثيرة الواردة فى فضائل ومناقب الكثيرين منهم كالخلفاء الراشدين الأربعة: أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وبقية العشرة المبشرين بالجنة، وأهل بدر، وأصحاب بيعة الحديبية، والمناقب الجليلة لأئمتهم فى العلم والعمل كعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم.

١٠- إجماع الأمة جيلاً بعد جيل على جلالتهم وإمامتهم، والشهادة لهم بالعدالة والصلاح والخيرية.

١١- انتصاراتهم المذهلة، ودخول الشعوب ذات الحضارات العريقة فى الإسلام على أيديهم طواعية واختياراً دليل ظاهر على قوة إيمانهم وحسن فهمهم للإسلام، وقوة تأثرهم به، ومثالية تطبيقهم له، لذلك كله مكنهم الله عز وجل على شعوب الأرض.

✪✪✪✪✪

أدلة فضل الصحابة رضوان الله عليهم

دلت النصوص الشرعية على أن جيل الصحابة رضي الله عنهم أفضل أجيال هذه الأمة، وأن لهم عند الله تعالى من السبق والمنزلة العالية ما ليس لغيرهم. وتشهد لذلك كله الشواهد التاريخية، والمواقف المرضية لهؤلاء الصحابة فى خدمة هذا الدين ونصرته والدفاع عنه، وبذل الغالي والنفيس فى سبيل ذلك.

لذا فإن أهل السنة والجماعة متفقون على تبجيلهم وتعظيمهم والشهادة لهم بصلاح العمل، وتمام العلم، وحسن الإخلاص، وسلامة العقيدة، ورفعة المنزل. لذا رددوا مناقبهم جيلاً بعد جيل واتخذوهم أسوة.

الآيات القرآنية الواردة فى فضل الصحابة رضي الله عنهم :

*** وردت فى ذلك آيات كثيرة من ذلك:**

١- قال تعالى: **﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾**[التوبة: ١٠٠].

ففى الآية رضا الله عز وجل عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم على ما هم عليه بإحسان ووعد لهم بدخول الجنات والخلود فيها.

٢- قال تعالى: **﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾**[الفتح: ١٨-١٩].

ففيها رضا الله تعالى عن الصحابة الذين بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية وكانوا حوالى ألف وأربعمائة صحابى وإخباره عز وجل بما فى قلوبهم من الصدق وبشرى لهم بتعجيل الخير لهم فى الدنيا بالفتح القريب والمغانم الكثيرة إلى جانب ثواب الآخرة.

٣- قال تعالى: **﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى**

سُوقِه يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[الفتح: ٢٩].

والآية إخبار بوصف أصحاب النبي ﷺ فى التوراة والإنجيل، وبيان ما هم عليه من السمت الحسن والهدى القويم وشدة عبادتهم لله وإخلاصهم الله رجاء ثوابه ونصرتهم لنبيه ﷺ ووعد الله لهم بالمغفرة والأجر.

٤- قال تعالى: **﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾**[التوبة: ١١٧].

نزلت هذه الآية فى غزوة تبوك وقد خرج الصحابة رضي الله عنهم مع النبي ﷺ فى حر شديد وجدب وعسر من الزاد والماء فأصابهم جهد شديد، فأخبر تعالى بتوبته عليهم ورحمته بهم.

٥- قال تعالى: **﴿لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾**[الحديد: ١٠].

والفتح: فتح مكة عند جمهور المفسرين،[1] وفى الآية وعد من الله تعالى للمنفقين قبل الفتح وبعده مع تفاوت فى تفاضل الجزاء، وفيها بيان ما ينتظر الصحابة المنفقين والمقاتلين مع النبي ﷺ من الثواب العظيم.

٦- قال تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾**[الجمعة: ٢-٣].

فى الآية أن النبي ﷺ ابتعثه الله عز وجل إلى الأميين وهم العرب رسولاً فعلمهم كتاب ربهم وطهرهم بعد أن كانوا على الضلال وبتلك النعمة تحققت الغاية من البعثة والرسالة. ثم تعدى الخير عن طريقهم إلى أمم أخرى دخلوا بعد ذلك فى هذا الدين.

---

(١) وأورد الطبرى فى تفسيره القول الآخر وهو يفيد أن المراد بالفتح صلح الحديبية وهو الراجح.

٧- قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٩ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[الحشر: ٨-١٠].

فى الآية مدح عظيم وفضل كبير لصحابة النبي ﷺ. وفيها شهادة للمهاجرين أنهم ﴿يبتغون فضلاً من الله ورضوانا﴾ بأعمالهم ونصرتهم لهذا الدين. ووصفهم بأنهم ﴿الصادقون﴾. وفيها شهادة للأنصار بمحبتهم لإخوانهم المهاجرين وإيثارهم على أنفسهم وأنهم ﴿المفلحون﴾.

ثم ثناء على كل من جاء بعدهم وقد استغفر ودعا لهؤلاء السابقين ونقى قلبه من الغل لهم.

٨- قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[الأنفال: ٧٤].

والآية فيها ثناء وتقديم للمهاجرين من صحابة النبي ﷺ والشهادة لهم بصدق الإيمان والإخلاص فى الجهاد ونصرة الله عز وجل. ووعد لهم بالمغفرة للذنوب والرزق الكريم فى الآخرة.

٩- قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[يوسف: ١٠٨].

فى الآية أمر من الله لنبيه ﷺ أن يخبر الناس أنه ومن اتبعه من صحابته إنما يدعون إلى الله وحده على علم ويقين بما يدعون به وأنهم ينزهون الله تعالى عن الند والشريك والبراءة من الشرك والمشركين.

* والصحابة رضي الله عنهم هم أول من خاطبهم الله تعالى ووجه الثناء إليهم من هذه الأمة، فوصفهم أنهم الأحق بكلمة التقوى وهم أهلها، وناداهم بـ ﴿يا أيها المؤمنون﴾، وجعلهم ﴿شهداء على الناس﴾ وأخبر أنه لا يخزيهم يوم القيامة بل

يجعل لهم نوراً، وأثبت لهم الخيرية على سائر الأمم، وأثبت عدالتهم والآيات فى ذلك كثيرة جداً منها :-

قال تعالى : ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾[البقرة: ١٣٧].

والصحابة أول الداخلين فى هذه الآية وهى عامة فى كل المؤمنين.

وقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠] وفيها إثبات الخيرية لهذه الأمة على سائر الأمم، وأحق الأمة بهذا الوصف هم صحابة النبي ﷺ وهم أول من خوطب بها.

وقال تعالى: ﴿يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعي بين أيديهم وبإيمانهم﴾.

فتضمنت تأمين الله تعالى لصحابة النبي ﷺ من خزى يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[البقرة: ١٤٣] وفيها عدالة هذه الأمة وشهادتها على سائر الناس، وأحق الأمة بها هم صحابة النبي ﷺ .

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾[الجمعة: ٩].

وأول من خوطب بهذه الآية ووصف فيها بالإيمان والاستجابة لله تعالى ولرسوله ﷺ هم صحابة النبي ﷺ .

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[البقرة: ١٨٣].

والصحابة هم المنادون بهذا النداء الإيماني.

هل هذا موضع لفظ الايمان نفيه نفيا الاسلام ؟!

الأحاديث النبوية فى فضل الصحابة رضي الله عنهم :

والأحاديث فى ذلك أيضاً كثيرة منها:

١- روى البخارى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الناس خير قال: «أقرانى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تبدر شهادة أحدهم يمينه وتبدر يمينه شهادته». (١)

٢- وفى الصحيحين عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن خيركم قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» قال عمران: فلا أدرى أقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً. (٢)

٣- وعند مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: سأل رجل النبي صلى الله عليه وسلم أى الناس خير؟ قال: «القرن الذى أنا فيه ثم الثانى ثم الثالث». (٣)

٤- عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تسبوا أصحابى فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم أو نصيفه»(٤) رواه مسلم.

٥- فى الصحيحين عن علي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة أو فقد غفرت لكم»(٥).

٦- وعند مسلم مرفوعاً(٦): «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة».

٧- وفى حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى عضوا عليها بالنواجذ»(٧).

---

(١) رواه البخاري في فضائل الصحابة باب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ورواه مسلم في فضائل الصحابة باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم.

(٢) رواه البخاري في فضائل الصحابة باب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ورواه مسلم في فضائل الصحابة باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم.

(٣) رواه مسلم في فضائل الصحابة باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم.

(٤) رواه مسلم فى فضائل الصحابة باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم .

(٥) رواه البخارى فى المغازى باب غزوة الفتح، وفى التفسير، وفى الأدب وفى الجهاد. ورواه مسلم فى فضائل الصحابة باب من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم وقصة حاطب بن أبى بلتعة.

(٦) رواه مسلم فى فضائل الصحابة باب من فضائل أصحاب الشجرة أهل بيعة الرضوان.

(٧) رواه أحمد وأبو داود والترمذى وقال: حسن صحيح. ورواه ابن ماجه. وهو من أحاديث الأربعين النووية.

٨- وعن أبى بردة عن أبيه رضي الله عنه قال: صليت المغرب مع رسول الله ثم قلنا لو جلسنا حتى نصلى العشاء. قال: فجلسنا فخرج علينا فقال: ما زلتم هاهنا. قلنا: يا رسول الله صلينا معك المغرب ثم قلنا نجلس حتى نصلى معك العشاء. قال: أحسنتم أو أصبتم. قال: فرفع رأسه إلى السماء، وكان كثيراً ما يرفع رأسه إلى السماء، فقال: النجوم أمنة السماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابى فإذا ذهبتُ أتى أصحابى ما يوعدون، وأصحابى أمنة لأمتى فإذا ذهب أصحابى أتى أمتى ما يوعدون.(١) رواه مسلم.

الأمنة: الأمن والأمان.

وفيه أن ذهاب الصحابة رضي الله عنهم وانقضاء جيلهم يعقبه ظهور البدع والحوادث فى الدين والفتن، وقد كان، وهذه كلها من دلائل صدق نبوته صلى الله عليه وسلم.

٩- وفى الصحيح عن أبى سعيد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يأتى على الناس زمان يغزو فئام من الناس فيقال لهم: فيكم من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم، ثم يغزو فئام من الناس فيقال لهم: فيكم من رأى من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم، ثم يغزو فئام من الناس فيقال لهم: فيكم من رأى من صحب من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم.(٢)

١٠- وعند مسلم فى صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب، يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل.(٣)

١١- وعن واثلة رضي الله عنه مرفوعاً: «لا تزالون بخير ما دام فيكم من رآنى وصاحبني، والله ما تزالون بخير ما دام فيكم من رأى من رآنى وصاحبني».(٤)

---

(١) رواه مسلم في فضائل الصحابة باب بيان أن بقاء النبي صلى الله عليه وسلم أمان لأصحابه.

(٢) رواه البخاري في فضائل الصحابة باب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وفي الجهاد، وفي الأنبياء. ورواه مسلم في فضائل الصحابة باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم.

(٣) رواه مسلم في صحيحه.

(٤) رواه ابن أبى شيبة فى الفضائل(٤/١٢٤٦٣) ورواه ابن أبى عاصم بأطول منه(١٤٨١) قال الحافظ ابن حجر (فتح البارى جـ٧/ ٥): وإسناده حسن.

١٢- وعن عبد الله بن مغفل ﵁ أن النبي ﷺ قال: «الله الله فى أصحابى لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذي الله، يوشك أن يأخذه».(١)

١٣- وفى الصحيحين مرفوعاً: «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار». وفى رواية: «لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق».

وعند مسلم مرفوعاً: «اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار ولأبناء أبناء الأنصار».

وفى رواية فى الصحيحين: «إن الناس سيكثرون وهم يقلون فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم».

١٤- وفى حديث افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة قال ﷺ فى صفة الفرقة الناجية أنها علي: «ما أنا عليه وأصحابي».(٢)

١٥- عن أنس بن مالك ﵁ قال: نزلت على النبي ﷺ: ﴿**لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**﴾[الفتح: ٢] مرجعه من الحديبية، قال النبي ﷺ: «لقد أنزلت على الليلة آية أحب إلى مما على الأرض ثم قرأها عليهم النبي ﷺ فقالوا: هنيئا مريئا يا نبى الله بين الله عز وجل ما يفعل بك فماذا يفعل بنا؟ فنزلت عليه ﷺ ﴿**لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا**﴾[الفتح: ٥].(٣)

---

(١) رواه أحمد(٤/ ٨٧) و(٥/ ٥٤-٥٧)، والبخارى فى تاريخه، والترمذي(١٣/ ٢٤٤)، وأبو نعيم فى الحلية، والبيهقى فى شعب الإيمان، وصححه ابن حبان، وفيه: عبد الرحمن بن زياد لا يعرف.

(٢) انظر السلسلة الصحيحة للألبانى الحديث رقم٢٠٤ وزيادة (ما أنا عليه وأصحابي) مروية عن أنس عند الطبرانى فى الصغير وفى سندها مقال، وعن ابن عمرو عند الترمذى وفيها ضعف، ورويت عن أبى أمامة وأبى الدرداء وواثلة بن الأسقع وهى زيادة حسنة.

(٣) رواه البخاري في صحيحه كتاب المغازي باب (غزوة الحديبية) وانظر تفسير ابن كثير لسورة الفتح ج٣ ص١٨٣ ط. المكتبة التوفيقية.

من أقوال السلف فى فضل الصحابة رضي الله عنهم :

١- عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «إن الله نظر فى قلوب العباد فوجد قلب محمد خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه، وابتعثه برسالته، ثم نظر فى قلوب العباد بعد قلب محمد صلى الله عليه وسلم فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رأوه سيئاً فهو عند الله سيئ»[١].

٢- وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «لا تسبوا أصحاب محمد فلمقام أحدهم ساعة - يعنى مع النبي صلى الله عليه وسلم - خير من عمل أحدكم عمره»[٢].

٣- وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «لا تسبوا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فلمقام أحدهم ساعة -يعنى مع النبي صلى الله عليه وسلم - خير من عمل أحدكم أربعين سنة». وفى رواية: (خير من عبادة أحدكم عمره).

٤- وعن ابن عباس أيضاً: «لا تسبوا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فإن الله قد أمر بالاستغفار لهم، وقد علم أنهم سيقتتلون»[٣].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «أمروا بالاستغفار لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فسبوهم»[٤].

وقيل لها: إن أناساً يتناولون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أبا بكر وعمر. فقالت رضي الله عنها: وما تعجبون من هذا انقطع عنهم العمل فأحب الله أن لا ينقطع عنهم الأجر.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خير هذه الأمة قلوباً، وأعمقهم علماً، وأقلهم تكلفاً، اختارهم الله عز وجل لصحبة نبيه ونقل دينه.

وعن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال: «والله لمشهد رجل منهم -يعنى الصحابة- مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يغبر منه وجهه خير من عمل أحدكم ولو عُمِّر عمر نوح». ثم قال يتوعد من يبغضهم أو يسبهم: «لا جرم لما انقطعت أعمارهم أراد الله أن لا ينقطع الأجر عنهم إلى يوم القيامة، والشقى من أبغضهم والسعيد من أحبهم»[٥].

---

(١) رواه أحمد والطيالسي في مسنده وابن الأعرابي في معجمه. وهو صحيح موقوفاً. وانظر السلسلة الضعيفة والموضوعة رقم (٥٣٣) للألباني.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه وابن ماجه وابن أبي عاصم في السنة.

(٣) رواه أحمد.

(٤) رواه مسلم وأبو عاصم في السنة وابن أبي شيبة والهيثمي في مجمع الزوائد من رواية الطبراني.

(٥) رواه الترمذي وأبو داود.

رأى المتكلمين فى صحابة النبي ﷺ :

* ذهب المتكلمون إلى تقديم منهجهم وطريقتهم على منهج وطريقة الصحابة ورأوا أن الصحابة لم يحيطوا بأمهات أصول الدين،(١) وزعموا أن الصحابة انشغلوا بالجهاد فى سبيل الله وإرساء قواعد هذا الدين وحمايته عن تعلم هذه المسائل الأصولية ودراستها.

يقول د. مصطفى حلمي: «لقد بحث المتكلمون ونقبوا فى تاريخ الصحابة وأيامهم فلم يجدوا آثاراً تدل على خوض الصحابة فيها بنفس طريقتهم وتبويباتهم، فاستنتجوا أنهم لم يعرفوها كما تمادى المتكلمون بالطعن فى الصحابة فزعموا أنهم كانوا مشغولين بالجهاد عن تناول أمهات أصول الدين!! وهذا خطأ جسيم وتفسير مقلوب إذ لا يمكن تفسير الانتصارات المذهلة للصحابة إلا فى ضوء استجابتهم لعقيدة الإسلام وفهمها حق الفهم وتطبيقها عملياً(٢-٣)، فاجتذبوا غيرهم من الشعوب ذات الحضارة العريقة، فكان الصحابة فى وضع الطلائع والصفوة الممتازة. ا. هـ.(٤)

---

(١) ليس تقسيم الدين إلى فروع وأصول تقسيما شرعياً، ويراد بالفروع الأحكام الفقهية، وبالأصول مسائل العقائد والتوحيد، فهذا تقسيم محدث، دأب عليه المتكلمون، ومن ثم جعلوا الكتاب والسنة للأحكام الفرعية الفقهية، والأدلة العقلية الكلامية لمسائل الأصول. ومن ثم قيل بالعذر بالجهل فى الأحكام الفرعية وعدم العذر فى مسائل الأصول ومنع التقليد فيها. والشرع لا يعرف هذا التقسيم الاصطلاحى عند المتكلمين وغيرهم، ولكن جرى به العمل بين العلماء من المتأخرين.

ولابد أن ننتبه هنا إلى أن التقسيم نوعان:-

١- تقسيم شرعي وهو الذي تبنى عليه أحكام كما قسم القرآن الذنوب إلى شرك وما دون ذلك فى قوله تعالى ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾ وقسم النبي ﷺ الشرك إلى أصغر وأكبر بقوله (أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر) - الرياء فإنكار هذا التقسيم ضلال والتسوية بين أحكامه هو من فعل أهل البدع.

٢- تقسيم اصطلاحي وهو الذى استحدثه العلماء والمتأخرون كتقسيم العلوم إلى فقه وتوحيد وتفسير ولا شك أنه حادث لكن إن لم ين عليه حكم وكان غرضه البيان لم يضر إذ لا مشاحة فى الاصطلاح أما إذا بنى على التقسيم حكم كأن يقال يعذر بالجهل فى الفروع ولا يعذر فى الأصول-أو يجب التقليد فى العمل ويحرم فى الاعتقاد ونحو ذلك فهذا هو البدعة المحدثة (وكتبه ياسر برهامي).

(٢) وهذا هو الظن اللائق بهم، وعليه السنن الكونية فلا تمكين إلا لأهل الحق والإيمان بعد الصبر على البلاء والأخذ بالأسباب في نصرة الدين. قال تعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا**﴾[النور: ٥٥].

(٣) الذى عليه أهل الحق أن الدين قد كمل قبل وفاته ﷺ وأن الصحابة أخذوه منه تاماً، وطبقوه كاملاً، وبلغوه لمن بعدهم وافياً أما أهل البدع من المتكلمين فيرون أن الدين قد كمل وتم على أيديهم فهم الذين هدوا الناس إلى الصواب فى مسائل أصول الدين!!!

(٤) قواعد المنهج السلفى للدكتور مصطفى حلمى حفظه الله بتصرف: ص٦٣ . ومنهج علماء الحديث فى أصول الدين له ص٣٣ .

يقول د. مصطفى حلمي: «فإن الادعاء بأن الصحابة كانوا مشغولين بالجهاد كما يذكر بعض المتكلمين يحمل في طياته ذم الصحابة. ومؤداه أيضاً أن الرسول ﷺ بلغ قرآنا لا يفهم معناه بل تكلم بأحاديث الصفات وهو لا يفهم معناها، وأن جبريل كذلك وأن الصحابة والتابعين كذلك. وهذا الموقف كما يذكر ابن تيمية ضلال عظيم». ا.هـ.[1]

وقد ذكر د. مصطفى حلمي بعض الأمثلة المروية عن الصحابة تدل على عمق فهمهم وإحاطتهم بأصول هذا الدين وعقائده،[2] وإن لم يتكلموا فيها بطريقة واصطلاحات الفلاسفة والمتكلمين، لأن هذه الاصطلاحات الكلامية لم تعرف في عهدهم ولم تثار كما أثيرت بعد ذلك على يد أهل البدع والأهواء من المتكلمين.

فمن أمثلة ذلك:

* عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان مرة في جنازة فلما وضع الميت في لحده قام رجل فقال: اللهم رب القرآن اغفر له، فوثب ابن عباس إليه فقال: «القرآن منه» وفي رواية: «القرآن كلام الله وليس بمربوب منه خرج وإليه يعود».

* وعن أبي بكر رضي الله عنه أنه كان يقول: أقول برأيي فإن كان صواباً فمن الله وإن كان خطأً فمني ومن الشيطان.

* وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه أوتي برجل قد سرق فسئل عن فعلته فاحتج بالقضاء والقدر على معصيته، فقال: قضى الله عليّ. فأمر عمر بقطع يده وضربه أسواطاً. وقال: القطع للسرقة والجلد لما كذب على الله.

* وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه لما حاصره الثوار في بيته رموه قائلين: «الله يرميك»، فقال: كذبتم لو رماني ما أخطأني.

---

(١) قواعد المنهج السلفي: ص١٨١ وانظر شرح ابن تيمية لحديث النزول وتفسيره لسورة الإخلاص ومقدمة الفتوى الحموية الكبرى.

(٢) قواعد المنهج السلفي: ص٤٢-٤٥ .

ولا شك أن النبي ﷺ وضح لأصحابه حقائق الدين ولم يترك شيئاً إلا وبينه لهم سواء من الأمور الماضية كبدء الخلق أو الأمور الغيبية كالملائكة وأحوال الآخرة، وما كان الصحابة ليتأخروا عن تعلم أمور دينهم خاصة العقائدية.

* وعندما اعترض الخوارج على على بن أبى طالب لأنه حكم الحكمين بعد موقعة صفين: قالوا له: «حَكَّمْت رجلين؟» قال: ما حكمت مخلوقاً إنما حكمت القرآن(١). وفى إجابته أنه ما حكم إلا القرآن ونفى أنه مخلوق.

* وعن ابن مسعود أنه قال: من حلف بالقرآن فعليه بكل آية يمين: وفيه أن القرآن ليس بمخلوق، لذا جعل كفارة اليمين عن كل آية فيه. ولا يجوز الحلف بالمخلوق.

* وسئل ابن عمر عن مرتكبى معاصى يزعمون أن ذلك بعلم الله تعالى فغضب وقال: «سبحان الله العظيم قد كان ذلك فى علمه أنهم يفعلونهما ولم يحملهم علم الله على فعلها».(٢)

✪✪✪✪✪

(١) منهج علماء الحديث والسنة فى أصول الدين: د. مصطفى حلمى ط. دار الدعوةص١٨ نقلاً عن فتاوى ابن تيمية تحقيق حسين محمد مخلوف جـ٥ / ص٥٦ .

(٢) المرجع السابق: ص١٩ نقلاً عن (فرق وطبقات المعتزلة) للقاضى عبد الجبار ص٢٦ ط. دار المطبوعات الإسكندرية. تحقيق د. النشار وعصام الدين محمد علي.

علم الكـلام

عـرف ابن خلدون علم الكلام بأنه: «علم يتـضمن اللجـاج عن العـقائد الإيمانيـة بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة فى الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة».(١)

وينسب تنظيم علم الكلام وتبـويبه وتفريعـه إلى المعتـزلة، لأنهم أول من فعل ذلك، ففى زمن (عمـرو بن عبيد) تكلموا فى الوعد وإنكار القـدر. ثم جاء بعده (العلاَّف) و(النظَّام) وأشباههم من أهل الكلام فنفوا الصفات الإلهية.(٢)

واختلف فى سـبب تسميـته (علم الكلام): فقـيل إما لما فيـه من المناظرة على البدع وهى كلام صـرف وليست راجعة إلى عمل، أو لأن سبب وضـعه والخوض فيه هو تنازعهم فى إثبات الكلام النفسى وتمييزاً له عن الفقه لأن الفقه عمل.(٣)

أهم موضوعات علم الكـلام:

١- الرد على الدهرية القائلين بقدم العالـم: وذلك بالبرهنة على أن لهذا العالم خالقاً هو الله تعالي.(٤)

٢- تنزيه الله تعالي: بالرد على النصـارى القائلين بالتثليث،(٥) والرد على اليهود فى تشبيه صفات الخالق بالمخلوقين، والرد على المجوس القائلين بإله للنور وإله للظلام.

---

(١) قواعد المنهج السلفي: ص٧٢ ومنهج علماء الحديث والسنة: ص٧٣-٨٢ .

(٢) المرجع السابق: ص٧٠ .

(٣) المرجع السابق: ص٧٢ .

-ابن خلدون: توفى عام٨٠٨هـ الموافق١٤٠٥م.

- عمرو بن عبيد: توفى عام١١٤هـ الموافق٧٦١م.

(٤) وهذا هو توحيد الربوبية وهو الغاية الكبرى عند علمـاء الكلام والفلسفة وتوحيد الربوبية وحده لا يكفى فى الإسلام حتى يكون معه توحيد الألوهية -بإفراد الله بالعبادة- وتوحيد الأسماء والصفات بإفراد الله تعالى فى أسمائه وصفاته ووصفه بما وصف به نفسه فى كتابه وسنة نبيهﷺ بلا تشبيه أو تمثيل أو تأويل أو تعطيل أو نفي.

(٥) يقول ابن تـيميـة: «وكثـير من المصنفين فى الكلام لا يردون على أهل الكـتاب إلا ما يقـولون أنه يعلم بالعقل من تثليث النصارى ومثل تكذيب محمدﷺ ولا يناظروهم فى غير هذا من أصول الدين، وهذا تقصير منهم ومخالفة لطريق القرآن، فـإن الله يبين فى القرآن ما خالفوا به الأنبياء، ويذمهم على ذلك، والقرآن مملوء من ذلك، إذ كان الكفر والإيمان يتعلق بالرسالة والنبوة، فإذا تبين ما خالفوا فيه الأنبياء ظهر كفرهم» أ.هـ. معارج الوصول إلى أن أصول الدين وفروعه قد بينها الرسولﷺ ص٢٣ .

٣- إثبات الصفات الواجبة لله: القادر، العالم، الحي، القيوم، الواحد. والرد على نفاتها.

٤- الكلام فى رؤية الله عز وجل فى الجنة.

٥- الكلام فى كلام الله مخلوق أو غير مخلوق.

٦- الكلام فى أفعال العباد: مخلوقة هى أم غير مخلوقة، وهل الاستطاعة قبل الفعل أم معه.

٧- الكلام فى حكم مرتكب الكبيرة هل يكفر بها أم لا.

٨- الكلام فى إثبات النبوات عامة (للرد على نفاتها من البراهمة)، وإثبات نبوة محمد ﷺ خاصة.

٩- الكلام عن الإمامة العظمي: من يصلح لها، وهل تتم بأهل الحل والعقد أم أنها تتم بالنص.

حجج المتكلمين فى الدفاع عن منهجهم العقلي

* من حجج المتكلمين فى الدفاع عن منهجهم العقلي:-

١- أن علم الكلام ظهر فى زمن تابعى التابعين، ودِّون فى الكتب، واشتهر بلا نكير، مما يفهم منه استحسانهم له، فهو إذاً من البدع الحسنة، ولم لا؟ فبه الرد على الشبهات، وتقوية وتثبيت أقدام الموحدين.

٢- أن الأدلة العقلية لازمة لبيان صحة الحقائق الدينية ولابد من البراهين العقلية ليكون التعريف بالحق صحيحاً.

٣- أن القرآن الكريم ذم التقليد والمقلدين فى آيات كثيرة، وحث على النظر والاستدلال، ولا يكون ترك التقليد ولا يكون النظر والاستدلال إلا باستعمال العقل.

٤- أن أهل الحديث لما انصرفوا عن الاستدلال بالعقل صاروا عاجزين عن مجاراة أعداء الدين من المتكلمين والسبب قلة بضاعتهم فى علم الكلام.

٥- أن الأمر بمجادلة أعداء الدين جاء فى القرآن الكريم قال تعالى: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[النحل: ١٢٥] والخطاب لكل الأمة كما هو للنبي ﷺ ولا يتأتى الجدل إلا بدراسة علم الكلام واستخدامه.

٦- أن تعلم علم الكلام ودراسته أقل أحواله أنه فرض كفاية على الأمة ليكون فيها من يقدر على دفع شبه أعداء الدين والمبتدعين من أهل الكلام بمنهجهم وطريقتهم. قال الإمام الغزالى فى الإحياء:

«فاعلم أن الحق: أنه لابد فى كل بلد من قائم بهذا العلم(١) مستقل، يدفع شبه المبتدعة التى ثارت فى تلك البلدة، ولكن ليس من الصواب تدريسه على العموم كتدريس الفقه والتفسير فإن هذا من الدواء، والفقه مثل الغذاء، وضرر الغذاء لا يحذر، وضرر الدواء محذور» ا.هـ.(٢)

وقد أجيب على تلك الادعاءات بأجوبة ملخصها:-(٣)

١- أن السلف الصالح لم يمارسوا علم الكلام بل تركوا دراسته، والآثار عن الأئمة التى تشهد بذلك كثيرة. وإنما شجع الناس على ترجمة كتب الفلسفة وعلم الكلام عن اليونانية الخلفاء والحكام الذين استمالتهم مذاهب أهل البدع، أما العلماء والأئمة فأعرضوا عن ذلك كله، وليس فى الدين بدعة حسنة، ومُا لم يكن فى عهد النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم من الدين، فلا يكون من بعدهم ديناً، وقد أكمل الله لنا الدين قبل أن تعرف الأمة علم الكلام. قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[المائدة: ٣].

٢- أن عقل الإنسان ليس له أن يوجب شيئاً أو يحرمه، وليس له حق التشريع من دون الله تعالى، وإنما مرد التحليل والتحريم إلى الشرع، وعلي ذلك الحجة والحساب. قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[الإسراء: ١٥].

---

(١) أي علم الكلام.

(٢) من رسالة (فصل الكلام في ذم علم الكلام) إعداد يحيي مختار غزاوي ط.المدينة للتوزيع مؤسسة الريان بيروت ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م ص٢٣-٢٤ . نقلاً عن الغزالي في الإحياء. وانظر مفاتيح الغيب للرازي ط.دار الغد العربي المجلد الأول ص٤٧٧-٤٧٩ حيث استدل علي الفرضية بورود ذم التقليد والأمر بالنظر العقلي والمجادلة بالتي هي أحسن وإن هذا لا يتأتي إلا بعلم الكلام فوجب على الأمة بذلك وانظر مقدمة المستصفي في الأصول للغزالي.

(٣) راجع في ذلك قواعد المنهج السلفي: ص٦٨-٨٦ .

وقال تعالى: ﴿رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس علي الله حجة بعد الرسل﴾. فلو كانت الحجة تلزم بالعقل فقط لم يكن بعث الرسل شرطاً لاستحقاق العقوبة الأخروية.

٣- أن منهج السلف مبنى على الاتباع لا التقليد، وشتان ما بين الحالين: فالتقليد: أخذ قول الغير بلا حجة.

والاتباع: السير على منهاج الرسول ﷺ ومتابعته بعد قيام الأدلة اليقينية على صدق نبوته، وهو المبلغ عن الله، والموحى إليه منه.

أما أهل الكلام فمعلوم عنهم أنهم لا يجتمعون على رأى واحد فى مسألة، فهم دائموا الاختلاف، ينقض بعضهم أقوال بعض، ويطعن بعضهم فى أقوال بعض، حتى أنه قد صرح أذكياؤهم أنهم لم يحصلوا غايتهم من علم الكلام بعد طول بحث وتنقيب.

٤- أما العيب على أهل الحديث بعدم القدرة على مجاراة المتكلمين ومجادلتهم، فلا يخفى أن القدرة على اللجاج والمجادلة والمماراة ليست من الأمور الممدوحة، خاصة أمام نصوص الكتاب والسنة، التى بينت لنا كل ما نحتاج إليه من أصول الدين وفروعه. وقد جاء الشرع بذم الجدل والمماراة.

ولو أراد الصحابة -ومن بعدهم أهل الحديث- الخوض فى علم الكلام والجدل والمماراة لطلبوه وخاضوا فيه واشتغلوا به، ولكنهم قد استغنوا بما عندهم من الحق عنه.

ومحاورات الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم مع أقوامهم كما أوردها القرآن الكريم بعيدة كل البعد عن الجدل الفلسفى وأساليب علماء الكلام، وكذلك سنة النبي ﷺ، ومعلوم من أخبار رسل النبي ﷺ إلى هرقل والمقوقس وكسرى وغيرهم من الملوك والحكام كانت تقتصر على الدعوة إلى دين الله دون جدل فلسفى أو خوض فيه، فَعُلِمَ بذلك أن الجدل والخوض فيه لا خير من ورائه.

٥- أما الأمر القرآنى بمجادلة أعداء الإسلام بالتى هى أحسن فليس المراد به المجادلة بعلم الكلام وطرق المتكلمين وأقوال الفلاسفة، وهذا الأمر القرآنى أمر مجمل، وضحته وبينته سنة النبي ﷺ وسيرته فى حواراته مع المشركين من العرب واليهود من أهل الكتاب والنصارى كوفد نجران ومراسلاته ﷺ للملوك

والحكام، وكلها -كما هو معلوم- خالية من المجادلات الفلسفية والمناظرات الكلامية وإنما اقتصرت على بيان حقائق هذا الدين والدعوة إليه.

٦- أما ادعاء وجوبه وأنه فرض كفاية فهو باطل من وجوه:(١)

منها أن الكتاب والسنة فيهما الغنى عن علم الكلام والفلسفة فلا لوم على من تمسك بهما وأعرض عما سواهما. فكيف يقال فيه أنه تارك لواجب.

وغاية ما يحصله المتكلمون موافقتهم للشرع فى مواضع وصلوا إلى الحق فيها بطرقهم الكلامية وفى المقابل يخطئون فى مواضع، ويختلفون فى مواضع، وتتعدد أقوالهم، وتفترق عقائدهم، كما هو معلوم عنهم، فكيف يعد من تمسك بهدى القرآن والسنة مقصر، ومن خاض فى مناهج المتكلمين موفق، وقد عرض نفسه للزلل.

أن الأنبياء والرسل -وهم أكمل الخلق وصفوته- لم يكونوا من حكماء الفلاسفة أو حذاق المتكلمين، ولا يعرف هذا من سيرتهم، ولم يدعو إليه. فكيف يقال عندئذ بوجوبه؟.

قد علمت أن الشرع ذم الجدل والمماراة، وأن السلف الصالح عابوا عل المتكلمين وطعنوا فيهم،(٢) فكيف يكون ذلك مع وجوبه على الأمة.

يقول ابن الصلاح رحمه الله:- «المنطق مدخل الفلسفة، ومدخل الشرِ شرٌ، وليس الاشتغال بتعليمه وتعلمه مما أباحه الشارع ولا استباحه أحد من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين والسلف الصالحين وسائر من يقتدى به» ا.هـ.(٣)

ولذلك اشتهر بين المتأخرين قولهم: «من تمنطق فقد تزندق».

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فى كتابه: (نقض المنطق): «أما المنطق فمن قال: إنه فرض كفاية، وأن من ليس له به خبرة فليس له ثقة بشيء من علومه: فهذا القول غاية فى الفساد».(٤)

(١) يراجع في ذلك: مقارنة بين الغزالي وابن تيمية: ص٢٨-٢٩ الرد على المنطقيين لابن تيمية: ص١٤-١٥، ص١٧٩، نقض المنطق: ص١٥٧.
(٢) وسنذكر طرفاً من ذلك بعد قليل إن شاء الله.
(٣) مقارنة بين الغزالي وابن تيمية: ص٢٩ نقلاً عن فتاوى ابن الصلاح ط. القاهرةص٤٣ ١٣٤٨هـ، مناهج البحث عند مفكري الإسلام للدكتور علي النشار ص١٤٢ ط. دار الفكر العربي القاهرة١٩٦٧م.
(٤) نقض المنطق لابن تيمية: ص١٥٥-١٥٦.

{بل الواقع قديماً وحديثاً: أنك لا تجد من يلزم نفسه أن ينظر فى علومه ويناظر به إلا وهو فاسد النظر والمناظرة، كثير العجز عن تحقيق علم وبيانه»}(١) {فأحسن ما يحمل عليه كلام المتكلم على هذا: أن يكون قد كان هو وأمثاله فى غاية الجهل والضلالة، وقد فقدوا أسباب الهدى كلها، فلم يجدوا ما يردهم عن تلك الجهالات إلا بعض ما فى المنطق من الأمور التى هى صحيحة فإنه بسبب بعض ذلك رجع كثير من هؤلاء عن بعض باطلهم، وإن لم يحصل لهم حق ينفعهم، وإن وقعوا فى باطل اخر. ومع هذا فلا يصح نسبة وجوبه إلى شريعة الإسلام بوجه من الوجوه إذ أن من هذه حاله فإنما أتى من نفسه بترك ما أمر الله به من الحق، حتى احتاج إلى الباطل. ومن المعلوم أن القول بوجوبه قول غلاته وجهال أصحابه. ونفس الحذاق منهم لا يلتزمون قوانينه فى كل علومهم بل يعرضون عنها إما لطولها وإما لعدم فائدتها وإما لفسادها، وإما لعدم تميزها وما فيها من الإجمال والاشتباه. فإن فيه مواضع كثيرة هى لحم جمل غث على رأس جبل وعر، لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقل. ولهذا ما زال علماء المسلمين وأئمة الدين يذمونه ويذمون أهله وينهون عنه وعن أهله، حتى رأيت للمتأخرين فتيا فيها خطوط جماعة من أعيان زمانهم من أئمة الشافعية والحنفية وغيرهم فيها كلام عظيم فى تحريمه وعقوبة أهله. حتى إن من الحكايات المشهورة التى بلغتنا: أن الشيخ أبا عمرو بن الصلاح أمر بانتزاع مدرسة معروفة من أبى الحسن الآمدى وقال: أخذها منه أفضل من أخذ عكا(*). مع أن الآمدى لم يكن أحد فى وقته أكثر تبحراً فى العلوم الكلامية والفلسفية منه، وكان من أحسنهم إسلاماً وأمثلهم اعتقاداً}.(١) {ومن المعلوم أن الأمور الدقيقة سواءاً كانت حقاً أو باطلاً إيماناً أو كفراً لا تعلم إلا بذكاء وفطنة فكذلك أهله {أى أهل المنطق} قد يستجهلون من لم يشركهم فى علمهم وإن كان إيمانه أحسن من إيمانهم إذا كان فيه قصور فى الذكاء والبيان}.(١) ا.هـ. بتصرف.

ويقول أيضاً رحمه الله:(٢) «وأيضاً فالقرآن ليس فيه أنه قال ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة والجدل، بل قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ

(١) نقض المنطق لابن تيمية: ص١٥٥-١٥٦.
(*) كانت عكا وقتها في أيدي الإفرنج الصليبيين.
(٢) مقارنة بين الغزالي وابن تيمية: ص٣٦-٣٨ نقلاً عن ابن تيمية في الرد على المنطقيين: ص٤٦٧-٤٦٩، ص٤٤٤-٤٤٧.

﴿الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[النحل: ١٢٥] وذلك أن الإنسان له ثلاثة أحوال إما أن يعرف الحق ويعمل به، وإما أن يعرفه ولا يعمل به، وإما أن يجحده فصاحب الحال الأول هو الذى يدعى بالحكمة، فإن الحكمة هى العلم بالحق والعمل به، وليست الحكمة مما يقولونه من حكمة نظرية وعملية هى بعينها الفلسفة.

والنوع الثاني: من يعرف الحق لكن تخالفه نفسه، فهذا يوعظ الموعظة الحسنة، فهاتان هما الطريقتان: الحكمة والموعظة، وعامة الناس يحتاجون إلى هذا وهذا، فإن النفس لها أهواء تدعوها إلى خلاف الحق وإن عرفته، فالناس يحتاجون إلى الموعظة الحسنة وإلى الحكمة فلابد من الدعوة بهذا وهذا. وأما الجدل فلا يدعى به، بل هو من باب دفع الصائل، فإن عارض الحق معارض جودل بالتى هى أحسن. وقال تعالى: ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ولم يقل: بالحسنة، كما قال فى الموعظة، لأن الجدال فيه موافقة ومغاضبة، فيحتاج أن يكون بالتى هى أحسن، حتى يصلح ما فيه من الممانعة والمدافعة. والمجادلة بعلم، كما أن الحكمة بعلم، وقد ذم الله من يجادل بغير علم، فى غير موضع فى كتابه. والله لا يأمر المؤمنين أن يجادلوا بمقدمة يسلم بها الخصم إن لم تكن علماً، فلو قدر أنه قال باطلاً لم يأمر الله تعالى أن يحتج عليهم بالباطل، والقرآن مقصوده بيان الحق ودعوة العباد إليه، وليس المقصود ذكر ما تناقضوا فيه من أقوالهم لتسجيل الخطأ عليهم». ا.هـ.

* أمثلة لاستفسار الصحابة ﷺ للنبي ﷺ فى مسائل أصول الدين والأمور الغيبية ليتعلموها.

روى البخارى فى كتاب (بدء الخلق) من صحيحه أن أناساً من أهل اليمن من الصحابة سألوه ﷺ قالوا: جئناك نسألك عن هذا الأمر؟

قال ﷺ: كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب فى الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض. وروى أيضاً عن عائشة ﵂ أن الحارث بن هشام ﵁ سأل النبي ﷺ: كيف يأتيك الوحي. . . الحديث.

وفى كتاب الأنبياء من صحيح البخارى عن أنس ﵁ قال: بلغ عبد الله بن سلام مقدم رسول الله ﷺ المدينة فأتاه فقال: إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: أول أشراط الساعة، وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ ومن أى شيء ينزع الولد إلى أبيه؟ ومن أى شيء ينزع إلى أخواله. . . الحديث.

وفى كتاب (التوحيد) من صحيحه روى البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه أن الناس قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تضارون فى القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: فهل تضارون فى الشمس ليس دونها سحاب قالوا: لا يا رسول الله، قال: فإنكم ترونه كذلك. . . الحديث. تشبيه الرؤية بالرؤية وليس المرئي بالمرئي

وروى فيه أيضاً عن عمران رضي الله عنه أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم فيما يعمل العاملون؟ فقال صلى الله عليه وسلم : كل ميسر لما خلق له.

والأحاديث فى ذلك كثيرة، تدل على حرص الصحابة على تعلم مسائل أصول الدين من النبي صلى الله عليه وسلم ، وتدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينهاهم عن ذلك أو يمنعهم منه بل كان يجيبهم ويعلمهم ما يحتاجون إليه فى دينهم من ذلك.

بين أهل الحديث والمتكلمين

فى كتابه (نقض المنطق) بين شيخ الإسلام ابن تيمية بعضاً مما يميز أهل الحديث ويقدمهم فى العلم والفضل على علماء المتكلمين: فمن ذلك:-

١- يقول ابن تيمية رحمه الله:- «من المعلوم أن أهل الحديث يشاركون كل طائفة فيما يتحلون به من صفات الكمال ويمتازون عنهم بما ليس عندهم. فإن المنازع لهم لابد أن يذكر فيما يخالفهم فيه طريقاً أخري، مثل: المعقول والقياس والرأي، والكلام والنظر والاستدلال والمحاجة والمجادلة، والمكاشفة والمخاطبة والوَجْد والذوق ونحو ذلك.

وكل هذه الطرق لأهل الحديث صفوتها وخلاصتها، فهم أكمل الناس عقلاً، وأعدلهم قياساً، وأصوبهم رأياً، وأسدهم كلاماً، وأصحهم نظراً، وأهداهم استدلالاً، وأقومهم جدلاً، وأتمهم فراسة، وأصدقهم إلهاماً، وأحدهم بصراً ومكاشفة، وأصوبهم سمعاً ومخاطبة، وأعظمهم وأحسنهم وجداً وذوقاً. وهذا هو للمسلمين بالنسبة إلى سائر الأمم، ولأهل السنة والحديث بالنسبة إلى سائر الملل»[1] ا.هـ.

(١) نقض المنطق لشيخ الإسلام ابن تيمية ط. مكتبة السنة المحمدية القاهرة بتصحيح الشيخ محمد حامد الفقي: ص٧-٨ .

«وذلك لأن اعتقاد الحق الثابت يقوى الإدراك ويصححه. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾[محمد: ١٧] وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[النساء: ٦٦-٦٨][(١)] ا. هـ.

ولهذا كان الذم لأهل البدع أكثر كلما زاد بعدهم ومخالفتهم للكتاب والسنة وأهل الحديث. وكلما قويت متابعتهم للكتاب والسنة قل ذمهم.

ولهذا كان أهل الحديث معظمين عند جميع طوائف الأمة، [وتجد الإسلام والإيمان كلما ظهر وقوى كانت السنة وأهلها أظهر وأقوي. وإن ظهر شيء من الكفر والنفاق ظهرت البدع بحسب ذلك. مثل دولة المهدى والرشيد ونحوهما ممن كان يعظم الإسلام والإيمان]،[(٢)] [وكان فى أيام المتوكل قد أعز الإسلام حتى ألزم أهل الذمة بالشروط العُمَرية وألزموا الصغار، فعزت السنة والجماعة، وقمعت الجهمية والرافضة ونحوهم وكذلك فى أيام المعتضد والمهدى والقادر وغيرهم من الخلفاء الذين كانوا أحمد سيرة وأحسن طريقة من غيرهم، وكان الإسلام فى زمنهم أعز، وكانت السنة بحسب ذلك].[(٣)]

(وفى دولة أبى العباس المأمون ظهر الخرمية ونحوهم من المنافقين وعرب من كتب الأوائل المجلوبة من بلاد الروم ما انتشر بسببه مقالات الصابئين وراسل ملوك المشركين من الهند ونحوهم حتى صار بينه وبينهم مودة)،[(٤)] (وكان من أثر ذلك ما ظهر من استيلاء الجهمية والرافضة وغيرهم من أهل الضلال وتقريب الصابئة ونحوهم من المتفلسفة) (حتى امتحنت الأمة بنفى الصفات والتكذيب بكلام الله ورؤيته، وجرى من محنة الإمام أحمد وغيره ما جرى مما يطول وصفه).[(٥)]

(١) المصدر السابق: ص٨ .
(٢) المصدر السابق: ص١١٨ .
(٣) المصدر السابق: ص١٢٠ .
الخرمية: أتباع بابك الخرمي الذي عاث في الأرض فساداً بخراسان وغيرها. وقتل على يد المعتصم سنة ٢٢٣ هـ. انظر البداية والنهاية لابن كثير جـ١٠ / ص٨٥ .
الشروط العُمَرية: الشروط التي أخذها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على أهل الذمة عند فتح المسلمين للقدس.
(٤) المصدر السابق: ص١٩ .
(٥) المصدر السابق: ص١٩-٢٠ .

٢- قد يعاب على أهل الحديث بأنهم يحتجون أحياناً بأحاديث ضعيفة أو موضوعة أو بآثار لا تصلح للاحتجاج أو أنهم لا يفهمون معنى الأحاديث الصحيحة. {والأمر راجع إلى شيئين: إما زيادة أقوال غير مفيدة تظن أنها مفيدة كالأحاديث الموضوعة وإما أقوال مفيدة لكنهم لا يفهمونها}(١) {ولا ريب أن هذا موجود فى بعضهم يحتجون بأحاديث موضوعة فى مسائل الأصول والفروع وبآثار مفتعلة وحكايات غير صحيحة، ويذكرون من القرآن والحديث ما لا يفهمون معناه}.(٢)

وهذا يقع إما على طريق الخطأ المغفور، أو منكراً من القول وزورا، وهذا على قلته فيهم، فهو فى مخالفيهم أكثر بكثير {وبيان ذلك أن ما ذكر من فضول الكلام الذى لا يفيد -مع اعتقاد أنه طريق إلى التصور والتصديق- هو فى أهل الكلام والمنطق أضعاف أضعاف أضعاف ما هو فى أهل الحديث، فبإزاء احتجاج أولئك بالحديث الضعيف احتجاج هؤلاء بالحدود والأقيسة الكثيرة العقيمة التى لا تفيد معرفة، بل تفيد جهلاً وضلالاً، وبإزاء تكلم أولئك بأحاديث لا يفهمون معناها تكلف هؤلاء من القول بغير علم ما هو أعظم من ذلك وأكثر، وما أحسن قول الإمام أحمد: «ضعيف الحديث خير من رأى فلان»} ا.هـ.(٣)

{ثم لأهل الحديث من المزية: أن ما يقولونه من الكلام الذى لا يفهمه بعضهم هو كلام فى نفسه حق،(٤) وقد آمنوا بذلك، وأما المتكلمة فيتكلفون من القول ما لا يفهمونه ولا يعلمون أنه حق، وأهل الحديث لا يستدلون بحديث ضعيف فى نقض أصل عظيم من أصول الشريعة بل إما فى تأييده، وإما فى فرع من الفروع، وأولئك يحتجون بالحدود والمقاييس الفاسدة فى نقض الأصول الحقة الثابتة}.(٥) ا.هـ.

٣- {وإذا كانت سعادة الدنيا والآخرة هى باتباع المرسلين، فمن المعلوم أن أحق الناس بذلك: هم أعلمهم بآثار المرسلين وأتبعهم لذلك، فالعالمون بأقوالهم وأفعالهم المتبعون لها هم أهل السعادة فى كل زمان ومكان}.(٦)

---

(١)(٢) المصدر السابق: ص٢٢ .
(٣) المصدر السابق: ص٢٣ .
(٤) لأنه من كتاب الله وسنة النبي ﷺ .
(٥) المصدر السابق: ص٢٣ .
(٦) المصدر السابق: ص٢٤ .

وهم {يشاركـون سائر الأمة فيـما عندهم من أمور الرسـالة، ويمتازون عنهم بما اختصوا به من العلم الموروث عن الرسـول مما يجهله غيرهم أو يكذب به.[(١)] لكن المعلوم من حيث الجـملة: أن الفلاسفة والمتكلمين من أعظم بنى آدم حـشواً وقولاً للبـاطل وتكذيباً للحق فى مـسائلهم ودلائلهـم، لا يكاد -والله أعلم- تخلو لهم مسألة واحدة عن ذلك}.[(٢)]

٤- {أنك تجد أهل الكلام أكثـر الناس انتقالاً من قول إلى قول، وجـزماً بالقول فى موضع وجزماً بنقيضه وتكفير قائله فى موضع آخر، وهذا دليل عدم اليقين}.[(٣)]

{وأما أهل السنة فما يُعْلَمْ أحد من علمـائهم، ولا صَالِح عامتهم رجع قط عن قوله واعـتقاده، بل هـم أعظم الناس صـبراً على ذلك وإن امـتحنوا بأنواع المحن، وفتنـوا بأنواع الفتن، وهذا حال الأنبـياء وأتبـاعهم من المتـقدمين كـأهل الأخدود ونحوهم، وكسلف هذه الأمة والصحابة والتابعين وغيرهـم من الأئمة}.[(٤)]

{وبالجـملة: فالثـبات والاستـقرار فى أهـل الحديث والسنة أضـعاف أضـعاف أضعاف مـا هو عند أهل الكلام والفلسفة}[(٥)] {والمقصود: أن ما عند عوام المؤمنين وعلمائهم أهل السنة والجماعة من المعـرفة واليقين والطمأنينة، والجزم الحق والقول الثابت، والقطع بما هم عليه: أمر لا ينازع فيه إلا من سلبه الله العقل والدين}.[(٦)]

٥- {وأيضاً تجد أهل الفلسفة ،والكلام أعظم الناس افتراقاً واختلافاً، مع دعوى كل منهم أن الذى يقوله حق مقطوع به، قـام عليه البرهان، وأهل السنة والحديث أعظم الناس اتفاقاً وائتلافاً}.[(٧)]

{ولست تجد اتفاقاً وائتلافاً إلا بسبب اتباع آثار الأنبياء من القرآن والحديث، وما يتبع ذلك، ولا تجـد اختراقاً واختـلافاً إلا عند من ترك ذلك وقدم غيـره عليه}[(٨)] {ولهذا لما كانت الفـلاسفة أبعد عن اتبـاع الأنبياء كانوا أعظم اختـلافاً، والخوارج

---

(١)(٢) المصدر السابق: ص٢٤ .
(٣)(٤) المصدر السابق: ص٤٢ .
(٥) المصدر السابق: ص٤٣ .
(٦) المصدر السابق: ص٤١ .
(٧) المصدر السابق:٤٣ .
(٨) المصدر السابق: ص٤٦ .

والمعتزلة والروافض لما كانوا أبعد عن السنة والحديث كانوا أعظم افتراقاً فى هذه، لاسيما الرافضة، فإنه يقال: إنهم أعظم الطوائف اختلافاً، وذلك لأنهم أبعد الطوائف عن السنة والجماعة بخلاف المعتزلة فإنهم أقرب إلى ذلك منهم، وكذلك الخوارج أقرب إلى ذلك منهم}.(١)

٦- {وأيضاً المخالفون لأهل الحديث: هم مظنة فساد الأعمال، إما عن سوء عقيدة ونفاق، وإما عن مرض فى القلب وضعف إيمان ففيهم من ترك الواجبات واعتداء الحدود والاستخفاف بالحقوق وقسوة القلب ما هو ظاهر لكل أحد، وعامة شيوخهم يرمون بالعظائم، وإن كان فيهم من هو معروف بزهد وعبادة، ففى زهد بعض العامة من أهل السنة وعبادته ما هو أرجح مما هو فيه. ومن المعلوم أن العلم أصل العمل، وصحة الأصول توجب صحة الفروع، والرجل لا يصدر عنه فساد العمل إلا لشيئين: إما الحاجة وإما الجهل، فأما العالم بقبح الشيء، الغنى عنه فلا يفعله، اللهم من غلب هواه عقله، واستولت عليه المعاصي، فذلك لون آخر وضرب ثان}.(٢)

{فقد حكى عن الجهم بن صفوان: أنه ترك الصلاة أربعين يوماً لا يرى وجوبها}.(٣) و{أبلغ من ذلك: أن منهم من يصنف فى دين المشركين والردة عن الإسلام كما صنف الرازى كتابه فى عبادة الكواكب والأصنام وأقام الإدلة على حسن ذلك ومنفعته ورغب فيه. وهذه ردة عن الإسلام باتفاق المسلمين وإن كان قد يكون تاب منه وعاد إلى الإسلام}.(٤)

٧- المتكلمون {لم يكن لهم من المعرفة بالحديث ما يعدون به من عوام أهل الصناعة،(٥) فضلاً عن خواصها، ولم يكن الواحد من هؤلاء يعرف البخارى

(١) المصدر السابق: ص٤٦ .

(٢) المصدر السابق: ص٤٥ .

(٣) المصدر السابق: ص٤٦ .

(٤) المصدر السابق: ص٤٧ .

(٥) يقول الإمام الذهبي عن حجة الإسلام الغزالي (في سير أعلام النبلاء) ولم يكن له علم بالآثار ولا خبرة بالسنن النبوية العاصية على العقل.

والغزالي نفسه يقول في كتابه رسالة قانون التأويل: وبضاعتي في علم الحديث مزجاة أي قليلة.

وانظر مقارنة بين الغزالي وابن تيمية للدكتور محمد رشاد سالم من (سلسلة زاد المسافرين وتنبيه الغافلين) هامش ص٨

ومسلماً وأحـاديثهما إلا بالسمـاع كما يذكر ذلك العامـة، ولا يميزون بين الحديث الصحيح المتواتر عند أهل العلم بالحديث، وبين الحديث المفترى المكذوب، وكتبهم أصدق شاهد بذلك ففيها عـجائب. وتجد عامة هؤلاء الخارجين عن منهاج السلف من المتكلمة والمتصوفة يعـترف بذلك إما عند الموت وإما قبل الموت والحكايات فى هذا كثيرة معروفة﴾. (١)

وأشهر مثال لذلك الإمام أبو الحسن الأشعرى الذى عاش على الاعتزال أربعين عاماً ثم رجـع عن ذلك إلى مذهب أهل الحديث وصنف كتـابه (الإبانة)، وكذلك أبو حامـد الغزالى المتبـحر فى الكلام والفلسـفة والتصـوف رجع إلى مذهب أهل الحديث وألف (إلجام العوام عن علم الكلام).

وكذلك عـبارات الرازى فى كتـابه (أقسام اللذات) وفـيها رجـوعه عن الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية وقد ظهر له أنها لا تجدي.

﴿ثم إن من عجـيب الأمر: أن هؤلاء المتكلمين المدعين لحـقائق الأمور العلمـية والدينية، المخالفين للسنة والجماعة يحتج كل منهم بما يقع له من حديث موضوع، أو مجمل لا يفهم معناه، وكلما وجد أثراً فيه إجمال نزَّله على رأيه﴾. (٢)

وبالجملة فـ ﴿هم أبعد عن معرفة الحديث، وأبعد عن اتباعه من هؤلاء، هذا أمر محسوس، بل إذا كشفت أحوالهم وجدتهم من أجهل الناس بأقواله ﷺ وأحواله وبواطن أموره وظواهرها، حتى لتجد كثيراً من العامة أعلم بذلك منهـم، ولتجدهم لا يميزون بين ما قـاله الرسول وما لم يقله بل لا يفرقون بين حـديث متواتر عنه، وحديث مكذوب موضـوع عليه وإنما يعتمـدون فى موافقته على مـا يوافق قولهم سواءاً كان موضوعـاً أو غير موضوع، فيعدلون إلى أحـاديث يعلم خاصة الرسول بالضرورة اليقينية أنها مكذوبة عليه عن أحاديث يعلم خاصته بالضرورة اليقينية أنها قوله، وهم لا يعلمون مراده﴾. (٣)

(١) المصدر السابق: ص٦٠ .
(٢) المصدر السابق: ص٦٩ .
(٣) المصدر السابق: ص٨١-٨٢ .

أسباب معارضة السلف للمتكلمين:

يمكن تلخيصها فى الاتي:[(١)]

١- أن فى الكتاب والسنة غنى عن أى وسائل أخرى لمعرفة عقائد الدين الإسلامى وقد كمل الدين بختام بعثة النبي ﷺ وقد بين ﷺ للأمة كل ما تحتاج إليه أتم البيان.

٢- خشية الفتنة فى الدين بسبب استخدام مصطلحات المتكلمين التى لم ترد فى الكتاب والسنة خاصة وقد تسببت بالفعل فى منازعات وخصومات بين المسلمين لعدم الاتفاق على مدلولاتها وتراكيبها.

٣- عدم قدرة كل فرد على النظر فى هذه العلوم والاجتهاد فيها، بينما يمكن لكل أحد الاقتداء بتشريعات الدين وأحكامه والرجوع إلى علماء الدين وفقهائه فى الحوادث المتجددة للاستفصال من حكم الدين فيها بأدلتها الشرعية.

٤- علم الكلام لا يفيد الاشتغال به شيئاً جديداً، فكل ما عدا الكتاب والسنة من فضول الكلام المضيع للوقت والجهد. ولو عكف المتكلمون على دراسة الكتاب والسنة لأدركوا ذلك وعرفوه.[(٢)]

٥- أن قضايا المتكلمين ومجادلاتهم ومسائلهم لا تظهر للأفهام كما أن قضايا الغيب المختص بشرحها وبيانها هم الأنبياء والرسل ويجب قبول ما جاءوا به والتسليم به، ولا يصح جعل العقل بديلاً عن الرسل والأنبياء فى تعريف هذه العقائد والغيبيات.

---

(١) لمزيد من البيان راجع (السلفية بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية) د. مصطفي حلمي ص٦٩-٧٤ .

(٢) وصف ابن تيمية رحمه الله من عاصره من المتكلمين بقوله: «وهم في الحقيقة لا للإسلام نصروا ولا للفلاسفة كسروا». وقال أيضاً فيهم: (يسفسطون في المعقولات ويقرمطون في السمعيات». وانظر شرح حديث النزول ومجموع الفتاوى جـ٥ / ص٣٣، ص٤٤ .

طريقة السلف
أسلم وأحوط وأعلم وأحكم

ومن ميل المتكلمين ونصرتهم لمذهبهم تقديمهم لطريقتهم على طريقة السلف، فيقولون طريقة السلف أسلم وأحوط، وطريقة المتكلمين أعلم وأحكم، فيجعلون المتأخرين من المتكلمين أحذق وأعلم من السلف، ويجعلون الفضل والعلم والبيان والتحقيق والمعرفة للمتكلمين، ويجعلون النقص والتقصير أو الخطأ والجهل للسلف، وأفضل أحوالهم التماس الأعذار للسلف فى ادعائهم التقصير والتفريط منهم.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ولا ريب أن هذا شعبة من الرفض، فإنه وإن لم يكن تكفيراً للسلف -كما يقوله من يقوله من الرافضة والخوارج- ولا تفسيقاً لهم -كما يقوله من يقوله من المعتزلة والزيدية وغيرهم- كان تجهيلاً لهم وتخطئة وتضليلاً، ونسبة لهم إلى الذنوب والمعاصي، وإن لم يكن فسقاً فزعماً أن أهل القرون المفضولة فى الشريعة أعلم وأفضل من أهل القرون الفاضلة.

ومن المعلوم بالضرورة لمن تدبر الكتاب والسنة، وما اتفق عليه أهل السنة والجماعة من جميع الطوائف: أن خير قرون هذه الأمة -فى الأعمال والأقوال والاعتقاد وغيرها من كل فضيلة- أن خيرها: القرن الأول، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كما ثبت ذلك عن النبيﷺ من غير وجه، وأنهم أفضل من الخلف فى كل فضيلة: من علم وعمل وإيمان وعقل ودين، وبيان وعبادة، وأنهم أولى بالبيان لكل مشكل. هذا لا يدفعه إلا من كابر المعلوم بالضرورة من دين الإسلام.

كما قال ابن مسعودؓ من كان منكم مستناً فليستن بمن قد مات فإن الحى لا تؤمن عليه الفتنة. أولئك أصحاب محمد أبر هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم حقهم، وتمسكوا بهديهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم. وقال غيره: «عليكم بآثار من سلف فإنهم جاءوا بما يكفى وما يشفي، ولم يحدث بعدهم خير كامن لم يعلموه» ا.هـ.

وقال: «وما أحسن ما قال الشافعى رحمه الله فى رسالته: هم فوقنا فى كل علم وعقل ودين وفضل، وكل سبب ينال به علم أو يدرك به هدي، ورأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا». ا.هـ.

* وبطلان ما أدعاه المتكلمون ظاهر من وجوه منها:-(١)

١- أن السلف هم الأعلم بالقرآن الكريم والسنة النبوية حفظاً ودراية وفهماً، والأكثر تمسكاً بما فيهما، لا يعرضون عن الكتاب أو السنة، ولا يرون الهدى إلا فيهما، ولا شك أن هداية القرآن والسنة فوق كل هداية لمن نالها وعمل بها.

٢- أن الرسول ﷺ أكمل الخلق وأعلمهم بالحقائق، وأقومهم قولاً وحالاً، ويلزم من ذلك بالقياس العقلى الصحيح عند كل سليم الفطرة أن يكون أعلم الناس بهديه واقتداءاً به أن يكون أفضل الخلق.

فإن قيل: فى المنتسبين إلى السنة مَنْ به تفريط وعدوان.

فالجواب: أن ذلك فى غيرهم أكثر.

وهذه المخالفات سببها قلة المعرفة بالحديث والسنة، وقلة اتباع ذلك مع ما مع المخالفين من نوع تحقيق لبعض العلم وإحسان لبعض العمل.

وبالجملة فهم أرجح من غيرهم وإن وجد بعض التقصير.

٣- أن زعم أن الخلف أدركوا من حقائق الأمور الباطنة الغيبية فى أمر الخلق والبعث والمبدأ والمعاد وأمر الإيمان بالله واليوم الآخر، والأخلاق التى تزكو بها النفوس وتصلح، دون السلف الصالح هو جهل. فإن السلف أدركوا من ذلك كله النصيب الوافر. والنبي ﷺ بين لهم ذلك كله أتم بيان، محبة لإفادة ذلك، ولقدرته على البيان، وتبليغاً للرسالة، ولحرصه على هدايتهم. فيمتنع أن يكون عند غير علماء الحديث ما ليس عندهم من علم هذا كله.

وإذا لم يكن فى الطوائف من هو أعلم بالحقائق وأبين لها منه وجب أن يكون كل ما يذمون به من جهل بعضهم هو فى طائفة الخلف الذام لهم أكثر.

٤- أن ادعاء انشغال الصحابة عن تعلم أصول دينهم بالجهاد والدعوة من لوازمه ذم الصحابة، وزعم أنهم لم يحيطوا علماً بأصول دينهم، ونقلوا ما لم يفهموه فهماً كاملاً، وأن النبي ﷺ بلغهم الكتاب ولم يبين لهم ما يحتاجون إليه فى فهمه، ويلزم منه كذلك: أنهم نقلوا للتابعين علماً لم يتقنوه، وأخذ عنهم

(١) لمزيد من البيان راجع فتاوى ابن تيمية جـ١١ / ٣٦٦-٣٧٣ .

التابعون علماً غير كامل، ولم يستوعبوه، حتى خرج علماء الكلام فأظهروا ما كان خافياً، وأكملوا مـا كان ناقصاً، وأحاطوا بما كان غامضاً، وبينوا مـا كان مستوراً، وكشفوا ما كان منسيا، وهذا باطل قطعاً وإلا: كيف اجتمعت الأمة فى عهد قرون الخيرية ولم تفتـرق، ثم ظهرت فيها الاختلافات فى أصـول الدين وعقائده بظهور المتكلمين، وكيـف انتصر المسلمـون الأوائل وتوسعوا فى فـتوحاتهم، وقـصر من بعدهم عن تحصيل ما حصلوا من الفتوحات والانتصارات.

{ولهذا فإن التاريخ يسجل الصلة العكسية بين ظـهور الحضارة الإسلامية واتساع نفوذها وأثر إشعـاعها وفتوحـاتها وبين ظهور الفرق وانقسـام صفوف المسلمين بين نحل ومذاهب تتطاحن وتتناحر}.(١)

٥- أن هذا يعنى تفضيل وتـقديم القرون المفضولة على قـرون الخيرية فى العلم والمعرفة والبيان والاعتقاد.

✪✪✪✪✪

(١) منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين: ص٣٥ .

بين العلمانية والسلفية

العلوم التى تُكَوّن عقل الإنسان قسمان:-

١- علوم بديهية (أو فطرية أو غريزية): وهى علوم تتميز بالصحة المطلقة، وهى عامة لدى كل الناس وإن تفاوتت فى وضوحها بينهم.

٢- علوم مكتسبة: تتضمن المعارف المختلفة والقوانين الناتجة من الاستقراء.

وهذه العلوم يختلف الناس فى اكتسابها والتيقن منها اختلافاً كبيراً. لذا فهي معارف جزئية، وهى نسبية، تحقق البعض منها، فصارت عنده يقيناً خاصاً به، ولم ير غيرهم ثبوت تيقنها.

ومن الملاحظ هنا:

أن العلوم المكتسبة مأخوذة ومبنية على العلوم البديهية، وعليه فهى علوم مبنية على أسس ثابتة صحيحة،[١] ولكن الواقع على خلاف ذلك، فهى تختلف وتتفاوت، فمنها ما يراه البعض صحيحاً ويرده آخرون، ويأخذ به البعض ويرفضه آخرون، وبالتالى لا تجتمع على العلوم المكتسبة كل عقول الناس.[٢]

ويعنى هذا أنه ليس فى العقل شيء ثابت، بل هو قابل للتغير وفق أنساق فكرية جديدة، فالعقل ليس قائمة متحجرة من المبادئ والتصورات تم إعطاؤها من قبل وبصفة نهائية كاملة، بل هو ظاهرة كباقى الظواهر الأخرى يصيبه ما يصيبها من تبدل وتحول وينطبق عليه ما ينطبق عليها من تاريخية وجدل.[٣]

* إن تقسيم المعقولات إلى ضرورية وكسبية يمكن ضبطه نظرياً ولكن فى المجال العملى التطبيقى تتداخل هذه المعقولات فيما بينها فتستولى فكرة معينة على عقل شخص وتترسخ عنده فيعدها من المبادئ العقلية الأولية الضرورية بل ويتصور منكرها لمبدأ أولي!! فالعقل مجموعة أفكار يحملها شخص ويتعامل على ضوئها

---

(١) وبناءاً على ذلك يرى أصحاب المذاهب العقلانية أن العقل بعلومه الفطرية والمكتسبة قادر على إيجاد منهج عقلي يوحد بين الناس جميعاً.

(٢) ولهذا لم ينجح المنهج العقلي في جمع شمل الناس جميعاً بل اختلف أصحاب المنهج العقلي إلى فرق متعددة ومذاهب متضاربة يعادي بعضها بعضاً ويسفه بعضها بعضاً.

(٣) السلفية وقضايا العصر: ص١٦٥ نقلاً عن العقلانية المعاصرة لسالم يفوت ص٦٩

والعقلانية ممارسة فكرية ليست ذات قيمة مطلقة واحدة ولكنها متنوعة متغيرة. {ولا ريب أن للعقل مبادئ كلية مشتركة بين جميع الناس لكن العقلانية -كما أسلفنا- ليست تحاكماً إلى تلك المبادئ بقدر ما هى تحاكم إلى الأفكار المكتسبة التى يرى أصحابها أنها أقرب الأفكار إلى تلك المبادئ العقلية الصادقة، هذه الأفكار مكتسبة من ثقافة معينة}.(١)

إن الفكر العقلانى ينبنى إلى حد كبير على مفاهيم وقيم ومعارف مستمدة من الظروف الاجتماعية والثقافية التى يعيش فيها الإنسان ويتأثر بها، فليست العقلانية نمطاً للتفكير المجرد الذى يمكن تداوله بين مختلف الثقافات كما أن العلم التجريبى فى تطور متواصل، ومن ثم اتساع فى رؤيته للأشياء فإن العقلانية المرتكزة عليه تفقد قيمتها وذلك أن ما تبنيه هذه العقلانية فى مجال الفكر أو المناهج أو التصور للوجود والحياة فى حالة تغير دائم وراء العلم المتجدد، وهذه التعددات والتغيرات تصبح مصدر تشكك وشقاء لا تبقى معه قيم أو منظورات أو اتجاهات يقينية.(٢)

✪✪✪✪✪

---

(١) السلفية وقضايا العصر: ص١٧١ .

(٢) راجع (السلفية وقضايا العصر): ص١٦٧-١٧٤ .

العقلية التغريبية فى مواجهة الدين

يعمد المتأثرون بالتغريب، والآخذون بالعلمانية، إلى الدعوة إلى تحرير الرؤية العقلية من أى وصاية دينية، بزعم أن قيام العقلانية مرهون بتحطيم المرجعية الدينية والنص الديني، وهذه النظرية مبناها على محاولة إعادة تطبيق ما وقع فى أوروبا مع مواجهة النصرانية المحرفة وإقصاء هيمنتها والقضاء على دورها فى تسيير دفة الحياة والمساهمة فى صياغة أحداثها.

إن العقلانية الأوروبية قد انتهت إلى إحلال العقل محل الدين، وهذا دأب أوروبا فى أكثر تاريخها الطويل. فالعقلانية اليونانية القديمة من قرون ما قبل الميلاد لم تكن تعرف الإيمان بدين، ولم تنقاد لوحى سماوي، إنما عرفت الخضوع للعقل، والعقل وحده. ولما اعتنقت أوروبا الديانة النصرانية وحرفت نصوصها، عانت فى تطورها العلمى الحديث من صراع مع الدين، وحسمت أمرها بإحلال العقل محل الدين ورفض النظرة التقديسية للنصوص القائمة على إيمان يقينى بأنها وحى من عند الله.

لقد عانى الفكر الغربى فى سبيل زحزحة النظرة التقديسية للنص الدينى والتحرر من قبضة تعاليم النصرانية، وقد ساعدت عوامل عديدة هذا الفكر العلمانى فى التخلص من سيطرة الكنيسة، منها: الاضطهاد الشديد الذي مارسته الكنيسة ضد العلم والعلماء، ومنها: ما أثير كثيراً حول صحة إلهية الكتب النصرانية المقدسة، خاصة مع مخالفة المعارف الدينية المأخوذة عن الكنيسة عن الكون والإنسان لما كشفه العلم التجريبى الحديث. وكان لابد أن تتنحى الكنيسة المحرفة للدين، ولكن فى غياب اهتداء أوروبا إلى الوحى الصحيح والدين الإسلامى القويم، صارت للعقل المكانة البارزة فى قيادة الحضارة الأوروبية الحديثة.

وعندما سعى المتأثرون بالتغريب والمنادون بالعلمانية[١] إلى جعل العقل الأصل الذى يرجع إليه دون سواه فى إعادة بناء الأمة، كان لزاماً التصدى لقضية الدين

(١) العلمانية: هي ترجمة Secularism وتعني اللادينية أو الدنيوية. وهي دعوة إلى إقامة الحياة على غير الدين وتعني في جانبها السياسي اللادينية في الحكم.
راجع في ذلك جذور العلمانية للدكتور السيد فرج أحمد.

ومواجهة جمهور المسلمين بضرورة إغفال قضية الانقياد للدين، ممثلاً فى الوحى المنزل، من الكتاب والسنة.

وقد سلك هؤلاء فى سبيل إقصاء الدين وتهميش دوره فى إعادة بناء الأمة مسالك متنوعة:-

فمنهم من شكك فى صحة الدين كله، كتاباً وسنة!!! باعتباره أساطير لا حقائق، وتراث من عصور متخلفة!!! وجعلوا فى مقدمة أسلحتهم محاولة زعم أن القرآن والسنة فيهما معتقدات تتعارض مع العلم التجريبى المعاصر. ومن ثم إبطال منهج الإيمان بالنصوص الإسلامية وعصمتها فى مقابل تقوية التسليم للمنهج العلمى دون سواه.

ومنهم من آثر ألا يصطدم صراحة بالنصوص الشرعية وإن كان يضمر رفضها، وجعل طريقته لتحقيق ذلك عدم النظر للنصوص ومضامينها على أنها نصوص مقدسة يجب الخضوع لها، بل تدرس كتراث يخضع للمنهج العقلانى وأدوات النقد الأدبية، مع التحرر من منهج علماء المسلمين وأصولهم فى دراسة النصوص الشرعية.

ومنهم من عمد إلى نقد التاريخ الواقعى للمسلمين، والتعرض لتشويه الجوانب الإيجابية للتاريخ الإسلامى باسم النقد والدراسة، ومن ثم تحطيم صورة المجتمعات الإسلامية قديماً وحديثاً، واستغلال تلك الصورة فى الطعن فى الدين ونصوصه.

✪✪✪✪✪

الموقف السلفى من العقلانية(*)

تقدم السلفية هدى الرسول ﷺ وهدى الصحابة رضي الله عنهم علماً وعملاً على ما سواهما، ولا يعنى ذلك رفض العقل وعلومه أو إلغاء دوره. ولقد ذكرنا أن العلوم العقلية على ضربين: علوم ضرورية أو بديهية هى الأصل.

وعلوم مكتسبة مبنية -أو هكذا يجب أن تكون- علي العلوم الضرورية وذكرنا أن العلوم الضرورية لا اختلاف بين الناس فيها وإن اختلف الناس فى درجة وضوح هذه العلوم بينهم.

وذكرنا أن العلوم المكتسبة قد يختلف الناس فيها بحسب قدراتهم العقلية ومعارفهم ومستوياتهم العلمية، ومن ثم تقع بينهم المخاصمات والمنازعات فى إثبات أشياء من هذه العلوم. وعند النزاع يحاول كل فريق إثبات صحة قوله ببيان موافقة تلك النظرة أو هذا الرأى الذى يتبناه للعلوم الضرورية الأساسية، أو إثبات بطلان نظرة أو رأى المخالفين له للعلوم البديهية.

وهذا كله مبنى على تحكيم العقل ومعاييره الأولية. فما هو موقف السلفية من ذلك؟.

السلفية كمنهج لا ترفض ذلك، إذ لا مخالفة فى ذلك الفهم للشرع، ووظيفة العقل فى القرآن.

ولكن كما بينا: أن هذا التحكيم للعقل لم يحول بين البشرية وبين النزاعات والخلافات والمخاصمات، بل وتقلب العلوم المكتسبة وتغيرها فى إطار التقدم العلمى والتطور الحضاري.

وفوق ذلك فهناك أمور لا يقدر العقل بمقاييسه المحدودة أن يحيط بها علماً فى الكون والحياة، وهذا ما يؤكده التطور العلمى عصراً بعد عصر.

(*) العقلانية: وصف منسوب إلى العقل، فأصل الكلمة: العقل مع إضافة الألف والنون للمبالغة، ثم ياء النسب، فتاء التأنيث. أي أن:-

العقلانية= العقل+ألف ونون (للمبالغة) + ياء النسب+ تاء التأنشيث. والعقل لغة: المنع والحجر والتقييد. فيقال: عقل البعير بالعقال، إذا ربطه ليمنعه من التفلت، فلا يغادر المكان الذي جعله له صاحبه. وعقل الإنسان الذي يتلقى به المعارف، يمنعه كذلك من الوقوع فيما يهلكه أو يفسده أو يشينه.

وأهم من ذلك الأمور الاعتقادية والغيبية التى هى فوق مستوى العقل وإدراكه فيما يتعلق بالحياة البشرية فيما مضي، وما سيكون إليه مآلها فيما يستقبل فى الآخرة وهى علوم لا طمأنينة للنفس وسكينة إلا بالتصور المرضى لها.

وهذا هو دور الوحى المتمثل فى الكتاب والسنة. وهذا هو الإيمان بالرسل والأنبياء والكتب المنزلة ودورها فى هداية البشرية وإرشادها، وتعليمها العلم الذى لا غنى لها عنه.

وحينما يؤمن المرء بالوحى والنبوة، ويتلقى منهما، يصبح لديه مصدران للعلم:

العقل الذى جعله الله أداة للمعرفة والاستنباط.

والوحى المنزل الذى جعله الله نوراً للهداية والمعرفة.

وكلاهما من عند الله، يأخذان الإنسان إلى غاية واحدة وهدف واحد، لا يتصور -ولا ينبغي- أن يكون هناك تعارضاً بينهما ولا يجوز أن يختلف نص ثابت من الكتاب أو السنة مع قياس عقلى صحيح.

ولا يجوز أن يخالف دليل نقلى صحيح أى دليل عقلى صحيح.

[لم تكن مشكلة العقل والنقل، أو الوحى والمعرفة الإنسانية موجودة لدى السلف الأولين. ذلك أن العقل المؤمن كان حاسماً فى موقفه المنهجى المبنى على منطق العقل السليم: الوحى من علم الله الذى يمثل الحق المطلق فى كل ما قدمه من قضايا، ومن ثم: فإن أى تشكيك فى قضية من قضاياه ينقض ذلك الإيمان أى أن هذا التشكيك يعنى موقفاً غير عقلي.

العقل مصدر للمعرفة، وهو الوسيلة التى كلفنا الله على أساسها وأمرنا أن ننظر في أمر الرسالة، ومن ثم الوحى من خلالها: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ**﴾[سبأ: ٤٦] لكن هذا العقل جزء من الإنسان المخلوق المحدود، ومن ثم فإن المعرفة الناتجة عنه تبقى دون العلم الذى يقدمه الوحي. إنه علم الإنسان أمام علم الله. وهى معادلة واضحة وعقلية.

لكن ذلك لم يكن يعنى لدى أولئك السلف، أنه ينبغى أن يضمر العقل وأن تبطل وظيفته الإبداعية ما دام الوحى موجوداً، لم ينظروا إلى إيمانهم بالوحى وحقائقه المطلقة على أنه استغناء عن العقل، ومن ثم عزل له. كلا إن العكس هو الصحيح، إن انطلاق العقل -لدى هؤلاء- وإبداعه وفتوحاته فى المجالات

السياسية والاجتماعية والعلمية، وتنوع نشاطاته، كان نتيجة ذلك الإيمان بالوحي}.[(١)]

{والمقصود أنه لدى السلف -الأولين- من صحابة رسول الله ﷺ وتابعيهم بإحسان ، كان وجود الوحى -مع توفر العقل- السبيل إلى قيام حياة إنسانية تتحلى فى كل جوانبها بالكمال -الممكن بشرياً- آمنوا بهذا فى وعيهم، وتحققوه فى حياتهم. فلم يكن وجودهما معاً مشكلة، بل إن المشكلة، فى فقدهما أو فقد أحدهما:

حيث إن فقدان الوحى يحرم العقل من الهادى الذى يدفعه فى مجالات العلم، ويحدد له غايات حركته ويرسم له الضوابط التى يحقق بالتزامه بها إنتاجاً مثمراً.

كما أن فقدان العقل أو فساده: يعنى أن لا يتحقق لتعاليم الوحى وجودها الواقعى فى حياة الناس. فتبقى هذه الحياة دون مستواها الإنسانى المأمول}.[(٢)]

فإن قيل: كثيرون يظنون أن التعارض يقع أحياناً بين العقل والشرع، ويتشككون عندئذ فى القول بضرورة موافقة العقل للشرع والشرع للعقل؟.

والجواب:

أن الدليل الثابت شرعاً إما أن يكون قطعياً فى دلالته وإما أن يكون ظنياً.

والأمر الثابت عقلاً إما أن يكون قطعياً لا اختلاف بين الناس فيه وإما أن يكون ظنياً محل اختلاف واجتهاد فى الأخذ به أو تركه. وعلى هذا:

فيستحيل أن يتناقض قطعيان أياً كان مصدرهما، العقل أو الشرع. لأن الدليل القطعى هو الذى يجب ثبوت مدلوله ولا يمكن أن تكون دلالته باطلة.

لكن يمكن أن يتعارض قطعى وظنى وهنا يقدم القطعى أيا كان مصدره على الظني أيا كان مصدره.

كما يمكن أن يتعارض ظنيان، وهنا يجب إعمال الجهد فى المفاضلة بينهما بطرق الترجيح المعتبرة.

---

(١) السلفية وقضايا العصر: ص١٩٧-١٩٨ .
(٢) المرجع السابق: ص١٩٩ .

والغالب أن ما يظنه البعض أو يتصوره تعارض بين العقل والشرع هو فى الحقيقة تصور فى الذهن البشرى القاصر نتيجة أفكار إما بسبب فهم خاطئ للنصوص أو بسبب علم مكتسب غير قطعي، يتصوره صاحبه من الحقائق العلمية اليقينية وليس الأمر كذلك.(١)

والإيمان المبنى على التسليم للوحى جعل الموقف السلفى يقوم على أساس دخول العقل تحت الوحي، بمعنى أن الوحى هو الموجه وله السيادة والعقل تابع يمارس عمله ووظيفته فى ظل توجيهات الوحى وإرشاداته وبهذه التبعية من العقل للوحى يستقيم الأمر بل ويوصف إنتاج العقل بأنه شرعى أو موافق للشرع.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: {ثم الشرعى قد يكون سمعياً وقد يكون عقلياً، فإن كون الدليل شرعياً يراد به كون الشرع أثبته ودل عليه، ويراد به كون الشرع أباحه وأذن فيه، فإن أريد بالشرعى ما أثبته الشرع، فإما أن يكون معلوماً بالعقل أيضاً، ويكون الشرع نبه عليه ودل عليه فيكون شرعياً وعقلياً - كأدلة التوحيد والمعاد ونحوها. وإما أن يكون الدليل الشرعى لا يعلم إلا بمجرد خبر الصادق فإنه إذا أخبر بما لا يعلم إلا بخبره كان ذلك شرعياً سمعياً. وأما إذا أريد بالشرعى ما أباحه الشرع وأذن فيه، فيدخل فى ذلك ما أخبر به الصادق، وما دل عليه القرآن وما دلت عليه وشهدت به الموجودات}(٢). (درء تعارض العقل والنقل ج١/ ١٩٠).

وبالجملة:-

فإن التعارض بين الوحى والعقل افتراض خاطئ لأن الإيمان بأن العقل البشرى خاضع للوحى وتابع له ينفى هذا الافتراض، ورفض العمل بالوحى والخضوع له لا يسمى عقلاً أو منهجاً عقلياً، ولكنه فى مسمى الشرع هوى وضلال.

إن الوحى يخاطب العقل ويبين له المنهج الصحيح للنظر فى شؤون الحياة كلها، وهو فى بيانه وإرشاده وتوجيهه للعقل لا يكبت العقل، بل على العكس من ذلك، يفتح له آفاقاً واسعة ومجالات رحبة للإحاطة والإدراك قد يعجز العقل بمفرده على الإلمام بها كاملة فى كل عصر وزمان.

---

(١) راجع بيان منهج ابن تيمية في ذلك: السلفية وقضايا العصر ص١٩٩-٢٠٣ .
(٢) السلفية وقضايا العصر: ص٢٠٦ نقلاً عن ابن تيمية في كتابه درء تعارض العقل والنقل.

والعقل البشرى حين يتحرك فى إطار الوحى لا يتحرك فى مجال ضيق إنما يتحرك فى مجال واسع جداً، يتحرك فى مجال هو هذا الوجود كله الذى يحتوى عالم الشهادة وعالم الغيب أيضاً، كما يحتوى أغوار النفس ومجالات الأحداث ومجالات الحياة جميعاً.(١)

فإن قيل: إن أوروبا لم تعرف التقدم العلمى الحاضر إلا بعد أن أقصت الدين وتعاليمه عن الحياة، فتخلصت من جمود النصرانية وسيطرة الكنيسة، وجعلت العلم وحده قائدها إلى المدنية المعاصرة. وعليه فواجبنا أن نقصي الدين الإسلامى بتعاليمه وأحكامه، ونطلق العنان للعلم -والعلم وحده- ليقودنا إلى الحضارة المتقدمة التى نتطلع إليها.

والجــواب:-

أن هذا القصور للتقدم الأوروبى ينطوى على خطأ يحتاج لتوضيح، فشتان بين ما كان فى أوروبا وبين ما ينبغى أن تكون عليه كما ينبغى أن نصحح أيضاً نظرتنا إلى الحضارة الأوروبية الحديثة لنميز بين جوانبها الإيجابية التى يجب أن نسعى لمثلها وجوانبها السلبية التى يجب أن نتجنبها.

فأوروبا عندما ثارت على الدين، فإنما ثارت على الكنيسة التى حرفت وبدلت وغيرت، حتى صارت تعاليم النصرانية المحرفة عائقاً أمام العلم والعلماء، وكما ذكرنا فإن العلم الصحيح لا يعارض الوحي، ولكن إن وقع التحريف والتبديل والتغيير للوحى وقع التعارض مع العلم، وهذا ما كان فى أوروبا.

إن مصادمة النصرانية المحرفة -متمثلة فى رجال الدين النصراني- للعلم الدنيوى وعلمائه(٢) لهو دليل واضح على صدق ما أخبر به القرآن الكريم من وقوع التحريف فى الدين النصراني، ومن ثم انحراف الكنيسة ورجالها ثم اضطهادهم للعلماء الدنيويين ومصادرتهم لاكتشافاتهم العلمية الجديدة.

---

(١) السلفية وقضايا العصر: ص٢٠٦-٢٠٧ نقلاً عن سيد قطب في ظلال القرآن جـ٢ / ١٠٩٩ .

(٢) قلت: جرت عادة الكثير بإطلاق لفظ العلم والعلماء على المكتشفين والمخترعين في مجالات الطب والفلك والكيمياء والفيزياء ونحوها من علوم الدنيا والذي أرشدنا إليه القرآن أن كل من لم يؤمن بالله فليس بعالم بل هو جاهل لا يعلم ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ ولذا فيجب أن يقيد إطلاق هذه الكلمة العظيمة كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾. وكتبه (ياسر برهامي).

وهذا التحريف ثابت فى القرآن الكريم باستفاضة:-

فمنه تحريف بالكتابة:

قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾[البقرة: ٧٩].

ومنه تحريف باللسان:-

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[آل عمران: ٧٨].

ومنه تحريف للمعاني:-

قال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾[المائدة: ٤١].

والديانة النصرانية مبناها علي تقليد رجال الدين والكنيسة واتباعهم فيما يحرمون ويحللون: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾[التوبة: ٣١] وفى ظل تحريف الكتب المقدسة ومعانيها وضع الأحبار والرهبان لأتباعهم النصارى ضلالات وجهالات إما أخذاً من نص محرف أو الاجتهاد المبني على نص محرف وبالتالى نسبوا للنصرانية الحقة ما ليس منها وعادوا به بعد ذلك العلم والعلماء حتى صارت النصرانية المحرفة فى جهة والعلم التجريبى الثابت من جهة لذا لم تجد أوروبا بد من رفض الدين بالكلية أو تحجيمه داخل جدران الكنيسة لا يتعداها فى ظل مفهوم جديد عن الدين ودوره فى الحياة.

* أما فى الإسلام: فالتحريف منتفي، إذ تكفل الله عز وجل بحفظ هذا الدين بحفظ كتابه الكريم من التحريف والتبديل، كما أنه عز وجل هيأ لهذه الأمة من حفظ لها سنة نبيهاﷺ عبر القرون الطويلة، فصارت أهم مصادر هذا الدين باقية نقية دون تحريف. ومن هنا يمتنع أن يتعارض العلم الصحيح مع الوحى الثابت متمثلاً فى القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة.

وهذا يفسر لنا لماذا لم يعرف العالم الإسلامى عبر تاريخه الطويل هذا الصراع بين العلم والدين.

* إن أوروبا عندما أقصت النصرانية المحرفة كدين عن الحياة، وأخذت بالعلم طريقها إلى التحضر، فقدت نور الوحى وهداه، ومن ثمّ كونت حضارة مادية بحتة، آلت بها إلى تسخير العلم فى الشر كما تسخره فى الخير، إلى جانب فقد التمسك بالقيم الأخلاقية والإنسانية فى التعاملات العالمية، حتى صارت الدول الأوروبية المتحضرة تستعمر الشعوب الضعيفة، وتذيقها ألوان القهر والإذلال وتستغل خيراتها وتنهب ثرواتها، وتستعبد رجالها وتستبيح أعراضها، فإن أجبرت على الخروج من تلك البلاد إجباراً، سعت بشتى الوسائل إلى ربط اقتصاد هذه الدول باقتصادها، واستغلال حاجاتها إلى تقدمها العلمى فى غزوها فكرياً وثقافياً. ليسهل السيطرة عليها بعد ذلك. كما هو معلوم مشاهد.

* إن الأخذ بأسباب العلم والتقدم العلمى بالصورة التى نراها الآن فى العالم الغربى هو جانب إيجابى ينبغى الاقتداء بأوروبا فيه، أما افتقاد تعاليم السماء ونور الوحى وهدى الدين فجانب سلبى يهدد بتدمير هذه الحضارة بيد أبنائها وينبغى أن نتجنب اتباع أوروبا فيه.

فإن قيل: وهل يظل الدين الإسلامى واجب الاتباع فى كل عصر وزمان وهو رسالة قد مضى عليها أكثر من أربعة عشر قرناً تغيرت فيها جوانب الحياة وتطورت البشرية فيها تطوراً كبيراً فى ظل تقدم علمى مبهر يلزم معه تطور البشرية فى جوانبها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والأخلاقية.

والجواب:-

الإسلام رسالة عالمية لكل البشر بلا استثناء، ومحمدﷺ رسول لكل الناس من زمان البعثة وحتى قيام الساعة فهو خاتم المرسلين، ولا نبى ولا رسول بعده، ولا وحى منزل بعده، وهذا يعنى وجوب اتباع شريعة الإسلام والالتزام بها فى كل عصر ومصر، وحتى نزول عيسى عليه السلام فى آخر الزمان وقيام الساعة.

وهذا مما قررته النصوص الشرعية العديدة:-

قال تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا**﴾[الأعراف:١٥٨].

وقال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً**﴾[سبأ:٢٨]. والمراد إلا إلى جميع الخلائق من المكلفين.

قال محمد بن كعب: يعنى إلى الناس عامة. وقال قتادة فى هذه الآية: أرسل الله تعالى محمداً ﷺ إلى العرب والعجم فأكرمهم على الله تبارك وتعالى أطوعهم لله عز وجل.

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]

وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وفى الحديث المرفوع قوله ﷺ: «مثلى ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة فكان من دخلها فنظر إليها قال ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة، فأنا موضع اللبنة ختم بى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام»(١).

وعن أنس مرفوعاً: «إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدى ولا نبي»(٢).

وعن أبى هريرة مرفوعاً: «فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لى الغنائم، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بى النبيون»(٣).

وفى الصحيحين مرفوعاً: «إن لى أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحى الذى يمحو الله تعالى بى الكفر، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذى ليس بعده نبي». والأحاديث فى هذا كثيرة.

ولهذا كله تكفل الله عز وجل بحفظ هذا الدين بحفظ وحيه المنزل وإبعاده عن يد التحريف والتبديل والتغيير.

ومما هو مقرر عند علماء الأمة صلاحية هذا الدين لكل زمان ومكان، لما امتازت به شريعته من عموم وخصوص وشمولية وواقعية، لا يتسع المقام لبيانه ويؤيده تاريخياً مقدرة الإسلام على القيام بمهام الحضارة العالمية لقرون طويلة ضمت خلالها قوميات مختلفة، وبلداناً مترامية الأطراف، وشعوباً لها رصيد من حضارات قديمة

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.
(٢) رواه الترمذي وقال: صحيح غريب.
(٣) رواه مسلم وابن ماجه والترمذي.

متنوعة، صهرتها جميعاً فى بوتقة واحدة، خرجت للعالم حضارة زاهية متفردة لها قيمها ومبادؤها وأخلاقياتها إلى جانب التقدم العلمى والحضارى المادي.

فعموم الشريعة الإسلامية فى قواعدها وأحكامها ومبادئها، التى تحقق مصالح الناس فى كل عصر ومكان، وتفي بحاجاتهم مهما بلغ المجتمع البشرى مما يؤهلها للبقاء والاستمرار.

والمتأمل لأحكام الشريعة يرى حرص الشريعة على مصالح الناس الحقيقية ودرء المفاسد عنهم لتحقيق المنافع العاجلة والآجلة الدنيوية والأخروية.

ومن مميزات الشريعة كذلك تشريع الرخص عند وجود المشقات فى تطبيق الأحكام كإباحة المحرمات عند الضرورة بقدرها، وإباحة الفطر فى رمضان للمسافر والمريض... إلخ.

ولا شك أن هذه الرخص ضرب من ضروب رعاية المصلحة ودرء المفسدة عن الناس.

وباستقرار أحكام الشريعة وجد أنها تراعى مصالح العباد التى تتعلق بأمور ضرورية وحاجية وتحسينية. فالضرورية هى التى لا قيام لحياة الناس بدونها وإن فاتت يختل نظام الحياة وهذه الضرورات هي: حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال.

والحاجيات هى التى يحتاجها الناس لتحقيق اليسر والسعة فى عيشهم فإذا فاتتهم وقع الناس فى الضيق والحرج.

أما التحسينات فهى التى ترجع إلى محاسن العادات ومكارم الأخلاق فإن فاتت فقدت حياة الناس النهج القويم السليم والعادات الكريمة.

كل هذه المصالح قامت أحكام الشريعة على تحصيلها وتحقيقها فى المجتمع.

كما تمتاز الشريعة بمبادئها العامة الغير تفصيلية التى صيغت بكيفية تيسر تطبيقها من زمان إلى زمان، كمبدأ الشوري، والمساواة والعدالة. إلى جانب الأحكام التفصيلية فيما ينبغى ألا تتغير من زمان إلى زمان كأحكام العقيدة وتفاصيل العبادات كالصلاة والصيام والحج وعلاقات الأفراد داخل المجتمع كتنظيم الأسرة وكيفية الزواج والحضانة والميراث والطلاق والنفقة.

والشريعة فوق ذلك تمتاز بالاعتدال بعيداً عن الإفراط والتفريط.[١]

ولا يخفى أن نسخ شريعة لا يكون إلا بشريعة أخرى فى قوة المنسوخ سواء كان النسخ كلياً أو جزئياً وهذا منتفي بالنسبة للشريعة الإسلامية إذ إن الإسلام قد ختم الشرائع السابقة كلها ونسخها، وأن الشرائع الإلهية قد انقطعت فلا وحى إلهى منزل بعد وفاة النبي ﷺ خاتم النبيين والمرسلين فتبين بذلك كله أن الإسلام هو الشريعة الباقية الأخيرة إلى قيام الساعة، لا يسع أحد الخروج عنها أو التغيير فيها.

قال تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾[المائدة: ٣].

✪✪✪✪✪

(١) راجع في ذلك: (أصول الدعوة) للدكتور عبد الكريم زيدان ص٥٤-٦٥ ، ص٦٨-٧٣ .

ثانيــاً
ملامح عملية للسلفية
فــي
وقتنــا الحــاضــر

وتتضمن قضايا عملية وسمات خاصة تميزت بها الدعوة السلفية في وقتنا الحاضر. منها:

(١) الاهتمام بقضايا التوحيد.

(٢) الحرص علي تحقيق الوحدة الإسلامية المثمرة.

(٣) الشمولية في الدعــوة.

(٤) مفهوم التقدم الحضاري عند السلفيين.

(٥) تيسير فهم الإسلام.

(٦) سلفية المنهج سلفية المواجهة. (بين الأصالة والمعاصرة).

(١)

الاهتمام بقضايا التوحيد

التوحيد أولاً لو كانوا يعلمون

* التوحيد حق الله على العبيد، كما قال ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه (حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً).

* ومن حقق التوحيد غفرت له ذنوبه وإن كانت كتراب الأرض. ففى الحديث القدسى «أن من لقى الله لا يشرك به شيئاً غفر الله عز وجل له ذنوبه وإن كانت تراب الأرض».

* ومن استكمل التوحيد دخل الجنة بغير حساب: ففى الحديث فى السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب «أنهم لا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون». وهذا كمال التوحيد.

* ومن وقع فى الشرك -والعياذ بالله- فقد حبط عمله كائناً من كان: قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾[الزمر: ٦٥].

والأنبياء معصومون من الكبائر والذنوب فضلاً عن الشرك والكفر، فالخطاب لبيان شناعة الشرك وأنه لو وقع من نبى أو رسول كائناً من كان لحبط عمله وكان من الخاسرين، فما بال من هم دونهم بكثير من آحاد العباد، فهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لكل الناس، ليجتنبوا الشرك ويبتعدوا عنه غاية البعد. فهو خطاب لكل الناس فى شخص الأنبياء والمرسلين.

* والشرك من دون سائر الذنوب لا يغفر لصاحبه كائناً من كان، وما عداه من الذنوب فهو فى مشيئة الله إن شاء غفره وإن شاء حاسبه عليه. قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾[النساء: ٤٨].

والمشرك خالد مخلد فى النار لا يخرج منها أبداً.

والدعوة إلى التوحيد هى أول ما يبدأ به، فلا يقدم على التوحيد من واجبات الدين شيئاً، فالتوحيد هو الذى بعث الله به الرسل والأنبياء، والتوحيد أول ما بدأت به الرسل والأنبياء مع أقوامهم:

قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾[النحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلكَ من رَّسُولٍ إلاَّ نُوحي إلَيْه أَنَّهُ لا إلَهَ إلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[الأنبياء: ٢٥].

فدعوة التوحيد أمر الله بها أول رسله -نوحاً عليه السلام- وكل رسله حتى محمداً ﷺ .

ولما أرسل الرسول ﷺ رسله وقواد جيوشه كان يأمرهم أن يبدأوا أولاً بالدعوة إلى التوحيد. فلما بعث علياً رضي الله عنه إلى خيبر أمره أن يدعوهم أولاً إلى توحيد الله.

ولما بعث معاذاً رضي الله عنه إلى اليمن أمره أن يدعوهم أولاً إلى توحيد الله.

ففى الصحيح عن ابن عباس أنه ﷺ قال لمعاذ لما بعثه إلى اليمن: «إنك تقدم علي قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله». وفى رواية: «فادعهم إلي أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»(١).

ولم يرسل نبى ولا رسول -صلوات الله وسلامه عليهم- إلا بالإسلام أى أن دين الأنبياء والرسل واحد وإن اختلفت الشرائع. قال تعالى. ﴿إنَّ الدّينَ عندَ اللَّه الإسْلامُ﴾[آل عمران: ١٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[آل عمران: ٨٥].

* قال تعالى عن نوح عليه السلام:-

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إلَىٰ قَوْمه إنّي لَكُمْ نَذيرٌ مُّبينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ اللَّهَ إنّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾[هود: ٢٥-٢٦]

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إلَىٰ قَوْمه فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مّنْ إلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾[المؤمنون: ٢٣]

* وقال نوح عليه السلام لقومه:

﴿فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا علي الله وأمرت أن أكون من المسلمين﴾[النساء: ١٥٠-١٥١].

* وقال تعالى عن هود عليه السلام:

وقال تعالى: ﴿وَإلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مّنْ إلَهٍ غَيْرُهُ إنْ أَنتُمْ إلاَّ مُفْتَرُونَ﴾[هود: ٥٠].

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد. وانظر صحيح الجامع جـ١ / ٤٥٥، ٤٥٦ حديث رقم ٢٢٩٦-٢٢٩٨ .

* وقال تعالى عن صالح عليه السلام:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾[هود: ٦١].

* وقال تعالى عن شعيب عليه السلام:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾[هود: ٨٤].

ومن دعاء إبراهيم عليه السلام:

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[البقرة: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[البقرة: ١٣٢].

* وقال تعالى عن يعقوب عليه السلام:

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾

[البقرة: ١٣٣].

وقال تعالى عن بيت لوط عليه السلام:

﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾

[الذاريات: ٣٥-٣٦].

وقال تعالى عن يوسف عليه السلام أنه قال فى دعائه:

﴿أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[يوسف: ١٠١].

وقال تعالى عن موسى عليه السلام:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾[يونس: ٨٤].

وعن السحرة لما غلبهم موسى عليه السلام أعلنوا إسلامهم فلما توعدهم فرعون بالعذاب صبروا على إيمانهم وقالوا داعين الله: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[الأعراف: ١٢٦].

وعن سليمان عليه السلام أنه كتب لقوم سبأ:

﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾[النمل: ٣١].

ولما آمنت بلقيس أعلنت إسلامها:

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[النمل: ٤٤].

وقال تعالى عن حوارى عيسى عليه السلام:

﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران: ٥٢].

وقال تعالى عن مؤمنى الجن أنهم من المسلمين:

﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾[الجن: ١٤-١٥]

فالتوحيد دين الله، وهو دعوة كل رسول، والإسلام هو دين الله.

فإن قيل: إن الناس كانوا فى الماضى مشركين فلزم أن تكون الدعوة إلى التوحيد حينئذ أول ما ينبغى أن يدعوا إليه. ولكن اليوم الناس على الإسلام يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فما الداعى إذاً لدعوة الناس إلى التوحيد من جديد والمناداة فيهم بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ؟.

والجواب:

أن هذه مقالة خاطئة بعيدة عن معرفة حال الناس اليوم ومعرفة ما هو التوحيد الذى جاءت به الرسل. فالناس اليوم أبعد ما يكونون -إلا من رحم ربك وهم قليل- عن تحقيق العبودية لله تبارك وتعالى.

فالعالم الإسلامى يبلغ تعداده أكثر من ألف مليون نسمة من إجمالى قرابة ستة آلاف مليون نسمة أى نسبة المسلمين لا تتعدى خمس مجموع العالم.

فكل ستة أشخاص بينهم خمسة من الكفار وواحد فقط من المسلمين.

وهؤلاء الخمسة آلاف مليون كافر ما بين نصرانى وهندوسى وبوذى ووثنى وملحد. يحتاجون إلى دعوتهم إلى التوحيد وتصحيح عقائدهم أكثر من حاجتهم إلى الهواء الذى يتنفسونه والطعام والشراب الذى يتناولونه. والإفوراء حياتهم الدنيا عذاب أليم وسوء المصير فى الآخرة.

أما الألف مليون مسلم ففيهم من المآسى والانحرافات ما يصعب حصره، فكثير من البدع والضلالات والخرافات والخزعبلات والمعتقدات الباطلة تنتشر بينهم، وكثير من أعمال الشرك الظاهر والخفي، الأكبر والأصغر، يرتكبونها بألسنتهم وجوارحهم، وتستولى على قلوبهم وعقولهم، فأين هم من إفراد الله تعالى بالعبادة وتوحيد الله تعالى؟.

كلمة التوحيد قبل توحيد الكلمة

إن كثيراً ممن ينتسبون إلى الإسلام اليوم يرددون الشهادتين وينطقون بكلمة التوحيد ولكن :-

منهم من يؤمن بأن له حرية اختيار المناهج والنظم والقوانين الوضعية بلا قيود وإن شريعة الإسلام ونظمه لا تلزمه فربما أدى العبادات الدينية ولكنه يعزل الدين عن حياته وينادى بإبعاده عن شئون الحكم والسياسة والاقتصاد وأمور المجتمع. وهذا فهم خاطئ لعبوديته لربه ولعمله بالإسلام.

ومنهم من ينساق بشدة إلى ارتكاب المعاصى والمنكرات، فيترك الصلاة ولا يؤدى الزكاة ويتفنن فى أكل المال بالباطل بالرشوة تارة وبالربا تارة أخرى وبالمعاملات المخالفة للشرع أخري، يأكل المحرمات ويشرب الخمور ويمارس الزنا، وقد استمرأت نفسه كل ذلك واعتادته بل لا تتصور الحياة بدونه، ولسان حاله الإعراض عن الدين وتعلم أحكامه.

ومنهم من يقع فى الشرك الصريح، فيصرف العبادات لغير الله، فينذر ويذبح للموتى من الصالحين، ويطوف بأضرحتهم وقبورهم، يعظمها ببناء القباب عليهم، وتشييد المساجد فوقها، ثم يدعوها من دون الله، يستغيث بها، ويتعلق قلبه بها حباً وخوفاً ورجاءاً.

ومنهم من يعتنق معتقدات الفرق الضالة كالمعتزلة والرافضة أو يؤمن بالحلول والاتحاد ومقالات زنادقة الصوفية وضلال الفلاسفة ناهيك عن عقائد الفرق المخالفة لأهل السنة كالأشعرية والماتريدية التى يعتنقها جمهور المسلمين بل وعلماؤهم ويصفونها بأنها عقائد أهل السنة والجماعة وينسبونها للسلف!!.

وغير ذلك كثير وما ذكرناه بعض من كل، وجزء يسير من ضلال كبير يكتنف أكثرية المسلمين فى عقائدهم وعباداتهم ومعاملاتهم وأخلاقياتهم وسلوكياتهم فى هذا الزمان.

وهذه المظاهر كلها دليل واضح علي جهل المسلمين اليوم، بحقيقة دينهم، وأصل التوحيد، وغياب الفهم الصحيح عن عقولهم وحاجتهم الماسة إلى تحقيق التوحيد.

* وبعيداً عن ذلك فإن هناك حقيقة هامة يجب ألا تغيب عن بالنا أبداً وهي: (إن قضية التوحيد لا يدعى إليها الكفار وحدهم لكى يؤمنوا بها ويصححوا اعتقادهم من خلالها بخلع رداء الكفر أو الشرك والدخول فيها ولكن يدعى إلى قضية التوحيد أيضاً المؤمنون بها والمعتنقون لها والمستمسكون بها لكى تظل حية فى قلوبهم راسخة فى ضمائرهم عاملةً فى واقع حياتهم لا يفترون عنها أبداً ولا يغفلون عن مقتضياتها. وأن أعظم دليل على ذلك قول الله جل وعلا: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا﴾**[النساء: ١٣٦]. هكذا يدعى أهل الإيمان إلى الإيمان.[١]

ولقد علم أعداؤنا جيداً أن الجذور الحقيقية التى تضمن البقاء والسيادة والعزة لهذه الأمة فى الأرض هى العقيدة فراحوا بخبث ودهاء يضعون الحواجز والسدود بين المسلمين وبين عقيدتهم الصافية الخالصة -من ناحية- ويشوشون عليها لتعكير صفائها من ناحية أخرى فوقع المسلمون قروناً ماضية فى هذا الخلط العجيب وهذا الانفصام النكد وبخاصة فى هذه الأيام التى تذبح فيها العقيدة على أيدى أبنائها الذين أُبعِدُوا كثيراً عن حقيقتها ومقتضياتها حتى رأينا من يردد كلمة التوحيد وهو لا يفهم لها معنى ولا يعرف لها مضموناً ولا يقف لها على مقتضي).[٢] ا.هـ.

---

(١) لقد ظل القرآن يربي الصحابة علي العقيدة الإسلامية لا في مكة وحدها بل في المدينة كذلك فقضية العقيدة لا تذكر لفترة من الزمن ثم تترك للحديث عن قضايا أخرى.

(٢) خواطر على طريق الدعوة: جراح وأفراح للشيخ محمد حسان ط. دار الخلفاء المنصورة ط. الأولى ١٤١٤هـ ص٤٩-٥٠ بتصرف يسير.

فإذا عرفت أهمية التوحيد، عرفت أهمية تعليم الناس أمور التوحيد وبيان قضاياه لهم، وإذا عرفت خطورة الشرك وعظم وزره عرفت أهمية تحذير الناس من مظاهر الشرك الظاهرة والباطنة، وتوضيح صوره للناس ليتجنبوها.(١)

وإذا عرفت هذا عرفت لماذا يهتم السلفيون بالدعوة إلى التوحيد والتحذير من الشرك، فهذه هى السمة الأولى المميزة للدعوة السلفية فى ساحات الدعوة أنها: (دعوة التوحيد) ودعوة (التحذير من الشرك).

وإذا عرفت هذا عرفت خطأ من لا يعطى هذا التوحيد حقه فى البيان والتوضيح من أصحاب جماعات الدعوة الأخري، بل قد ينطوى تحت دعوتها الكثيرون ممن يجهلون قضايا الشرك وصوره، وقد يتساهلون فى التعامل مع بعض الصور الخفية أو الظاهرة للشرك الأصغر أو الأكبر.

وإذا عرفت هذا عرفت خطأ الذين يصرفون العبادات لغير الله، من دعاء غير الله والاستغاثة به، وتعلق القلب بالأموات ممن يظن فيه الصلاح، والتوكل عليهم والتمسح بهم والتبرك بقبورهم وأضرحتهم والنذر لهم والتوسل بهم. . . إلخ.

ومما يزيد حاجة الناس إلى فهم التوحيد بأدلته من الكتاب والسنة وعلى ما كان عليه السلف الصالح، ما ألحقه علماء الكلام وأتباع الفلاسفة من استعمال اصطلاحات المتكلمين وطريقتهم فى الاستدلال، مما أبعد الناس عن الكتاب والسنة فى أخطر قضايا الدين، وأذهب عن العقول والقلوب تفاعلها مع وحى الله المنزل، وتأثرها به، مما يزيد إيمانها ويثبت عقيدتها. وما زال الناس جيلاً بعد جيل نتيجة تأثرهم بمنهج المتكلمين من الأشاعرة والمعتزلة وغيرهم يتصورون التوحيد أدلة عقلية ومصطلحات فلسفية واستدلالات كلامية لا يقدرون عليها فينصرفون عنها وعن التوحيد ومسائله.

---

(١) والعجب كل العجب تسمية هذه الشركيات بشذوذات عقائدية لا تستدعي تكفير صاحبها ترى ماذا يريدون تهوين خطرها على دين العباد أم تبرئة ساحة معتنقيها تزلفاً أم الغاية جمع الأمة على دين من عقائد شتى منها ما هو من الإسلام ومنها ما هو مخالف للإسلام موغل في الشرك والوثنية.

التوحيد والعقيدة عند السلفيين

التوحيد عند السلفيين يتضمن عدة قضايا هامة لا تقبل أن يأخذ ببعضها دون البعض. فترك واحدة منها بعد البلاغ والبيان يطعن فى الإيمان كله.(١)

وهذه القضايا من التوحيد والعقيدة تشمل :-(٢)

١- إفراد الله تعالى فى ربوبيته وأسمائه وصفاته.

٢- إفراد الله تعالى بالعبادة.

٣- إفراد الله تعالى بالحكم والتشريع.

٤- الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين والبراءة من الشرك والمشركين.

٥- الإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقضاء والقدر.

٦- قضية الإيمان والكفر.

٧- الاعتقاد فى الصحابة رضي الله عنهم وأهل البيت. ومسألة الإمامة والخلافة.

وتعد قضية التحاكم إلى شرع الله تعالى والتبرؤ من كل شرع سواه من أخطر القضايا العقائدية التى غابت عن عقول وقلوب المسلمين اليوم مع غياب المفهوم الشامل للتوحيد مع أن الخضوع لشرع الله تعالى وإثبات الحكم لله من خصائص الألوهية فكيف تستبدل شريعته عز وجل بقوانين البشر الوضعية.

لقد ظن كثير من السذج والبلهاء والمخدوعين أن شرع البشر من ملاحدة وزنادقة وعلمانيين وشيوعيين وديمقراطيين وغيرهم من تتحكم فيهم الأهواء وتسيطر عليهم الشبهات والشهوات، ظنوا أن تشريع هؤلاء هو قارب النجاة وسط هذه الرياح الهوجاء والأمواج العاتية والظلمات الحالكة التى يترنح الناس فيها كترنح من يتخبطه الشيطان من المس وخاب الجميع وخسروا!!.(٣)

---

(١) وبهذا الأصل يفترق السلفيون عن أصحاب الكثير من المناهج الإصلاحية المنسوبة للإسلام ولا تدخل هذه القضايا في حسبانها، ويفنون أعمارهم في قضايا فرعية عملية أو خلافات جزئية ويتناسون التوحيد الذي هو أصل الدين الأصيل والذي من أجله نزلت الشرائع وأرسلت الرسل.

(٢) راجع: (منة الرحمن في نصيحة الإخوان) لشيخنا ياسر برهامي حفظه الله.

(٣) جراح وأفراح: الشيخ محمد حسان ص٥٥.

قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[المائدة: ٥٠].

تفويض الأسماء والصفات ليس من توحيد السلف

يظن البعض ويزعم أن مذهب السلف تفويض معانى الأسماء والصفات أى إثبات ألفاظها كحروف من كلام أعجمي لا يفهم لها معني، وهذا الادعاء باطل من وجوه منها:-

١- أن إثبات الصفات وهو عقيدة السلف ينافى تماماً القول بتفويضها، إذ إن مضمون الإثبات إثبات ما فيها من معانى معروفة من اللغة العربية، على الوجه اللائق بجلال الله وكماله، ومعنى تفويض المعنى الجهل به وعدم معرفته، وعدم الأخذ بمعنى اللفظ كما يفهم من اللغة، فالإثبات ينافى تفويض المعني.[1]

٢- أن الأقوال الكثيرة والآثار العديدة المنقولة عن السلف الصالح فى إثبات الصفات تتضمن إثباتهم لمعانيها، وليس فيها تفويض معناها، مع التأكيد أنها ليست كصفات المخلوقين ولكنها على الوجه اللائق بكمال الله وجلاله.

أما ما قد ينقل عن البعض مما يوهم نفى المعنى فالمراد المعنى الذى مال إليه المتأولة والمعطلة ومن شابههم.[2] وإلا فما أحد ينسب إليه ذلك من السلف إلا وقد ثبت عنه أقوال متعددة فى إثبات المعنى على الوجه اللائق بكمال الله وجلاله.

قال العلامة محمد خليل هراس رحمه الله: عن التفويض: [ومن الخطأ القول بأن هذا هو مذهب السلف كما نسب ذلك إليهم المتأخرون من الأشاعرة وغيرهم، فإن السلف لم يكونوا يفوضون فى علم المعني، ولا كانوا يقرأون كلاماً لا يفهمون معناه، بل كانوا يفهمون معانى النصوص من الكتاب والسنة، ويثبتونها لله عز

(١) راجع: تحفة الإخوان في صفات الرحمن إعداد محمد بن محمد بن عبد العليم مراجعة رئاسة إدارات البحوث العلمية والدعوة والإرشاد بالسعودية.

(٢) أي نفي لمعني الذي ابتكره المعطلة من الجهمية وغيرهم وحرفوا به نصوص الكتاب والسنة عن ظاهرها إلي معان تخالفه.

راجع في ذلك: مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم: ص١٢٤ .

رسالة الإكليل لابن تيمية من الفتاوى الكبرى جـ٢ / ص٢٢-٢٣ . فتح رب البرية بتلخيص الحموية لابن عثيمين رحمه الله ص٦٣ .

وجل، ثم يفوضون فيما وراء ذلك من كنه الصفات أو كيفياتها، كما قال مالك حين سئل عن كيفية استوائه تعالى على العرش الاستواء معلوم والكيف مجهول}. ا.هـ.

وقال فى بيان مذهب السلف فى إثبات الصفات: «وقد يعبرون عن ذلك بقولهم تمر كما جاءت بلا تأويل، ومن لم يفهم كلامـهم ظن أن غرضهم بهذه العبارة هو قراءة اللفظ دون التعرض للمعنى وهذا باطل، فإن المراد بالتأويل المنفى هنا هو حقيقة المعنى وكنهه وكيفيته» ا.هـ.

قال الحافظ الذهبى رحمه الله: «المتأخرون من أهل النظر قالوا مقالة مولدة ما علمت أحداً سبقهم بها، قالوا: هذه الصفات تمر كما جاءت ولا تؤول مع اعتقاد أن ظاهرها غير مراد. فتفرع من هذا أن الظاهر يعنى به أمران:

أحدهما: أنه لاتأويل لها غير دلالة الخطاب كما قال السلف الصالح: الاستواء معلوم، وكما قال سفيان وغيره: قراءتها تفسيرها. يعني أنها بينة واضحة في اللغة لا يبتغي بها مضايق التأويل والتحريف. وهذا هو مذهب السلف مع اتفاقهم أيضاً أنها لا تشبه صفات المخلوقين بوجه.

الثاني: أن ظاهرها هو الذى يتشكل فى الخيال من الصفة كما يتشكل فى الذهن من وصف البشر فهذا غير مراد فإن الله تعالى فرد صمد ليس له نظير وإن تعددت صفاته فإنها حق. ولكن ما لها مثل ولا نظير. ا.هـ.[(١)]

قال صاحب المعارج: هذا التصور الفاسد هو الذى يحمل جهلة النفاة على ما صنعوا من النفى حين لم يفهموا من ظاهرها إلا ما يقوم بالمخلوق ولم يتدبروا من هو الموصوف فأساءوا الظن بالوحى ثم قاسوا وشبهوا بعد أن فكروا وقدروا ثم نفوا وعطلوا.[(٢)]

---

(١) معارج القبول للشيخ حافظ بن أحمد حكمي الجزء الأول ط. دار الفتح الإسلامي بالإسكندرية نقلاً عن الذهبي: ص٣٣١-٣٣٢ .

(٢) المصدر السابق: ص٣٣٢ .

ومن الخطأ الشنيع تحكيم العقل في أمور الإلهيات والغيبيات، فإن هذا الاجتهاد لا يقبل في العقيدة ولا يدندن به حولها إن مثل هذا الاجتهاد في العقيدة يسوق أصحابه كما هو مشاهد وواقع إلى الكفر الصراح والشطح البعيد.

حرمة عبادة غير الله باسم التوسل والتبرك والشفاعة

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥].

وقال تعالى: ﴿والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير إن تدعوهم لا يسمعوا دعائكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير﴾ [الأعراف: ١٩٧].

وقال تعالى: ﴿وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ۝ وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ [النجم: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

والآيات فى ذلك كثيرة.(١)

وقال ﷺ: «من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار». رواه البخاري.

وفى حديث ذات أنواط لما قال بعض الصحابة ممن أسلموا حديثاً بعد فتح مكة للنبي ﷺ: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط قال لهم ﷺ: «الله أكبر إنها السنن قلتم والذى نفسى بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسي: اجعل لنا إلهاً كما لهم ألهه قال إنكم قوم تجهلون». رواه الترمذى وصححه.

---

(١) يراجع في ذلك: فتح المجيد شرح كتاب التوحيد.
معارج القبول جـ١/٤٧٦-٥٠٥ كتاب الزيارة لابن تيمية والجواب الباهر في زوار المقابر له أيضاً تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد: للألباني رحمه الله، وكتاب (التوسل) له أيضاً.
ومعلوم أن مظاهر الشرك الصريحة تنشب في الأمة بسبب هذه المحرمات من صور التوسل غير المشروع وعبادة غير الله باسم التبرك والشفاعة والغلو في الصالحين وتصريف العبادات لهم.

حرمة اتخاذ القبور مساجد والغلو في الصالحين

عن أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». متفق عليه.

وقال صلى الله عليه وسلم فى مرضه الذى توفى فيه: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» متفق عليه.

وقال صلى الله عليه وسلم : «إلا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد. ألا فلا تتخذوا القبور مساجد إنى أنهاكم عن ذلك» رواه مسلم.

وعن أبى هريرة مرفوعاً: «اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد، لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». رواه أحمد بسند صحيح وعن ابن مسعود مرفوعاً: «إن من شرار الناس من تدركه الساعة وهم أحياء ومن يتخذ القبور مساجد». رواه أحمد وغيره. وهو حديث صحيح. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما كان مرض النبي صلى الله عليه وسلم تذاكر بعض نسائه كنيسة بأرض الحبشة يقال لها مارية -وقد كانت أم سلمة وأم حبيبة قد أتتا أرض الحبشة- فذكرتا من حسنها وتصاويرها قالت: فرفع النبي صلى الله عليه وسلم رأسه فقال: (أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ثم صوروا تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة). متفق عليه.

والدعوة السلفية تجعل كل هذا نصب عينها فتدعو الناس أولاً إلى هذه القضية الكلية (توحيد الله) ثم تبدأ بعد ذلك فى تفصيل فرعياتها وجزئياتها، فلا يزال الفرد الذى يسير فى الطريق السلفى يرقى كل يوم درجة من درجات سلم التوحيد ويضيف كل يوم مسألة من مسائله، فلا يمر عليه وقت يسير حتى يكون بحول الله وتوفيقه وحمده -موحداً خالصاً كل يوم فى زيادة من دينه.

وبهذا تفترق الدعوة السلفية عن كل ما عداها من دعوات الإصلاح الجزئية التى تنسب إلى الإسلام، وذلك أن هذه الدعوات تبدأ من جزئيات الدين كأن تحاول تصحيح الحكم والسياسة، وهذه جزئية من جزئيات الدين، وترى أن الوصول إلى تحقيق هذه الجزئية لا يكون إلا بتجميع الناس وعدم تنفيرهم حتى يساعدهم الناس فى الوصول إلى الحكم، ويرون أن تجميع الناس لا يتأتى لهم إلا بالسكوت عن

أخطائهم العقائدية وبذلك يندس فيهم المشركون، والذين يدعون غير الله ويندس فيهم أيضاً أهل الأهواء من طلاب الرياسات والزعامات، لأنهم يرون أن طريقهم موصل لذلك، ويسكتون عن كثير من البدع العقائدية والخرافات حتى لا ينفروا الناس من دعوتهم فى زعمهم، ويخترعون لهذا ما يسمونه (بمصلحة الدعوة) فيحلون كثيراً من المحرمات، ويحرمون كثيراً من الطاعات، وقد يكون هذا فى مصلحتهم كحزب يسعى إلى الحكم والرياسة، ولكنه حتماً ليس فى مصلحة الدعوة الإسلامية التى يقوم أساسها على التوحيد الكامل، وليس أساسها على الحكم، والرياسة فتصحيح الحكم والسياسة من الدين ولكنه ليس أصل الدين ومنطلقه، ولذلك نص الذين ينتهجون هذا النهج فى الدعوة (إصلاح الحكم والسياسة أولاً).

وشتان أن يكون هدف الدعوة هو التوحيد، وأن يكون هدف الدعوة هو الرياسة والزعامة فليس هذا بلباس الإسلام، والدعوة السلفية تسعى فيما تسعى إليه إلى إصلاح السياسة والحكم، ولكنها تنزل ذلك منزلته من أوامر الدين من حيث الأهمية والأولوية، وتسعي إليه بالقدر السليم الصحيح الذى يتناسب مع القائمين بالدعوة وجهودهم.

وكذلك الشأن فى كل دعوة اتخذت جزئية من جزئيات الإسلام مراداً ومنطلقاً وغاية لها كالدعوات إلى الإصلاح الاجتماعى من محاربة شرب الخمر والاختلاط وأندية الفسوق والفجور ونحو ذلك، وكذلك دعوات البر والإحسان والعطف على الفقراء واليتامي، هذه الجمعيات والدعوات مشكلتها أنها تتوقف عند جزئية من جزئيات الدين فلا تصل إلا إلى أقل القليل من النتائج، وقد يبقى أفرادها فى دوائر ضيقة من العلم والعمل، ثم يتفرقون ويتمزقون، بل قد يجتمع معهم أهل النيات الفاسدة ومحبى الظهور والمدح، وهذه الأمور من جزئيات الإسلام وإن كانت مطلوبة مرادة، إلا أنها يجب أن تبقى فى الإطار العام من دعوة الإسلام الشاملة العامة، وأن تكون أجزاء فى هيكل التوحيد وإخلاص الدين لله سبحانه وتعالي.

ولذلك كان المنطلق السلفى فى إخلاص الدين لله أولاً وتحقيق التوحيد، ثم إنزال جميع تكاليف الإسلام منازلها بعد ذلك من إصلاح الحكم والسياسة

والقضاء وإقامة الحدود وتطهير المجتمعات من الفساد، وتربية الرجال والنساء على الدين الحق من عبادات ومعاملات وأخلاق أقول: هذا المنطلق السلفى هو المنطلق الصحيح السليم، وهى دعوة الرسل، وعلى رأسهم محمد بن عبد الله ﷺ الذى دعا إلى التوحيد أولاً وأخيراً، ثم أنزل الأعمال منازلها حيث مناسباتها.(١)

على أننا نرى أن الدين قد كمل بعد حياة الرسول، ولا يجوز تعطيل فرضية من فرضياته، ولكن يقوم أهل الدعوة والجهاد من أوامر الدين بما يستطيعون وما يطيقون تحقيقاً لقوله تعالي: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[التغابن: ١٦]. ويجب أن يكون ذلك على نهج النبي ﷺ ووفق سنته، فيحقق التوحيد في أفراد الدعوة ثم يدعون إلي العمل الصالح والقيام بالدين كله فى جميع شئونهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والخلقية، وكل هذا فى إطار التوحيد الذى هو غاية العمل الإسلامى ومراده.

(١) فلسنا ندعو إلى توقف الدعوة إلى الخير والطاعة أو تحقير أى منها ولسنا نؤجل الفروض الشرعية من صلاة وزكاة وصوم وحج والتزام بالحلال وترك للحرام ودعوة وجهاد فى سبيل الله وإقامة ما يقدر عليه من عبودية الفرد وعبودية الأمة بل كل ما أمكن إقامته وجب إقامته فوراً وبدون توان ولكن فى نفس الوقت لا نهمل الأصل والأساس وهو الإيمان والتوحيد. وكتبه [ياسر برهامي].

(٢)

الحرص على تحقيق الوحدة الإسلامية المثمرة

الإخوة الإيمانية ومعالجة أسباب الفرقة

جعل الإسلام بين المسلمين رابطة قوية من الأخوة الإيمانية قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات: ١٠] وقال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه».

والحق أن الإسلام لم ينتشر إلا بهذه الأخوة العجيبة التى ربطت بين الصحابة رضي الله عليهم فى صدر الإسلام فلولا إيواء الأنصار لإخوانهم المهاجرين، وحب المهاجرين وعفتهم مع إخوانهم الأنصار لما كانت هذه الفتوح العظيمة وهذا الانتشار السريع للإسلام شرقاً وغرباً. ولذلك كان من أعظم البلاء على أمة الإسلام ما وقع بينهم من فرقة وخلاف وشقاق جعل السيف بينهم بعد أن كان علي أعدائهم.

ومن أهم أسباب التنازع والفرقة بين المسلمين: الاختلاف فى العقائد ومسائل الإيمان وقد بدأ الخلاف يسيراً فى مسائل قليلة كالحكم على مرتكب الكبيرة الذى مات ولم يتب منها أكافر هو أم مسلم؟ وهل يجب قتاله أم لا؟ وفى سبيل ذلك نشأت بدعة الخوارج ثم المعتزلة ثم بدأ الخلاف حول صفات الله سبحانه وتعالى وأسمائه، ثم توسع الخلاف العقائدى ليشمل مسائل كثيرة ويمزق المسلمين إلى نحل وعقائد شتي.

واختلاف العقائد بالطبع يؤدى إلى اختلاف القلوب والأعمال.

والدعاة السلفيون من الصدر الأول دعوا الناس إلى التمسك فى أمور العقائد بالكتاب والسنة، وترك التأويل بالباطل والهوى والتعصب، وكان لدعوتهم من البركة أن بقى جمهور المسلمين وعامتهم على سنن الحق متمسكين فى عقائدهم بالكتاب والسنة، والدعاة السلفيون فى هذا العصر السائرون على منهج السلف الأول فى دعوتهم وجهادهم يدعون الأمة كذلك إلى أخذ عقائدها من الكتاب والسنة فقط، ونبذ جميع البدع العقائدية والاجتهادات والتصورات الغيبية التى جاء بها المشعوذون والدجالون والمتكلمون على الله بلا علم. وذلك لجمع شمل الأمة على كلمة سواء فيكون إيمانهم واحداً. وبذلك تكون قلوبهم واحدة.

ولما كان الاجتماع على رأى واحد فى كل المسائل الفرعية العلمية متعذراً فإن الله سبحانه وتعالى أمر برد الاختلاف إلى كتابه وسنة رسوله، وقد أمر أيضاً بأن يعذر بعضنا بعضاً فيما لم نستطع التوصل فيه إلى رأى واحد، وكان هذا هو منهج الصدر الأول من سلف هذه الأمة من الصحابة ومن بعدهم يختلفون أحياناً، ولكن يعذر بعضهم بعضاً ولا يتعصبون لأقوالهم، ويردون ما اختلفوا فيه إلى الله ورسوله. وكان هذا أيضاً شأن أئمة الإسلام الأعلام وفقهاء الإسلام فى جميع الأقطار، ومن هؤلاء الأئمة الأربعة وغيرهم، يفتون ولا يتعصبون، ويدعون تلاميذهم إلى نبذ التعصب لأقوالهم وأخذ الحديث والحجة أينما وجد وترك آرائهم وأقوالهم إذا خالفت الدليل. ولذلك استمرت وحدة الأمة التشريعية الفقهية زماناً طويلاً.

ولكن نشأ فى المسلمين من حرم الاجتهاد والرجوع إلى الكتاب والسنة،[١] وحرم استخدام الدليل زعماً أن فهم الدليل والحجة قد ولي، وحرم على الناس العمل إلا بأقوال الأئمة الأربعة، انتشرت هذه البدعة[٢] المقيتة فى زمان ضعف الأمة.

وإلى اليوم ورغم التنادى من كل مكان بوجوب تنظيم معاملاتنا وفق الكتاب والسنة، فإن هناك من لا يزال يعيش بعقلية التقليد والجمود، ويأبى إلا أن يظل المسلمون فى فوضى تشريعية، ويزعم أن كل قول فى الدين يجوز الأخذ به، ومن يزعم أن الاجتهاد باطل، وأن الدين محصور فيما دونه الأئمة الأربعة فقط[٣] ومن يتهم الدعاة السلفيين بمعاداة الأئمة، بل ومن يوجب على المسلمين أن يتبع كل منهم إماماً من الأئمة الأربعة. وأن من أخذ بالدليل ورجع إلى الكتاب والسنة فهو مبطل مبتدع. أقول ما زال فى المسلمين من يعتقد هذا ويدعو الناس إلى ذلك.

ومعلوم يقيناً أن لكل إمام الرأى والرأيين فى المسألة الواحدة، كما نقول: قال الشافعى فى القديم وقال فى الجديد، بل والثلاثة والأربعة وأن كثيراً من المسائل الفقهية العملية فيها اختلاف واضح وإذا كان هناك اختلاف بين الفقهاء فى هذه

---

(١) نودى من بعد القرن الرابع الهجري بقفل باب الاجتهاد في الدين.

(٢) نودى بإلزام كل مسلم نفسه باتباع مذهب من المذاهب الأربعة لا يخرج عنه في كل أحكام الدين.

(٣) ولد الإمام أبو حنيفة عام ٨٠هـ وتوفي عام ١٥٠هـ(٦٦٩م-٧٦٧م) وولد الإمام مالك عام٩٣هـ وتوفي عام ١٧٩هـ (٧١٢م-٧٩٥م) ولد الإمام الشافعي عام١٥٠هـ وتوفي٢٠٤هـ (٧٦٧م-٨٢٠م) وولد الإمام أحمد عام١٦٤هـ وتوفي عام٢٤١هـ (٧٨٠م-٨٥٥م).

المسائل فكيف يكون العمل إن قلنا نختار قول إمام واحد كان هذا التعصب، وليس هذا الإمام الواحد معصوماً حتى نأخذ جميع أقواله فى جميع معاملاتنا.

وإن قلنا بجميع الأقوال كان هذا تناقضاً واختلافاً. فكيف يحكم القاضى فيمن تزوجت دون إذن وليها؟ فبعض المذاهب يجيز ذلك، ويرى العقد مع هذا صحيحاً، وآخرون يرون العقد مع عدم إذن الولى باطلاً يجب فسخ الزواج سواء قبل الدخول أو بعده. . . فما العمل؟.

وإن قلنا نرجح بين الأقوال: فكيف نرجح، إن كان بالهوى والتحكم فليس الهوى من الدين؟ وإن كان الترجيح بالدليل والحجة فهذه هى السلفية.

وهو الحق: الترجيح بين أقوال الأئمة المتعارضة، وأخذ أقربها إلى الحق فى نظرنا، والبحث عن الدليل دائماً، وهذا هو الميزان الضابط لوحدة الأمة فى أمورها التشريعية.

وهذا جانب من جوانب الدعوة السلفية. الدعوة إلى وحدة الأمة التشريعية فى أمورها العملية، وذلك بحب الأئمة الأربعة وغيرهم جميعاً، والنظر إليهم نظرة سواء، وأخذ الأقوال المؤيدة بالدليل، والتى نرى أنها الحق، وعدم التعصب لواحد منهم دون الآخر، مع الاعتراف بفضلهم وعلمهم وجهادهم والتتلمذ على كتبهم، ودراسة مناهجهم فى الفقه، وأخذ أقوالهم والعمل بها ما لم تخالف الدليل من كتاب أو سنة. وبهذا أمرونا هم ودعونا إلى ذلك.

وهذا هو المخرج الحقيقى من تمزق الأمة التشريعى وفرقتها العملية، ومعنى ذلك أنه لابد أن ينشأ فى الأمة العلماء المجتهدون العالمون الذين يستوعبون مرحلتهم الراهنة، ويفقهون أوضاع المسلمين الحاضرة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية والخلقية، ويوضحون للمسلمين فى هذه الأحوال ما وافق الكتاب والسنة، مسترشدين بعلم الأئمة الأعلام والفقهاء الكرام غير متعصبين لأحد منهم دون الآخر، وإنما يكون ولاؤهم للحق وتمسكهم بالدليل، فهم مع الحق لا مع الرجال، يعرفون الحق بدليله، ولا يعرفون الحق بقائله وهذا أبرز جوانب الدعوة السلفية وأكثرها وضوحاً ولمعاناً. أنهم طلاب حق يطلبونه بالدليل. ومع تقديرهم واحترامهم لأهل الفضل والعلم، فإنهم مع ذلك لا يقبلون أقوالهم إذا تحقق لديهم أنها تخالف الدليل.

ولما كان الحق واحداً لا يتعدد، وكان السلفيون طلاب حق لا عباد رجال لذلك حافظوا على وحدة الأمة، فالرجال المتبعون كثيرون، ولو كان كل رجل سيتبعه من الأمة جماعة، لتعددت الجماعات، وإذا كان الرجال يختلفون فمعنى هذا أن الجماعات ستختلف، وبذلك تتفرق الأمة وتتشتت.

وأما إذا كان الارتباط بالحق وللحق، وكان الرجال يقاسون بالحق، ولا يتعصب لأقوالهم، كان هناك جماعة ،واحدة هى جماعة الحق. وكان هناك رجال يحترمون وتؤخذ أقوالهم بقدر اتباعهم وأخذهم بالحق.

ولذلك فإننا نقول: الدعوة السلفية دعوة وحدة للأمة فى نظام عملي، مستند إلى الكتاب والسنة، يأخذ بأقوال الأئمة ولا يتعصب لرأى منهم، فهل على هذه الدعوة يا قوم من غبار؟.

إن السلفيين لا يرضون بالفرقة والاختلاف فى الأمة الإسلامية، لأنها عائق يعوقها عن العمل الجماعي. ويمنع التآلف بين أفرادها. . والفرقة وإن كانت واقعة قدراً فنحن مأمورون بالعمل على إزالتها وتفاديها شرعاً، فلا يبقى منها إلا ما تفرضه علينا أهواء وبدع المخالفين، إن التضامن الإسلامى ليس فقط تضامناً آلياً سببه الاشتراك فى الأرض واللغة والتاريخ، ولكنه تضامن عضوي، يقوم على عقيدة واحدة، وغاية واحدة، ومثل عليا واحدة، وقدوة واحدة هى النبي ﷺ .

إن الدعوة السلفية حينما تواجه المجتمعات الحالية بما فيها من أمراض ونقائص تدعو هذه المجتمعات إلى إصلاح ما فيها والمشاركة فى إزالة العوائق التى تحول بين هذه المجتمعات والتطبيق السليم للإسلام من خلال أداء واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

جماعات الدعوة هل هى من الفرق النارية

يتوهم البعض أن الدعوات المعاصرة الموجودة على الساحة من جملة الفرق النارية الضالة، وأن قول النبي ﷺ : (إن أهل الكتابين افترقوا فى دينهم على اثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة -يعنى الأهواء- كلها فى النار إلا واحدة وهى الجماعة). رواه أبو داود وصححه الألباني. وفى رواية الترمذي: «قالوا من هى يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي» ينطبق على هذه الدعوات، وهذا خطأ، فالدعوات المعاصرة متفاوتة فيما بينها قرباً وبعداً من مثل ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام ولذلك فلا يجوز التعميم.

وقد بين الشاطبى رحمه الله فى الاعتصام ضابط الحكم على تجمع معين أنه من الفرق الضالة فقال: «وذلك أن هذه الفرق إنما تعد فرقاً بخلافها للفرقة الناجية فى معنى كلى فى الدين، وقاعدة من قواعد الشريعة، لا فى جزئى من الجزئيات، إذ الجزئي والفرعى الشاذ لا ينشأ عنه مخالفة يقع بسببها التفرق شيعاً، وإنما ينشأ التفرق عند وقع المخالفة فى الأمور الكلية». إلى قوله: «ويجرى مجرى القاعدة الكلية كثرة الجزئيات، فإن المبتدع إذا أكثر من إنشاء الفروع المخترعة عاد ذلك على كثير من الشريعة بالمعارضة» الاعتصام جـ٢/ ٢٠٠». [(١)]

وعلى ذلك: فمن جماعات الدعوة والعمل فى الحقل الإسلامى من هم من أهل البدع والضلالة لكونهم على بدعة مخالفة للسنة ويدعون إليها، ومنهم من يجمع بين السنة والبدعة، ومنهم من ينتسب إلى أهل السنة والجماعة بحسب تمسكه بما عليه أهل السنة والجماعة.

هناك فارق بين أهل السنة وأهل القبلة، فليس كل من انتسب للقبلة يكون من أهل السنة، بل قد يكون من أهل البدع والأهواء كحالة الخوارج الذين لم يكفرهم علي رضي الله عنه ولا جمهور الصحابة.

وفى شرح الطحاوية ص٢٨٦ ونسمي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين ما داموا بما جاء به النبي ﷺ معترفين وله بكل ما قاله وأخبر مصدقين.

---

(١) نقلاً عن الضوابط الشرعية لتحقيق الأخوة الإيمانية والوحدة الإسلامية للشيخ سعيد عبد العظيم حفظه الله ط. دار الإيمان .الإسكندرية ص١٦٧

قال رسول الله ﷺ : «من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فهو المسلم، له ما لنا وعليه ما علينا».

وقال أيضاً: «ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله ولا نقول لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله».

فرد بذلك على الخوارج القائلين بالتكفير بكل ذنب، كما رد على المرجئة فإنهم يقولون: لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، فهؤلاء فى طرف، والخوارج فى طرف، وكلاهما على ضلالة خالفوا بها ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام.(١)

* وأهل السنة هم الطائفة الظاهرة المنصورة، وهم خير الناس للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويحافظون على الجماعة ويلتزمون الطاعة فى المعروف، ولاؤهم للحق وحده، يوالى بعضهم بعضاً ولاءاً عاماً، ويعذر بعضهم بعضاً، فالولاء والعداء عندهم على أساس الدين، ولا يمتحنون الناس بما ليس من عند الله.(٢) وهم ملتزمون بما كان عليه صحابة النبي ﷺ من أمور الاعتقاد والعبادة والمعاملة والأخلاق والسلوكيات.

وسبب الضلال والخروج عن أهل السنة والجماعة إما الجهل بالحق فيكون الحكم بالظن لا بالعلم، وإما الحكم بالهوي، فيكون الحكم بالظلم لا بالعدل.

وقد يدفع إلى الضلالة الغلو فى الدين، أو التعصب لشخص يحبه يوافق من وافقه ويعادى من يعاديه ويفرق بين جماعة المسلمين بذلك.

*** والخلافات بين المسلمين اليوم ترجع إلى ثلاثة أنواع:-**

١- فمنها ما يرجع إلى اختلاف التنوع، وهذا يجب استثماره، والتعاون عليه، ولا يصح أن نسعى لإلغاء هذا الاختلاف لأنه بالتكامل فيه يتم الواجب ويتحقق المقصود.

٢- ومنها ما يرجع إلى اختلاف التضاد السائغ، وهذا يجب احتماله وأن يسعنا كما وسع سلفنا الصالح، ولا يفسد الود والمحبة بيننا.

---

(١) المرجع السابق بتصرف: ص١٢٠-١٢١ .

(٢) المرجع السابق: ص١٢٢ .

ولكن يلزم ضبطه جيداً، والرجوع إلى أهل العلم عند الاختلاف.

٣- ومنها ما يرجع إلى اختلاف التضاد غير السائغ وهذا يجب علاجه بمحاربة ما خالف الكتاب والسنة من البدع والضلالات والأقوال الباطلة، والاجتماع على منهج أهل السنة والجماعة، والعمل على نشره بتفاصيله، وهذا يقتضى تحقيق هذا المنهج، وتحديده تحديداً مفصلاً فى قضايا العقيدة والعبادات والمعاملات والأخلاق والدعوة ومناهج التغيير... إلخ مع الالتزام فى ذلك بطريقة السلف الصالح ومنهجهم.

وهذه هى الوسيلة المثلى لتقارب الصفوف واجتماع الكلمة.(١)

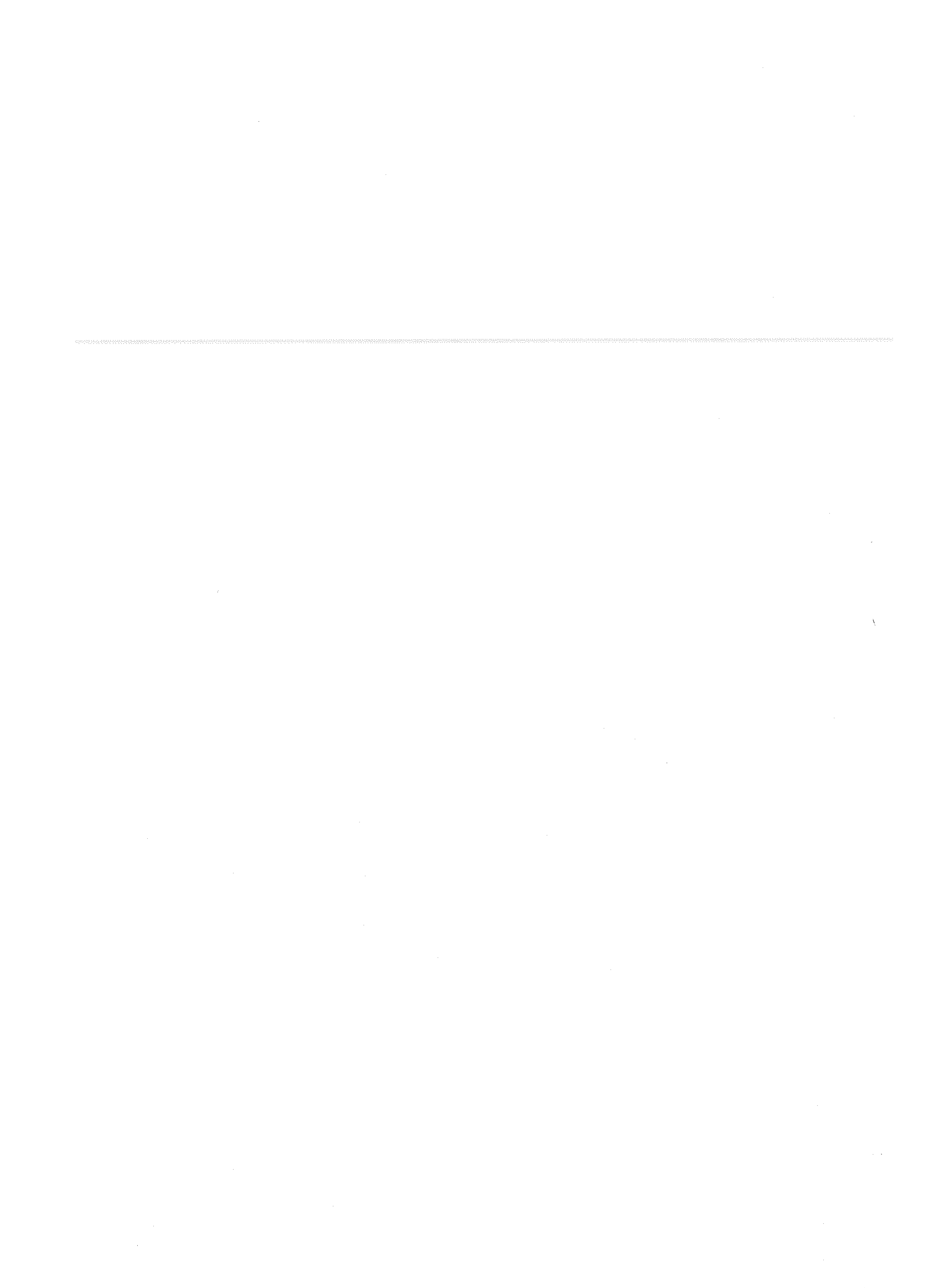
وهذا كله يحتاج إلى جهد كبير، مع التجرد والإخلاص والعمل المستمر.

وقد دلت الأحاديث المرفوعة والآثار عن الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان على أن السبل التى نهى الله عن اتباعها هى البدع والشبهات والشهوات المحرمة والمذاهب والنحل المنحرفة عن الحق وسائر الأديان الباطلة.

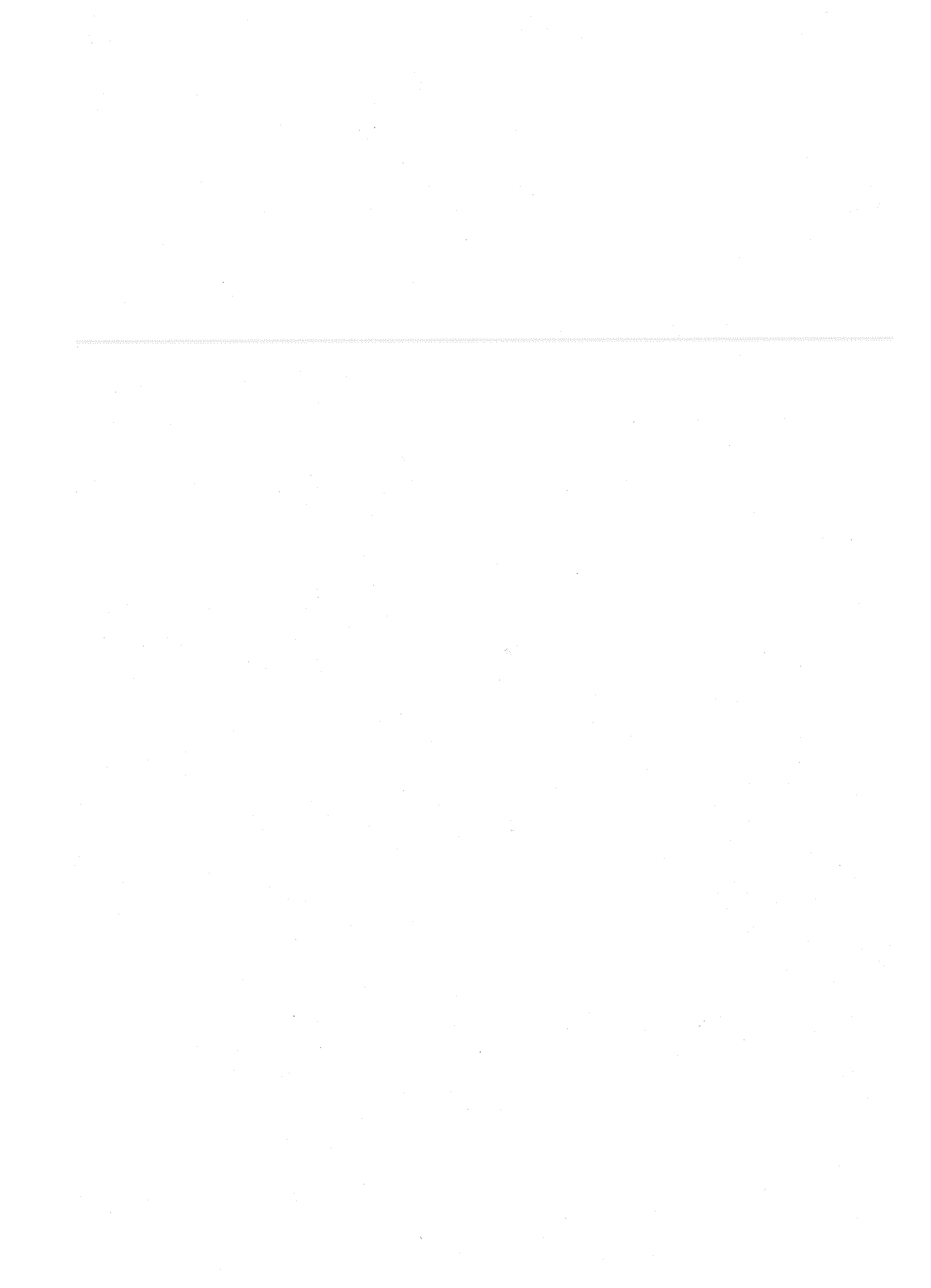
عن عبد الله بن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم خط خطاً بيده ثم قال: (هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه). ثم قرأ: **﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾**[الأنعام: ١٥٣](٢). فالاعتصام بالكتاب والسنة هو سبيل النجاة، والعاصم من الخلاف والفرقة، وهو أيضاً سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها هلك (فماذا بعد الحق إلا الضلال). والحق واحد، وهو أبلج وعليه نور، والباطل كثير متشعب وهو لجلج عليه ظلمة، فاعرف الحق تعرف أهله، واعرف الباطل تعرف من أتاه، وخذ الحق من كل من أتاك به، ورد الباطل على صاحبه كائناً من كان، واسلك طريق الهدى ولا يضرك قلة السالكين، وإياك وطرق الضلالة، ولا تغتر بكثرة الهالكين.(٣)

---

(١) راجع في ذلك (الضوابط الشرعية) للشيخ سعيد عبد العظيم حفظه الله ص١٩٥-١٩٦ .
(٢) رواه الإمام أحمد والنسائي بإسناد صحيح.
(٣) المرجع السابق: ص١٤ .



(٣)
الشمولية
فى
الدعوة



رفض النظرة الجزئية للدين

لقد أثرت النظرات الجزئية التى اصطنعها المسلمون فى العصور المتأخرة فى نقص الفهم الصحيح للإسلام وعدم كمال العمل به.

لقد عرف الأوائل النظرة الصحيحة الشاملة لكل جوانب الإسلام المتعددة وكونوا منها فى صدر الإسلام وحدة متماسكة مترابطة لا تنفصل. ثم جاء المتأخرون فعزلوا بعض جوانب الدين عن بعض.

فالجانب الاعتقادى تولاه المتكلمون.

والمعاملات والعبادات تولاها الفقهاء.

والأخلاقيات والسلوكيات تولاها المتصوفون.

وغالت كل فئة فى الجانب الذى تصورته، وانعزل كل فريق بالجانب الذى اعتنى بدراسته، فضاع العمل بالإسلام ككل، وضاع بذلك الارتباط الحيوى والتأثير المتبادل بين جوانب الإسلام المتعددة. مما أدى إلى تشتيت العقلية والنفسية المسلمة.

ومع جنوح كل طائفة إلى الغلو فى منهجها فى الجانب الذى تعاملت معه انحرفت بفهمها عن الفهم الصحيح للإسلام فى الجانب الذى تمسكت به.

والمحصلة النهائية كانت الجهل بالإسلام الحقيقى والفهم الخاطئ لجوانبه. وكذلك الشأن فى جماعات الدعوة، إذ إن كل جماعة تبنت جزئية من الإسلام، أو مجموعة أجزاء منه، لتكون منطلقاً وغاية لها، على حساب إهمال جزئيات أخر.

فبعض الدعوات اتخذت جانب الإصلاح الاجتماعى بمحاربة مظاهر الفُسق والفجور والفحش وسوء الأخلاق ونحو ذلك.

وهناك دعوات للبر والإحسان والعطف على الفقراء والمساكين ورعاية اليتامى والأرامل.

وهناك جماعات اتخذت الجانب السياسى وشئون الحكم لإصلاح ما فسد من أحوال الحكام والحكومات.

وهناك دعوات اتخـذت طابع تهذيب النفس وتطهيرها بمحـاربة مظاهر الحرص على الدنيا والعمل لها والانشغال بها فآثرت الزهد والعزلة.

وكل دعوة تقف عند جزئية من الجزئيات تغالى فيها، ويبقى أفرادها فى دوائر ضيقة من العلم والعمل، وربما خالطهم أهل أهواء ونيات فاسدة من محبى الظهور والمدح.

والمحصلة: البـعد عن الإطار العام من دعـوة الإسلام الشاملة. وشتـان ما بين حال هؤلاء وحال السلف الأول من الصحابة رضي الله عنهم فى فهمهم للإسلام والعمل به، فقد كان فهمهم فهماً عميقاً شاملاً:

ولهذا فالحاجة ملحة فى هذا الزمان إلى عرض الإسلام والدعوة إليه والعمل به فى صورة مبـرأة من الشوائب والتشويه، صـورة شاملة تستوعب جـميع الجوانب والأجزاء، مع حفظها مترابطة، وحفظ نسبهـا ومواقعها إلى بعضها البعض، وهذه الصورة ليست جديدة ولا مبتدعة، ولكنها صورة قديمة، وردت فى القرآن الكريم.

قال تعالي: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[الحج: ٧٧]. فعبادة اللـه فيها الركوع والسجود، والعـبادة من فعل الخير، ولكن ورود الأمـر بالعام بعد الأمر بالخاص فـيه تنبيه على فـعل كل خير، وإتيان كل عبادة، بجوار الركوع والسجود. أى العمل بكل أعمال الإسلام.

وقال تعالي: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً**﴾[البقرة: ٢٠٨].

قال ابن عباس وغيره: ﴿**ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ**﴾ يعنى الإسلام ﴿**كَافَّةً**﴾ يعنى جميعاً. وقال مجاهد: أى اعملوا بجميع الأعمال ووجوه البر.

فهذا أمر من الله تعالى لأهل الإيمان بالعمل بالإسلام كله.

قال ابن كثيـر رحمه الله: «يقول تعالى آمراً عبـاده المؤمنين به المصدقين برسوله أن يأخذوا بجمـيع عرى الإسلام وشرائعـه، والعمل بجميع أوامـره، وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك». ا.هـ.

قال الآلوسى رحـمه الله: «والمعني: ادخلوا فى الإسلام بكليـتكم، ولا تدعوا شيئاً من ظاهركم وباطنكم إلا والإسلام يستوعبه، بحيث لا يبقى مكان لغيره».

وقال أيضاً: «وقيل: الخطاب للمسلمين الخلص، والمراد من (السلم): شعب الإسلام، و(كافة): حال منه، والمعني: (ادخلوا) أيها المسلمون والمؤمنون بمحمد ﷺ فى شعب الإيمان كلها، ولا تخلوا بشيء من أحكامه» ا.هـ.

قال المودودى رحمه الله فى (تذكرة دعاة الإسلام) فى تفسير الآية:-

«أى بمجموع حياتكم، بحيث لا يشذ عن سلطانه شيء ولا يند عن دائرة نفوذه جزء من أجزائها، فلا يكن من شأنكم فى ناحية من نواحى حياتكم أن تتجردوا من عبوديته الشاملة فتحسبوا أنفسكم أحراراً فى شؤونكم تختارون من المناهج والأوضاع ما تريدون أو تتبعون من النظم والقوانين الوضعية المستحدثة ما تحبون». اهـ.

والشمولية ليست كلمة تقال، ولا ادعاء يزعم، ولكنها حقيقة واقعة تظهر عند التطبيق والأداء، فكم من جماعة تدعى الشمولية، وأعمالها تخالف هذا الادعاء، بما تقوم به من أعمال تنافى الشمولية فى الإسلام.

ومما ينافى الشمولية فى الإسلام

*** تقسيم الدين إلى قشور ولباب:-**

وهذا تقسيم مبتدع محدث فى فهم الكتاب والسنة والعمل بهما، لا يعرف عن سلفنا الصالح، لاقاله أحد، ولا عمل به أحد. وبمقتضى هذا التقسيم المبتدع تكون هناك أعمالٌ من الدين هى من لبابه فينبغى الاعتناء بها والقيام بأدائها، وأعمال هى من القشور لا تعطى هذه الأهمية وهذا الاعتناء، فيفرق بين هذا وذاك، ويهتم بهذا دون ذاك.

أما المقياس فى ذلك والذى به تقسم أعمال الدين بين قشور ولباب فهو مقياس متغير ليس بثابت، وإن شئت قلت: هو بالأهواء والميل، فقد تعد الواجبات الدينية لباباً، وسنن النبي ﷺ القولية والعملية هى القشور!![1] وقد يفرق بين الواجبات الدينية نفسها فيقدم بعضها على أنه اللباب ويقدم الآخر بصفته قشور!!.

---

(١) ومعلوم أن أداء المندوبات وترك المكروهات تشغل جزءاً كبيراً من أحكام الدين، في العبادات والمعاملات والأخلاق والسلوكيات ولا يكمل إيمان العبد إلا بامتثالها.

بل وقد يمتد التقسيم إلى قضايا التوحيد فيهمل بعضها ويترك، فلا إلحاح فى العمل به، ولا دعوة إليه، إذا لم يقبل عليه الناس اعتقاداً وعملاً، أو خالفوه عباده وأفعالاً، فيصير التهاون فى شأنه مطلوباً لتأليف القلوب (مثلاً) ولمنع (صدم مشاعرهم) بذلك الآن، ولمنع (التنافر) و(الاختلاف) بسببها، فتجعل قشوراً، وجمع الناس على ما اعتادوه وأحبوه وألفوه لباباً.

ومثل ذلك مع الكثير من البدع، فيهمل شأنها، تارة بأن الائتلاف فى وجودها خير من الاختلاف فى التحذير منها، أو أن هناك بدعاً إضافية وأخرى حقيقية وبدعاً جزئية وبدعاً كلية، فالأولى تعد قشوراً يمكن إهمالها والثانية لباباً يمكن الخوض فيها على وجه النصح والإرشاد!!.

وكثير من الجهال يتمسحون بهذه البدعة (بدعة التقسيم) لترويج العمل بالمعاصى لدى المستهترين، فلا يهتمون ببعض أعمال الدين وبعض شرائعه الظاهرة التى يسمونها (شكليات) أو (قشوراً) ويدندنون فقط حول العمل والتمسك (باللباب)، ومن ثم إهمال الظاهر احتجاجاً بصلاح الباطن. ولسان حالهم أنهم (يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض)!!

ومن هذا القبيل: تقسيم الدين إلى أصول وفروع،[1] ثم التسامح فى الفروع، بدعوى الاكتفاء بالاتفاق على الأصول، لذا يتساهلون فى كل قضية يرونها (فرعية) بزعم الحرص على جمع الأمة ومنع وقوع التفرق فيها!!!.

وفى ثنايا ذلك كله تجد الكثير منهم يتبعون الرخص دون تحري، ويأخذون بزلات العلماء وأقوالهم المرجوحة،[2] بدعوى (من قلد عالماً خرج سالماً).

وأخطر ما فى هذا التساهل أن ينسحب بلا قيد على كثير من أحكام الشريعة التى لا توافق الأهواء، بحيث لا يبقى بعد ذلك مجال للدعوة إلى اجتناب المحارم

(١) تقسيم الدين إلي أصول وفروع ليس من فعل السلف أيضاً، ولكن من قال بذلك من العلماء أرادوا التفريق النظري بين مسائل الأصول في العقيدة والتوحيد وبين مسائل الفروع في العبادات والمعاملات. والأخلاقيات والسلوكيات انظر التعليق السابق في التقسيم الشرعي والاصطلاحي.

(٢) وقد تسبب تقسيم الدين إلى قشور ولباب إلى ترك تحري الحق في مسائل الخلاف بين العلماء ومنها مسائل اختلفوا فيها هل هي حرام ام حلال. فجاء هؤلاء وتركوها بالكلية حفاظاً على الوقت والجهد أن يضيع في معرفة حكم الله!! وتيسيراً على الناس!!! ولأنها أولاً وأخيراً من القشور!!.

وتعظيم الشعائر، وتصبح الشريعة ألعوبة فى يد المنحرفين عن أحكامها، يعظم أحدهم ما يهمله الآخر بل أخطر من ذلك انتقال هذا التساهل إلى أصول الدين ومسائل العقيدة والتوحيد.

إن قسمة الدين إلى قشر ولب تؤثر فى قلوب العوام أسوأ تأثير، وتورثهم الاستخفاف بالأحكام الظاهرة، وينتج عنها الإخلال بهذه الأمور التى سميت قشوراً، فلا يلتفتون إليها، ولا يبالون بمخالفتها وترك العمل بها.[(١)]

ولا يخفى أن الله سبحانه أنزل دينه على نبيه ﷺ ليبنى به الإنسان المسلم، فيكون به سعيداً فى الدنيا والآخرة، ولا يخفى على ذى عقل أن كل أمر ونهى من أوامر هذا الدين ونواهيه تسهم إسهاماً فعالاً فى بناء هذا الإنسان، سواءاً أكانت من المندوبات أم من الواجبات، وسواءاً أكانت من المكروهات أم من المحرمات، لأن جميع هذه الأحكام هى شعب الإيمان التى قال فيها ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[(٢)] فأيما شعبة نقصت منها كانت نقصاً من الإيمان، وأيما شعبة التزمها المسلم كانت زيادة فى إيمانه، لأن الإيمان يزيد وينقص بالقول والعمل، وهو مذهب السواد الأعظم من الأمة.

فإن قيل: واقعنا المعاصر والفتن والمصائب النازلة بالمسلمين، والمؤامرات والهجمات التى توجه إليهم، توجب علينا تقديم وحدة الصف المسلم، وجمع كلمة المسلمين على النظر فى خلافات العلماء فى مسائل الفروع، وشغل الناس بشكليات ومظاهر. فالواجب الآن التركيز على مسائل الدين المجمع عليها وأصوله المتفق عليها وترك ما سواها، خاصة وأن مسائل الخلاف فى الفرعيات قديمة، وأقوال العلماء فيها متضاربة، وترجيح أحدها ليس بالسهل ويستهلك أوقاتاً أولي أن تصرف الآن في حماية الإسلام من الزوال، والمسلمين من الاستئصال بل إن هذا الخلاف فى الشريعة رحمة، وتوسعة فيأخذ كل إنسان منها ما يناسبه دون أن ينكر أحد على أحد، ولسنا جميعاً علماءً، فلا عيب علينا ولا انتقاص إن اتبعنا أقوال غيرنا من أهل العلم وأئمة الدين.

---

(١) راجع في ذلك: أدلة تحريم حلق اللحية للشيخ محمد بن إسماعيل ص١٠٩ ورسالة تبصير أولي الألباب ببدعة تقسيم الدين إلي قشر ولباب ط. دار الفرقان -القاهرة- الطبعة السابعة ١٤٠٥ هـ.

(٢) رواه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة.

إن مشاكل المسلمين اليوم والخطر الذى يحدق بـهم يفرض علينا أن تتجه هممنا إلى مواجهتها وإعطائها الأولوية، ولا ينبغى تضييع الوقت فى الدعوة إلى شكليات وفرعيات.

والجـواب:-

يقول الشيخ محمد بن إسماعيل حفظه الله:-(١)

إن ترك الواجب الشرعى مخافة الفتنة الظنية هو فى حد ذاته فتنة ﴿**وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا**﴾[التوبة: ٤٩].

ولا تكون الفتنة حادثة بسبب التناصح بين المؤمنين بالتى هى أحسن وإنما تحدث من الجدل والعناد مع وضوح الحق وبيان الحجة.

إن ما ذكرتموه من اضطهاد المسلمين وضعفهم وتآمر أعدائهم.. إلخ كل هذا حق، ولكنكم أوتيتم من خلطكم الأمور، فكلامكم قد يكون حقاً إذا سلمنا لكم أن التمسك بالفرعيات يتعارض مع مواجهة تآمر الأعداء وجهادهم، والحق أنه لا يلزم التعارض بينهما، إذ إن بيان الحق فى الأمور الفرعية لا يتعارض مع جهاد الأعداء إذ كان الهدف هو حقاً بيان الحق مع البعد عن الجدل العقيم.

وقد واجه الرعيل الأول أخطاراً تهدد كيانهم، ولم يحملهم ذلك على ترك الفرعيات وتقرير الحق فيها وإلزام أنفسهم باللازم منها،(٢) ومع ذلك سادوا الأمم، وأسقطوا عروش الكفرة وأقاموا صرح الإيمان شامخاً. والذى يفت فى عضد المسلمين هو من يجادل فى الحق بعد ما تبين،(٣) ويصر على عدم الانقياد له، ويثير الجدال بشبهات سقيمة، وليس من يدعوهم إلى التمسك بالكتاب والسنة،

(١) انظر رسالة (تبصير أولي الألباب ببدعة تقسيم الدين إلي قشر ولباب) من كتاب (أدلة تحريم حلق اللحية) للشيخ محمد بن إسماعيل ط. دار الفرقان ط. السابعة: ص١٠٩-١٣٢.

(٢) واجه الرعيل الأول خطر المرتدين ومدعي النبوة، ثم قتال فارس والروم، ومع ذلك لم يتوانوا عن نشر العلم والسنة، ولم يتبرموا من النظر في المسائل العلمية وعرض الآراء والنصح والإرشاد في مسائل الخلاف المعتبر، والإنكار على المخالف في مسائل الخلاف الغير معتبر. فينبغي السير على ما كانوا عليه والتأسي بهم إذ إن ذلك فيه ظهور الإسلام ولا يعارض -كما ترى- الجهاد في سبيل الله والتصدي لمؤامرات أعداء الإسلام.

(٣) بمخالفة ما ثبت دليله من الكتاب والسنة.

وإذا كان الكفار مخاطبين بفروع الشريعة على الأرجح(*) فكيف بالمسلمين الذين قال الله تعالى في حقهم: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[النور: ٥١] وقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾[البقرة: ٢٠٨]، دون تفريق بين فروع وأصول وبين ظاهر وباطن وبين قشر ولب. وربنا جل وعلا قد أمر المؤمنين بالقيام بما شرعه من دينه -ولو كان من القضايا العلمية التي يسمونها فروعاً- في أشد أوقات الكفاح وهو وقت الالتحام المسلح مع الأعداء، في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾[النساء: ١٠٢].

وما يتوهمه هؤلاء المخالفون ما هو إلا نتيجة لتخيلهم أن النسبة بين (مواجهة الأعداء والانتصار عليهم) وبين (تعلم المسائل الفرعية والتمسك بها وإن دقت) إنما هي تباين المقابلة، كتباين النقيضين: كالعدم والوجود، والنفي والإثبات، أو تباين الضدين: كالسواد والبياض، والحركة والسكون، أو تباين المتضائفين (كالأبوة والبنوة)، والفوق والتحت، أو العدم والملكة كالبصر والعمي.

فإن الوجود والعدم لا يجتمعان في شيء واحد في وقت واحد من جهة واحدة، كذلك الحركة والسكون مثلاً، وكذلك الأبوة والبنوة، فكل ذات ثبت لها الأبوة لذات استحالت عليها البنوة لها، بحيث يكون شخص أباً وابناً لشخص واحد، كاستحالة اجتماع السواد والبياض في نقطة بسيطة أو الحركة والسكون في جِرْم، وكذلك البصر والعمى لا يجتمعان.

فتخيل هؤلاء أن مواجهة الأعداء والتمسك بالفروع متباينان تباين مقابلة بحيث يستحيل اجتماعهما، فكان من نتائج ذلك هذه المعارضة المتهافتة. والتحقيق أن النسبة بين الأمرين بالنظر إلى العقل وحده، وقطع النظر عن النصوص النقلية إنما هي تباين المخالفة.

(*) من أدلة هذا الترجيح: قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ وقوله سبحانه وتعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾. ومنها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ الآية. لأن الآية في مضاعفة العذاب في حق من جمع بين المحظورات المذكورة.

وضابط المتباينين تباين المخالفة أن تكون حقيقة كل منهما فى حد ذاتها تباين حقيقة الآخر ولكنهما يمكن اجتماعهما عقلاً فى ذات أخري: كالبياض والبرودة، والكلام والقعود، والسواد والحلاوة.

فحقيقة البياض فى حد ذاتها تباين حقيقة البرودة، ولكن البياض والبرودة يمكن اجتماعهما فى ذات واحدة كالثلج، وكذلك الكلام والقعود، فإن حقيقة الكلام تباين حقيقة القعود، مع إمكان أن يكون الشخص الواحد قاعداً متكلماً فى وقت واحد.

وهكذا فالنسبة بين (جهاد الأعداء ومواجهة تآمرهم) وبين (الدعوة إلى الفروع والتمسك بها وتعليمها للناس) من هذا القبيل، فكما أن الجرم الأبيض يجوز أن يكون بارداً كالثلج، والإنسان القاعد يجوز عقلاً أن يكون متكلماً، والتمرة السوداء يجوز عقلاً أن يكون مذاقها حلواً، فكذلك المتمسك بالفروع يجوز عقلاً أن يواجه أعداءه ويجاهدهم، إذاً لا مانع فى حكم العقل من كون المحافظ على أوامر الله واجتناب مناهيه مشتغلاً بجهاد أعدائه بكل ما فى طاقته كما لا يخفي،(١) وكما عرفه التاريخ لنبينا ﷺ وأصحابه ومن تبعهم بإحسان.

أما بالنظر إلى أدلة الكتاب والسنة كقوله تعالى: ﴿**وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ**﴾[الحج: ٤٠] وقوله عز وجل: ﴿**إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ**﴾[محمد: ٧] وغير ذلك من النصوص. فإن النسبة بين التمسك بالشعائر الإسلامية وبين تنزيل النصر من الله جل وعلا كالنسبة بين الملزوم ولازمه، لأن التمسك بالدين هو ملزوم النصرة بمعنى أن يلزم عليه الانتصار كما صرحت الآيات وهؤلاء المخالفون أظهروا للناس أن الربط بين الملزوم ولازمه كالتنافى الذى بين النقيضين والضدين، وهؤلاء بدورهم أذعنوا لهم لسذاجتهم وجهلهم، وأنتج ذلك نفرة فى قلوبهم بمجرد سماع من يتكلم فى الفروع إيهاماً له بأنه يبطل بذلك الجهاد. هذا وإن من البديهى أن فاقد الشيء لا يعطيه «ولا يستقيم الظل والعود أعوج».

والدولة المسلمة لن تقوم إلا على أكتاف أولى العزم الذين يلتزمون بكافة أحكام الشرع، ويوافقونها فى ظاهرهم وباطنهم لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾[الرعد: ١١].

---

(١) بل هذا أرجى -لما فيه من تقوى الله- لتأييد الله ونصره، وهزيمة الأعداء.

والدولة المسلمة ما هى إلا ثمرة لتمسك جنود الإسلام بكل شرائع دينهم، والدعوة الإسلامية الأمينة على الإسلام لا تساوم على شيء من أحكامه ولكنها تحفظها كلها أداءً للأمانة وإعذاراً لنفسها أمام الله تبارك وتعالى.

ولا شك أن إنكار المنكرات المتعلقة بالنفس -مع فقدان المانع من تغييرها- من أيسر الأمور، فإذا تساهلنا فى هذا مختارين فكيف ننكر على غيرنا؟ وقد أخبرنا الله عز وجل أن مصدر الخيرية لهذه الأمة هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. قال تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾[آل عمران: ١١٠]، وأخبر أن من أسباب ضعف المجتمع ترك التناهى عن المنكرات والأمر بالمعروف فقال تعالى: ﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾[المائدة: ٧٨-٧٩]. وتوعدنا رسول الله ﷺ أن يصيبنا ما أصابهم إذا فعلنا مثل فعلهم، وقد عاقب الله من ضيع حظاً من شريعته فى قوله تعالى: ﴿**فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾[المائدة: ١٤] ودلنا رسول الله ﷺ على المخرج من فتنة الافتراق. بقوله: «فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار».

فالمسلمون إذا نزلت بهم مخمصة وشدة فإن من أسباب جلاء الغمة عنهم المزيد من التمسك بالسنن والبراءة من البدع وليس مهادنة أهل البدع وتثبيط الدعاة إلى السنن.[1]

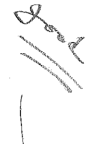
(١) أدلة تحريم حلق اللحية: ص ١٢٤-١٢٨ للشيخ محمد بن إسماعيل.

قياس فاسد

ومن أقيستهم العقلية الفاسدة التى يلبسون بها على العوام قولهم: إنما مثل من يتكلم فى هذه الفرعيات والأعداء محدقون بنا كمثل رجل قائم على الشاطئ، وشخص يعالج الأمواج يوشك أن يغرق وقد لبس خاتماً من ذهب، فيهتف الأول بالثانى منكراً عليه لبس خاتم الذهب غير مبال بالخطر المحدق به والذى يودى بحياته.

وجواب هذا أن يقال:

أنتم تقيسون فرعاً على أصل ليس بينهما أى تماثل، والأصل المقيس عليه حالة ضرورة فلا شك يقدم دفع الضرر الأكبر الذى هو تلف النفس على المنكر الأصغر الذى هو لبس الرجل خاتماً من ذهب، فكذا إذا دهمنا الأعداء ننفر جميعاً لمواجهتهم دون التفات إلى خلافات فرعية انشغالاً بالمنكر الأكبر. أما الفرع المقيس وهو وضع مجتمعاتنا فى هذا الزمان فلا شك أنه فى بلادنا -على الأقل- دون حالة الضرورة التى فيها تتلف الأنفس والأديان ويهلك الحرث والنسل، وينفر المسلمون نفيراً عاماً بما فيهم الشيوخ والنساء. . . . «وقد يستنكر هذا الكلام لأول وهلة، أو يساء الظن بقائله، ولكنى آتى بالدليل عليه من واقع حياة المعترضين أنفسهم فأقول: هل واقع حياتكم مثل واقع رجل يلقى بنفسه فى المخاضة ولا يلوى على شيء لينقذ غريقاً يصارع الأمواج ويوشك على الغرق؟ وهل هو واقع قوم أتاهم النذير ونودى فيهم بالنفير العام؟ لماذا إذن تحيون حياة رتيبة تتمتعون فيها بالحاجيات بل الكماليات والتحسينات، تطعمون الفواكه، وتتنعمون فى الفرش، وتتنزهون فى المتنزهات، وكل هذا لا ينكر عليكم ولا تستنكرونه من غيركم قائلين: «إن الإسلام مهدد فى وجوده، والمسلمين مضطهدون، وأنتم تأكلون الفواكه وتتنعمون بالفرش وتتنزهون فى المتنزهات». فلماذا إذن تضعون العوائق فى طريق السنة، وتضربون لها الأمثال، وترهقون عقولكم فى استخراج أمثال هذه الأقيسة العقلية الفاسدة، أفكانت سنة رسول الله ﷺ أهون عليكم من هذه التفاهات الدنيوية؟. أفلا يردعكم عن هذا التثبيط قول أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه «دعوا السنة تمضي، لا تعرضوا لها بالرأي».



ولا قول سفيان: «استوصوا بأهل السنة خيرا فإنهم غرباء». ولماذا لا تصرفون جهدكم إلى محاربة المعاندين للسنة المجادلين بغير الحق عن البدع؟.

لقد ضرب لنا رسول الله ﷺ مثلاً هو أصدق من قياساتكم الفاسدة حين قال: «مثل القائم على حدود الله والمدهن فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة فى البحر فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقال الذين فى أعلاها: لا ندعكم تصعدون فتؤذوننا، فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا، هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً»[(١)]. فالسكوت على المنكرات سواء فى فروع أو أصول، ظاهر أو باطن، سبب من أسباب نزول العقوبات العامة وعموم الفتنة والعذاب.[(٢)]

وقد يقال: إنما الأعمال بالنيات، والعبرة بصلاح القلب، فإن صلح صلح الجسد كله، وإن فسد فسد الجسد كله، فما دام القلب نيته سليمة، فلا يضر مع ذلك إغفال الظواهر وإهمال الشكليات، ومع إتيان الواجبات والأركان فلا بأس فى ترك السنن والمندوبات.

والجواب:

أن العمل الصالح المقبول له شرطان:

* **أحدهما**: ما ذكرتم من صلاح النية والقلب، فلا يكون العمل رياءاً ولا نفاقاً، ولا يكون فى القلب إرادة غير الله، والتوجه لسواه. فإن سلم العمل من سوء النية وفساد القلب وكان العبد فيه مخلصاً لله قاصداً به وجهه الكريم وحده، فقد تحقق الشرط الأول من شروط قبول العمل.

* **والشرط الثاني**: موافقة العمل نفسه لشرع الله تبارك وتعالي. فيكون مطابقاً لهديه ﷺ وإلا كان ابتداعاً فى الدين، وتقرباً لله بما لم يتقرب به إليه النبي ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري وأحمد والترمذي من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) المرجع السابق: ص١٢٨-١٢٩ .

وفى الحديث قال ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد».

فالشرط الأول: إصلاح للباطن بإصلاح النية وسلامة القلب.

والشرط الثاني: إصلاح للظاهر بموافقة الشرع والسير على أحكامه.

وهذان الشرطان لازمان لصحة العمل وقبوله مهما كان هذا العمل.

فلا فرق بين عقيدة وعبادة، ومعاملة وسلوك، واجب ومندوب، أقوال أو أفعال.

وقد جمع الله تعالى ذكر هذين الشرطين فى قوله تعالى: ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾[الكهف: ١١٠].

قال الفضيل بن عياض فى قوله تعالى: ﴿**لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾[الملك: ٢] قال: أخلصه وأصوبه.

فالعمل إن كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل. وإذا كان موافقاً للشرع لا يقبل إلا أن يكون خالصاً لله. والإخلاص: إرادة الله وحده بالعمل.

والصواب من الأعمال: ما وافق هديه ﷺ وسنته.

* بل إن القلب لا يكون صالحاً وسليماً وممتلئاً بمحبة الله وخشيته إلا بالتزام ما يحبه الله عز وجل ويرضاه من الأعمال والأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، ويظهر أثر ذلك على الجوارح واللسان، مع اجتناب المحرمات وتوقى الشبهات، والأخذ بالزهد والورع والإعراض عن اتباع الهوى وحب الدنيا.

ولا يتصور قلب صالح لعبد مؤمن صالح ومعه معاندة للشرع ومخالفة له وإعراض عن بعض أحكامه، وتفريق بين أوامره، وعدم انقياد له انقياداً (باطنياً) بالقلب وانقياداً (ظاهرياً) بالجوارح واللسان.

إذا عرفنا ذلك يتبين لنا بوضوح خطأ تقسيم الدين إلى قشور ولباب، وقطعنا الطريق على محبى المعصية والفساد فى الأرض الذين يتحصنون بدعاوى حسن النية فى ارتكاب المخالفات الشرعية.

فإن قيل: النبي ﷺ قال فى الحديث: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». رواه مسلم. فلم يعلق الحديث قبول الله للعبد على ظاهره من حيث صورته وماله ولكن على صلاح قلبه وعمله.

فالجـــواب :-

بينا منذ قليل أهمـية سلامـة القلب وإخلاص العمل لـله، وأن ذلك شرطاً فى صحة العمل. وبينا أن موافقة العمل للشرع شرط ثانى فى صحة العمل.

وهذا الحديث لا يخالف ما بـيناه فهو لم يقصر قبول الله عـز وجل للعبد على قلبـه فقط ولكن على عـمله أيضاً فـقال ﷺ: «ولـكن ينظر إلى قلوبكم» وهذا الشرط الأول لصحـة العمل. ثم قال ﷺ «وأعمالكـم». وهذا هو الشرط الثانى الذى ذكرناه. فالحديث حجة علي المخالف لا له.

فإن قـيل: أليس من فقه الداعـية أن يراعى أولويات الدعـوة، وأن يقدم الأهم على المهم، والواجبات قبل المندوبات، وكـبائر الذنوب على صغائرها. وذلك كله للمصلحة بتقديم أهم الأمرين، وتحقـيق أعظم المعروفين، وتفويت أكبر الضررين. فهذا من جنس هذا. أى أن تقـسيم الدين إلى قشور ولبـاب بحسب أحوال الناس من جنس هذا التقديم للأولويات والاعتناء بالأهم.

فالجواب: أن تقديم شيء على شيء، لا يعنى إهمال الدعوة للآخر، ولكنه بدء بالأهم، ليتـمثل به، ثم يتبعه الأمـر بالثاني. وهذا التقديم مـراعاة للأولوية يرجع إلى فقه الداعية وحالة المدعو.

فالأمر بأداء الصلاة المتروكة مقدم على الأمر بصيام التطوع مثلاً.

والنهى عن شرب الخمر مـقدم على النهى عن تأخير الصلاة لآخر وقتـها مثلاً وهذا فى حق الفرد الواحد.

ولكن مع الامتثال للأمر الأول فلا مانع من الانتقال إلى الدعوة إلى الأمر الثاني.

أما فى حق المجتـمع ككل والدعوة عامة، فتكون الدعوة شـاملة لكل واجبات الدين ومندوباته ومـتضمنة النهى عن كل مـحرمات الدين ومـكروهاته وبيان ذلك كله للأمة داخل فى الدين لينقل إلى الناس كاملاً ويعمل به فى الأمة تاماً.

فتبليغ كل الدين مطلب شرعى وواجب كفائي.

وفى الحديث: «بلغوا عنى ولو آية فرب مبلغ أوعى من سامع».

وفى الحديث: «رحم الله امرءاً سمع مقالتى فبلغها كما سمعها».

فتبين الفارق بين تقسيم الدين إلى قشور تترك ولباب يعتنى به، وبين التدرج فى حق المدعو وتقديم الأهم على غيره فى حثه على الامتثال بتعاليم دينه وإنكار ما هو عليه من منكرات.

* ويدل على فساد تقسيم الدين:-

إلى قشور ولباب اعتبارات عديدة منها:-

١- قوله ﷺ: «لا يمنعن رجلاً هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه أو شهده أو سمعه».(١)

وعموم الحديث لم يفرق بين أمر وأمر، فكل مخالف للشرع سواءاً خالف فى قشر أو لباب فوجب أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وقول الحق له.

فإن سكت خشية أن يتهمه الناس مثلاً بالتعصب، أو التزمت، أو الاهتمام بالسفاسف من الأشياء، أو مخالفة العرف السائد، أو الخروج على مألوف الناس، أو تساهلاً وإعراضاً، أو تجنباً لنقد الناقدين، أو لئلا يقال: إنه لا يعرف حق العصر أو غير ذلك من الأعذار التى لا تقبل عند الله سبحانه وتعالى فهو، آثم يستحق الذم والعقوبة.

٢- أن العلماء يعرفون الحكم الشرعى بأنه «خطاب الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين على سبيل التخيير أو الطلب تركاً أو فعلاً» وما يسمونه قشوراً من أعمال الدين داخل فى دائرة الأحكام الشرعية الخمسة. فكيف يسمى حكماً من الأحكام الخمسة هو خطاب متعلق بأحكام المكلفين أنه من القشور، على سبيل التهوين منه، وكيف يفرق بين أحكام الشرع المختلفة بظن فاسد لا سند له ولا دليل عليه.

٣- أن كل مجتمع محتاج إلى العمل بالدين كله آدابه ومعاملاته وعباداته وعقائده، والدعوة إلى ذلك كله من مهام الدعاة، وكل انتقاص لشيء من هذه الأشياء انتقاص من الدين والإيمان ويخشى مع ترك العمل به والدعوة إليه أن يظل مفقوداً فى هذا المجتمع، وتتوارث ترك العمل به الأجيال اللاحقة.

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه وأحمد بسند فيه ضعف، لكن له متابعات وطرق تقويه. وانظر السلسلة الصحيحة للألباني رحمه الله رقم(١٦٨).

وفى الحديث: «لتنقضن عرى الإسلام عروة عـروة فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتى تليها، وأولهن نقضاً الحكم وآخرهن الصلاة»[١].

٤- أن التـفريط فى الأمـر الصغـير يؤدى إلى التـفريط فى الأمـر الكبـير لأن استـمرار هذا التفريط ينشئ فى الإنسـان عادة تنتهي به إلى التـهاون فيمـا يفعل، والأمة كلهـا تعلم أن هناك كـثيراً من عـرى الدين وأحكام الإسلام مـقصـية عن واقعـهم، ولا يستطاع الـوصول إليهـا أو التحـدث عنها، وبعض هذه الـعرى مما يترتب عليه إقامة حكم الله فى الأرض، وحمـاية بيضة الإسلام، فهل من الحكمة والإيمان معاً أن يترك الداعية الدعوة إلى ما بقى من عرى الدين وأحكام الإسلام - وأغلبها مما يدخل فى عـداد القشور بزعمهم- بعـذر أنه لا يقدر على هذه أو تلك منها؟ إنه لقول عجاب، وأى الأمـرين يكون أحسن، أن يدع القادر على البعض، هذا البعض المقدور على فعله، البعض غير المقدور عليه، أو يدع غير المقدور عليه للمقدور عليه فيفعله.

٥- أن هذا التفريق لـم يعـرف فى سلف الأمة من الصحابة والتـابعين وتابعيهم بإحسان، فقـد كانوا أحرص الناس على الاستجابة لكل أمـر فيفعلوه، وعلى كل نهى فيجـتنبونه، تحقيقاً لقـوله ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما اسـتطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه».

لقد نشأت هذه المـقولة الحادثة من خضوع العـقل المسلم للثقافات الغـريبة التى أخـذت عليـه أقطاره وسدت عليـه طرائقـه التى وصلت به من قـبل إلى الهـدى والحق، وخير الهدى مـا استقر عليه الأمر فى القـرون المفضلة الأولى التى عاشت بالإسلام كله عقيدة وشريعة.

(١) رواه أحمد وابن حبان والحاكم عن أبي أمامة بسند صحيح.

وينافى الشمولية فى الإسلام:

التغاضى عن البدع المنتشرة فى البلاد: فإن من شمولية الأخذ بالإسلام محاربة كل ما يخالفه من الخرافات والخزعبلات والشركيات والمنكرات.

ومحاربة كل ما نسب إليه من البدع والمحدثات.

فليس من شمولية الإسلام التغاضى عن أى من هذه المخالفات ليكون الدين نقياً كما أنزل غضاً يؤتى ثماره فى كل زمان ومكان.

وللأسف فإن من الجماعات فى ساحة الدعوة من يتغاضى عن مثل هذه القضايا تحت مسميات عديدة: إما (مصلحة الدعوة) وإما بدعوى (تأليف القلوب أولاً). وأن وحدة الأمة أهم من تحقيق هذه التصحيحات والتنقيات لفهم الدين والعمل به.

ومن تلك المسميات التفريق بين (البدعة الحقيقية) و(البدعة الإضافية).

فينكر فى الأولى ويتغاضى عن الثانية أو يكتفى فيها بمجرد النصح وبيان وجه المخالفة.

وهذا خطأ شرعاً -كما سنبينه- إذ إن الشرع لم يفرق بين بدعة وأخري، طالما أنها تخالف الشرع، إذ لا يصلح أن يتقرب بها إلى الله تعالى مع بدعيتها.

إذ يندرج تحت هذا التفريق التغاضى عن عديد من البدع المنتشرة فى البلاد: كصلاة الرغائب وصلاة ليلة النصف من شعبان وزيارة المقابر فى أول خميس من رجب وصيام السابع والعشرين من رجب وقراءة القرآن بين الأذان والإقامة جهراً فى المسجد فى صلاتى الفجر والعصر والقراءة قبل صلاة يوم الجمعة... إلخ.

فأصل مادة (بدع): الاختراع على غير مثال سابق. ومنه قوله تعالي: (بديع السموات والأرض) أى مخترعهما من غير مثال سابق. ومنه قوله تعالي: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾[الأحقاف:٩] أي ما كنت أول من جاء بالرسالة من الله إلى العباد بل تقدمنى كثير من الرسل، لأنهم كانوا يعجبون من إرساله إليهم وهو بشر مثلهم.

يقال: ابتدع فلان بدعة إذا ابتدأ طريقة لم يسبق إليها. وهذا أمر بديع: يقال فى الشيء المستحسن الذى لا مثال له فى الحسن.

فمن هذا المعنى سمى العمل الذى لا دليل عليه من الشرع بدعة، وهو إطلاق أخص منه فى اللغة والفاعل للبدعة هو المبتدع.

تعريف البدعة وبيانه

البدعة: طريقة فى الدين مخترعة تضاهى الشرعية يقصد بالسلوك عليها المبالغة فى التعبد لله سبحانه.

الطريقة: ما رسم للسلوك عليه.

الدين: ما شرعه الله تعالى على لسان رسوله ﷺ من العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاقيات.

وقيدت الطريقة بالدين: احترازاً عما يخترع فى الدنيا فإنه لا يسمى بدعة.

معنى مخترعة: أنها لم يكن لها أصل فى الشريعة، وبهذا القيد انفصلت عن كل ما ظهر لبادئ الرأى أنه مخترع مما هو متعلق بالدين كالنحو وأصول الفقه وسائر العلوم الخادمة للشريعة فإنها وإن لم توجد فى الزمان الأول فلها أصل فى الدين فلا تسمى بدعة.

تضاهى الشرعية: أى أنها تشابه الطريقة الشرعية من غير أن تكون فى الحقيقة كذلك كتخصيص يوم النصف من شعبان بصيام، أو ليلته بقيام، فإنه طريقة فى الدين مخترعة تضاهى تخصيص الشرع أياماً وليالى بأعيانها دون غيرها بصيام أو قيام كصوم يوم عاشوراء والأيام الأولى من ذى الحجة وكقيام ليلة القدر والعشر الأواخر من رمضان. فإن صاحب البدعة إنما يخترعها ليضاهى بها السُّنة حتى يكون ملبساً بها على الغير، أو تكون هى مما تلتبس عليه بالسنة. إذ إن؟ الإنسان لا يقصد الاستتباع بأمر لا يشابه المشروع لأنه إذا كان كذلك لا يستجلب بابتداعه نفعاً ولا يدفع ضرراً ولا يجيبه غيره إليه. ولذا ترى المبتدع ينتصر لبدعته بأمور توهم موافقة التشريع ولو بدعوى الاقتداء بفلان المعروف مقامه فى أهل الكمال.

فلا بد فى حد البدعة من اعتبار مضاهاة الأمور المشروعة، وأن يكون إحداثها على أنه دين وشرع بحيث يكون المحدث لها مضاهياً ونظيراً للشرع فى وضع التشريع.

(يقصد بالسلوك عليها المبالغة فى التعبد لله تعالى): هذا تمام معنى البدعة إذ هو المقصود بتشريعها، وذلك أن أصل الدخول فيها يحث على الانقطاع للعبادة

والترغيب فيـها فكأن المبتدع رأى أن المقصود هذا المعنى ولم يتـبين له أن ما وضعه الشرع كاف فى التعبد فاخترع ما اخترع.

بهذا فالعادات لا تدخل فى معنى البـدعة، فكل ما اخترع من الطرق فى الدين مما يضاهى المشروع، ولم يقصد به التعبد، فـقد خرج عن هذه التسمية كالضرائب على الأموال بنسب مـخصوصة وقدر مـخصوص مما يشبه فـرض الزكاة ولم يكن إليها ضرورة ملجئة. فإنها لا تسمى بدعة.[(١)]

والمحصلة: أن البدعة شرعـاً ما أحدث بعد النبي ﷺ على أنه دين وشرع بناءً على تأويل أو شبهة غـير معتد بها. فالمبـتدع مشرع ومتبع لهواه، قـد جعل نفسه نظيراً للشارع. لذا فالبدعة لا تكون إلا مذمومة على هذا التعريف.

السنة لغة الطريقة ولو غير مرضية. وشرعاً تطلق فى مقابلة البدعة على الطريقة المسلوكـة فى الدين بأن سلكهـا الرسول ﷺ، أو السـلف الصالح بعـده، وهى شاملة بذلك للواجب والمندوب والمباح.

وتخصيص الـفقهاء لها بما طلـب طلباً غير جازم اصطـلاح طارئ، قصدوا به التميـيز بينها وبين الفرض وشاع بين المتـأخرين اختصاص اسم السنة بالاعـتقادات لأنها أصل الدين والمخالف لها على خطر عظيم.

١- ورد فى الصحـيحين عن عائـشة رضي الله عنها قالت: قـال رسول الله ﷺ: «من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد».

أحدث: أنشأ واخترع من قبل نفسه.

والمراد من (أمرنا) الدين، كما هو فى رواية.

رد: مردود على فاعله باطل لا يعتد به.

وعند مسلم بلفظ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد».

وفى هذه الرواية لمسلم رد على أمر قد يحتـج به بعض الفاعلين للبدعة من أنه لم يخترع ولم يحدث شـيئاً من قبل نفسه وإنما المخترع والمحدث مـن سبقه وتابعه

---

(١) أما إذا كان فاعلها يراها مشروعة ويتحرج شرعاً من مخالفتها فقد دخلت قطعاً في البدعة. (وكتبه ياسر برهامي).

هو عليه. ويحتج على ذلك بالرواية الأولى فيرد عليه برواية مسلم هذه فى رد المحدثات المخالفة للدين الخارجة عما شرعه الله على لسان رسوله سواء أحدثها أو سُبِقَ فى إحداثها.

٢- عن العرباض بن سارية أن النبي ﷺ قال فى موعظة له لأصحابه: «فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة».

رواه أبو داود وقال حديث حسن.

٣- وعن جابر رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول: صبَّحكُمْ ومسَّاكم ويقول: بعثت أنا والساعة كهاتين ويقرن بين إصبعيه السبابة والوسطي. ويقول: أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة. رواه مسلم.

ويدل على ذم البدع وأهلها أمور:

١- أن الشريعة جاءت كاملة لا تحتمل الزيادة أو النقصان:

قال تعالي: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾[المائدة: ٣]. وفى الحديث: «تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها ولا يزيغ عنها بعدى إلا هالك ومن يعش منكم بعدى فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة»(١). ليلها كنهارها: أى واضحة لا يشتبه فيها أحد.

وقد بين النبي ﷺ لأمته كل ما تحتاج إليه من أمور دينه، جاء بها مفصلة، فما من شيء يقربنا إلى الجنة إلا وأمرنا به، وما من شيء يباعدنا عن النار إلا ونهانا عنه، وهدانا إلى أمور الدنيا إجمالاً بالقواعد الكلية.

فإذا كان الأمر كذلك فكأن المبتدع الذى يزيد فى الشريعة بأشياء يراها واجبة أو مستحبة يقول:(٢) «إن الشريعة لم تتم» لأنه لو كان معتقداً لكمالها وتمامها من كل وجه لم يبتدع بدعته.

---

(١) رواية من حديث العرباض بن سارية السابق.

(٢) يقول ذلك بلسان حاله.

لذا قال الإمام مالك رحمه الله: «من ابتدع فى الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة لأن الله تعالى يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.

٢- أن المبتدع معاند للشرع مخالف له:

لأن الشرع عين الطرق التى يتعين على العبد إتيانها، فالشر كل الشر فى تعديها إلى غيرها، لأن الله تعالى يعلم ونحن لا نعلم، والمبتدع يزعم أنه يعلم طرقاً أخري، وأن ليس كل ما حصره الشرع بمحصور، وليس كل ما عينه الشرع بمتعين، كأن المبتدع يعلم كما أن الشارع يعلم، بل ربما يفهم من استدراكه على الشارع أنه يعلم أكثر مما لا يعلم الشارع!!؟؟.

٣- أن الابتداع اتباع للهوي:

لأن العقل إن لم يكن متبعاً للشرع لم يبق له إلا اتباع الهوى والشهوة، واتباع الهوى ضلال مبين. قال تعالى: ﴿**وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ**﴾[ص: ٢٦]. وقال تعالى: ﴿**وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ**﴾[الكهف: ٢٨] فالأمر محصور بين اتباع الذكر أو اتباع الهوي. وقال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾[القصص: ٥٠]. فمن لم يتبع هدى الله الذى جاء به رسوله ﷺ فلا أحد أضل منه. وهذا شأن المبتدع والعياذ بالله فإنه اتبع هواه بغير هدى من الله -وهدى الله ما بينته الشريعة- فهو أضل الناس وهو يظن أنه على هدي.

٤- البدعة أشد خطراً من المعصية:

فالابتداع ضلال، والضلال ضد الهدي. فالضال التبس عليه الأمر فلم يكن له هاد يهديه. والمعصية خطيئة ولا يقال للمخطئ ضال.

قال ابن القيم فى الجواب الكافي.

«ومعلوم أن المذنب إنما ضرره على نفسه وأما المبتدع فضرره على النوع، وفتنة المبتدع في أصل الدين وفتنة المذنب في الشهوة والمبتدع قد قعد للناس على صراط الله المستقيم يصدهم عنه والمذنب ليس كذلك. والمبتدع مناقض لما جاء به الرسول ﷺ والعاصى ليس كذلك. والمبتدع يقطع على الناس طريق الآخرة والعاصى بطيء السير بسبب ذنوبه» ا.هـ.

لذا كانت البدعة أحب إلى إبليس من المعصية، والمعصية قد يتوب صاحبها أما البدعة فنادراً ما يتوب صاحبها منها إذ إنه يعتقد إنه على هدى وصواب حتى يهديه الله إلي معرفة ضلاله فيتوب. كما أن كل مبتدع عاصٍ وليس كل عاصٍ مبتدع.

من مفاسد إقرار البدع والسكوت عليها:-

١- السكوت علي ما يترتب عليها من المفاسد في عبادة الله تعالي.

٢- اعتماد العوام عليها واعتقادهم صحتها.

٣- إضلال الناس بها وإعانة المبتدعين عليهم.

٤- الكذب على رسول الله ﷺ إذ يتصورونها مما أمر به الشرع حتى يقول بعضهم: هذه سنة من السنن. وهذا يورط هؤلاء العامة فى الوقوع تحت قوله ﷺ : من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار.

٥- إقرار العلماء لها وسكوتهم عليها يوهم أنها من السنة فيكون هذا كذباً على رسول الله ﷺ بلسان الحال.

لذا تجد العوام من المبتدعين يحتجون على من يدعوهم إلى نبذ البدعة والتمسك بالسنة بأن هذه البدعة لو لم تكن من السنة ما سكت عليها هؤلاء العلماء ولبينوا للناس فسادها.

من أقوال السلف فى ذم البدعة

عن هشام بن عروة: لا تسألوا الناس اليوم عما أحدثوه فإنهم قد أعدوا له جواباً. ولكن سلوهم عن السنة فإنهم لا يعرفونها.

وعن حذيفة: كل عبادة لم تفعلها الصحابة فلا تفعلوها.

وعن ابن عباس: أبغض الأمور إلى الله تعالى البدع.

عن سفيان الثوري: إن البدعة أحب إلى إبليس من المعصية، لأن البدعة لا يتاب منها والمعصية يتاب منها.

أى أن المبتدع لا يدخل فى عداد من ترجى توبته لأنه زين له سوء عمله فرآه حسناً فهو لا يتوب منه ما دام يراه حسناً لأن أول التوبة أن يعلم أن ما يفعله بدعة ليتوب منه.

روى الدارمى بإسناد صحيح عن عبد الله بن مسعود أنه سمع بقوم جلسوا حلقاً فى المسجد يسبحون بحصى فى أيديهم، فى وسط كل حلقة رجل يقول لهم: سبحوا كذا وكبروا كذا، فذهب إليهم وقال لهم: ما هذا الذى أراكم تصنعون؟ قالوا: يا أبا عبد الله حصى نعد به التكبير والتهليل والتسبيح.

قال: فعدوا سيئاتكم فأنا ضامن أن لا يضيع من حسناتكم شيء، ويحكم يا أمة محمد هؤلاء صحابة نبيكم متوافرون. وهذه ثيابه لم تبل، وآنيته لم تكسر، والذى نفسى بيده إنكم لعلى ملة هى أهدى من ملة محمد، أو مفتتحوا باب ضلالة، قالوا: والله يا أبا عبد الله ما أردنا إلا الخير، قال: وكم من مريد للخير لن يصيبه، إن رسول الله ﷺ حدثنا أن قوماً يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم. وايم الله ما أدرى لعل أكثرهم منكم. يقول الراوي: رأيت عامة أولئك الخلق يطاعنوننا يوم النهراوان مع الخوارج.

أى كانوا يقاتلون فى صف الخوارج ضد الصحابة رضي الله عنهم.

أقسام البدعة :-

تنقسم البدع إلى أنواع عديدة بحسب مخالفتها للشرع، من جهة كونها تتعلق بالعقائد أو بالأحكام، وبحسب ارتباطها بأزمنة معينة أو أمكنة معينة أو بحسب ما يتدرج تحتها من مخالفات للشرع.

بدع فعلية وبدع تركية:

فقد تكون البدع بترك ما فعله النبي ﷺ بزعم التقرب به إلى الله تعالي: كترك كثير من المتصوفة تناول الطيبات من الرزق تنسكاً، وتعذيب النفس وحرمانها من الحلال تعبداً لله.

قال تعالي: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾[المائد: ٨٧].

ففى الآية: نهى عن تحريم ما أحل الله، وإشعار بأن ذلك اعتداء لا يحبه الله.

وفى الحديث: ان بعض الصحابة أرادوا أن يحرموا على أنفسهم أنواع من الحلال فحرم بعضهم على نفسه نوم الليل وحرم الآخر الأكل بالنهار وآخر أكل اللحم وآخر إتيان النساء. فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «ما بال أقوام يقول أحدهم

كذا وكـذا؟ لكني أصوم وأفطر وأنام وأقوم وآكل اللحم وأتزوج النسـاء فمن رغب عن سنتي فليس مني» . متفق عليه.

* وقد تكون البدع بفعل ما لم يفـعله النبي ﷺ ، والتقرب إلى الله تعالى بما لم يتعبد به النبي ﷺ .

كتخصيص يوم من الأيام بصيام مع أن النبي ﷺ لم يخصصه بصيام.

وكتخصيص ليلة من الليالي بصلاة وقيام مع أن النبي ﷺ لم يخصصها بقيام وصلاة.

وكتخصيص زيارة المقابر في أيام معينة مع أن النبي ﷺ لم يخصصه بالزيارة.

وفي كل ذلك يزعم صاحبها التقـرب بذلك إلى الله تعالي، وجلب خير لنفسه أو للمسلمين.

بدع اعتقادية وبدع عملية:

اعتقادية: باعـتقاد خلاف ما جاء به الرسول ﷺ لا علـى وجه المعاندة للشرع بل بنوع من شبهة كغلو الرافضة والمتصوفة في أهل البيت والمشايخ والأولياء.

وعملية: كالذكر أمام الجنائز وبدع زيارة المقابر.

بدع الأزمنة والأمكنة:-

وذلك باعتبار الأزمنة أو الأمكنة التي تقع فيها البدع:-

كبدع الموالد والأعياد والمواسم. وكبدع المساجد والمقابر.

وقد تكون البدع عامة لا تختص بزمان ولا بمكان كتقليد المتفرنجين للأوربيين فيما هو مخالف للشرع، ومنها الاحتفال بأعيادهم كالاحتفال بعيد رأس السنة الميلادية.

بدع كلية وبدع جزئية:-

فالبدعة الكلية:- ما ينشأ عنهـا خلل كليٌّ في الشريعة يندرج تحته فروع عديدة من المخالفة للشرع.

كإنكار الأحاديث النبوية أو إنكار حجية أخبار الآحاد في العقائد، فيندرج تحتها ما لا حصر له من المخالفة لفروع من أحكام الشريعة.

البدعة الجزئية: والتى لها ضرر جزئى يأتى فى بعض فروع الشريعة لا يتعداها. كبدعة التلحين والزيادة فى الأذان، ونذر الصيام قائماً لا يجلس، وكالامتناع عما أحله الله من الطيبات... إلخ.

بدعة حقيقية وبدعة إضافية:

فالحقيقة: ما كان الابتداع فيها من جميع وجوهها، فهى بدعة محضة، ليست فيها جهة تندمج بها فى السنة. ولذا سميت بدعة حقيقية، لذا فهى بعيدة عن الشرع خارجة عنه من كل وجه. وإن كان المبتدع قد يتمسك فيها بما يزعمه شبهة.

من أمثلتها:-

الطواف بغير الكعبة، والوقوف بغير عرفة، ووضع الهياكل والشموع حول الأضرحة... إلخ.

فكل هذه الأعمال لم يقم دليل على اعتبارها من الشرع لا جملة ولا تفصيلاً.

والبدعة الإضافية: فهى ما لها من الأدلة متعلق، فلا تكون مخالفة للشرع من هذه الجهة، ولها كذلك جهة ليس لها متعلق من الشرع فهى به بدعة.

أى أنها: بالنسبة إلى إحدى الجهتين موافقة للشرع مستندة إلى دليل، وبالنسبة للجهة الأخرى بدعة لأنها مستندة إلى شبهة لا إلى دليل أو غير مستندة إلى شيء.

والفرق بين البدعة الإضافية والبدعة الحقيقية من جهة المعني: أن الدليل عليها من جهة الأصل قائم ومن جهة الكيفيات أو الأحوال أو التفاصيل لم يقم عليها دليل، مع أنها محتاجة إليه، لأن العبادات توقيفية تحتاج لدليل شرعي.

ومن أمثلة ذلك:-

١- صلاة الرغائب: وهى اثنتا عشرة ركعة عقب صلاة المغرب ليلة الجمعة الأولى من رجب يفصل بين كل ركعتين بتسليمة يقرأ فى كل ركعة بعد الفاتحة سورة القدر ثلاث مرات، والإخلاص اثنتى عشرة مرة.

قال الإمام النووى فى صلاة الرغائب: «ليس لأحد أن يستدل على شرعيتها لما روى عنه ﷺ أنه قال: الصلاة خير موضوع فإن ذلك يختص بصلاة لا تخالف الشرع بوجه من الوجوه وقد صح النهى عن الصلاة فى الأوقات المكروهة» ا.هـ.

٢- صلاة ليلة النصف من شعبان: وهى مائة ركعة كل ركعتين بتسليمة يقرأ فى كل ركعة بعد الفاتحة الإخلاص إحدى عشرة مرة.

٣- صلاة بر الوالدين.

٤- صلاة مؤنس القبر.

وهذه كلها بدع قبيحة.

ووجه مشابهة الشرع استحباب صلاة التطوع لقوله ﷺ «الصلاة خير موضوع» رواه الطبرانى فى الأوسط. وهى بدعة من جهة التزام وقت مخصوص وكيفية مخصوصة ونية مخصوصة مخالفة للشرع لم تثبت.

٥- التلحين فى الأذان والزيادة فيه:

بإخراج كلماته عن كيفيتها الشرعية بإيقاعها على ألحان بدعية وزيادة لفظ التسييد فى (شهادة أن محمداً رسول الله) والصلاة والسلام عليه ﷺ مع الأذان جهراً وجعلها بمنزلة الأذان.

٦- التأذين للعيدين: فالأذان قربة وهنا بدعة.

٧- ختم الصلاة بصورة جماعية وبكيفية مخالفة فى أذكارها لما كان يفعله النبي ﷺ وأصحابه.

٨- قراءة الصمدية مائة ألف مرة.

وهذه البدع الإضافية: تحتاج إلى حسن بيان وتعليم للناس عند بيان بدعيتها نظراً لعدم دراية فاعليها بحقيقة ووجه مخالفة الشرع فيها.

وصاحب البدعة الإضافية يتقرب إلى الله تعالى بمشروع وبغير مشروع، والتقرب إنما يكون بمحض المشروع، إذ لا يتقرب إلى الله إلا بما شرع، فكما يجب أن يكون العمل مشروعاً باعتبار ذاته يجب أن يكون مشروعاً باعتبار كيفيته. كما يفيده قوله ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد». رواه مسلم.

فالمبتدع بدعة إضافية قد خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وهو يرى أن الكل صالح، فلا يدخل فى عداد من يرجى توبته، لأنه لا يرى لنفسه ذنباً حتى يتوب

منه، بل يرى أن كل ما يعمله حسن، ولا توبة لمن له يعرف لنفسه ذنباً. إلا أن يهديه الله بأن يسر له من يبين له الحق ويوفقه لترك البدعة.(١)

والسلفيون لا يتبرمون من إيضاح سنة مهملة ولا بيان واجب متروك، لأن كل السنن والواجبات تلتقى مع بعضها البعض مكونة الصورة الكاملة النقية للإسلام، ووجودها فى الواقع العملى يجعل شخصية المسلمين واضحة جلية مميزة تنتقل من جيل إلي جيل إلى قيام الساعة.

وأصحاب المناهج الأخرى يهتمون بقضايا بعينها من الدين ويهملون سائره، بل ويضيقون ببيانه لهم وحثهم عليه وما هذا إلا لجهلهم بحقيقة الدين، وذلك أن ترك نصيب وحظ وقسم مما أمر الله به يورث العداوة والبغضاء، كما قال تعالى: ﴿**وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾[المائدة: ١٤]. وهكذا عاب الله على اليهود إيمانهم ببعض آيات الكتاب وكفرهم ببعض،(٢) وما كان كفرهم إلا تركهم العمل به. وهكذا يحل بالمسلمين إن هم نسوا بعض ما وعظهم الله به وذكرهم، وبعض ما أوجبه عليهم رسوله ﷺ.

ولذلك فالدعوة السلفية دعوة شمولية لأركان الإسلام ومناهجه جميعاً. ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾[البقرة: ٢٠٨]. فالعمل بجزء من الشريعة وترك جزء آخر من اتباع خطوات الشيطان، الذى يبرر لبعض العاملين فى الحقل الإسلامى ترك الواجبات، وفعل كثير من المحرمات بدواعى المصلحة المزعومة للدعوة.

والخلاصة: أن إقامة الحجة تكون بالبيان الدائم لأصول الإسلام وفروعه هذا الباب الذى لا يترك فى الحق لبساً حتى ينقطع العذر، لا يكون لأحد العدول عن فعل الواجب وترك الحرام.

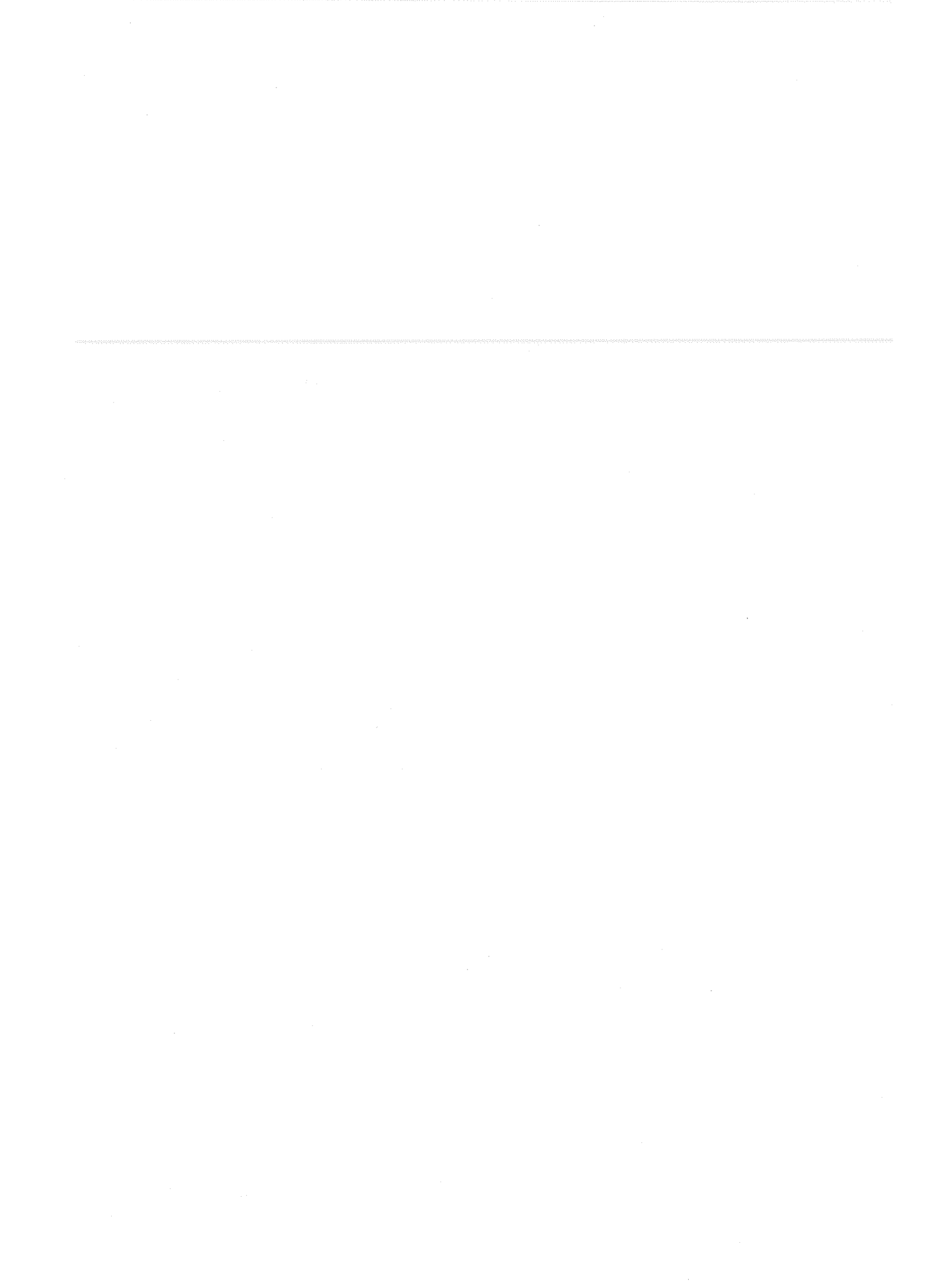
---

(١) يراجع في ذلك: الإبداع في مضار الابتداع للشيخ علي محفوظ رحمه الله والضوابط الشرعية: ص٦٨-٦٩.

(٢) كما قال تعالى: ﴿**أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾[البقرة: ٨٥].

(٤)

مفهوم التقدم الحضاري عند السلفيين



السلفية منهج حياة لكل زمان ومكان

يزعم خصوم الإسلام عامة والسلفية خاصة أنها دعوة رجعية تعمل على العودة إلى الوراء، وترفض التقدم الحضارى والمدنية الحديثة. وهذا زعم خاطئ من جذوره فإن السلفية لا تتعارض مع التقدم.

إن السلفية ليست محصورة فى فترة تاريخية معينة، وإنما هى ممتدة من الأزمان الماضية إلى العصر الحاضر. وعن طريق السلفية نصل إلى الفهم الصحيح للعقيدة الإسلامية كما فهمها أسلافنا.(١)

إن تمسك السلفيين بمنهج القرون الأولى -قرون الخيرية- إنما هو لكونهم قد حققوا الإسلام فى قلوبهم فدانت لهم الدنيا، ولأنهم أقاموا أفضل حضارة شهدتها البشرية فى تاريخها الطويل، حضارة قامت على الحق والعدل، فإذا نحن نادينا بالاقتداء بهم فإن هدفنا هو (الارتفاع) إلى المستوى العالى الذى حققوه كرواد فهموا الإسلام كدين وحضارة. هذا والاقتداء بهم يتطلب الارتفاع إلى مستواهم لا الرجوع إلى الزمن الذى عاصروه بوسائله وأدواته، فالاتباع إذن فى القيم التى حققوها، وعاشوا من أجلها، لا فى وسائل المعيشة التى استخدموها.(٢)

فليست السلفية زرعاً للماضى فى أرض الحاضر، ولكن السلفية هى العمل بقيم الإسلام الصحيحة لإصلاح الدين والدنيا.

والحقيقة أن دعوة السلفيين كانت مصدراً لمخاوف الاستعمار والتبشير فأرادوا أن يقاوموا هذه الدعوة القليل عددُ أصحابها والذين هم مع قلتهم يصارعون جمهوراً غالباً من المبتدعة يؤيدهم إلف العامة وهم الكثرة لما عندهم من البدع المنكرة التى ينكرها السلفيون أشد الإنكار، فعمدوا إلى بث فكرة قريبة من النفوس سريعة إليها تؤيدها جميع الظواهر، وهى أن السلفيين قوم متشددون يريدون أن يرهقوا الناس بما لا طاقة لهم به من التكاليف. وهذه المهارة فى إدراك الوسائل التى تقاوم بها الأفكار كانت معروفة مدروسة فى دوائر الاستعمار والتبشير، وإن كان كثير منا

(١) قواعد المنهج السلفي بتصرف: ص٢٦٤ .
(٢) المرجع السابق: ص٣٩ .

غافلاً عنها، غير قادر على إدراك المحيط الذى تستعمل فيه هذه الوسائل.[(١)] ومن ثم ظهرت كلمة السلفيين مقرونة بتبغيضها إلى العامة، وتصويرها فى صور منكرة تكرهها النفوس لأنها تشق عليها.[(٢)]

فصار لفظ السلفيين يستعمل (للدلالة على التأخر والتشدد والتخلف)[(٣)] وبعد قليل رأينا لفظ الرجعيين يحل محل السلفيين فجأة، (وهو لفظ سهل على لسان العامة وغير العامة، وإذ بنا نراه مستعملاً على ألسنة ضرب من الكتاب)،[(٤)] (وعلى ألسنة أصحاب الصحف).[(٥)] (ثم لم نلبث إلا قليلاً حتى رأينا هذا اللفظ ينتقل للدلالة على الحياة الإسلامية كلها، واشتق له مصدر هو (الرجعية) يستعمله الكتاب إذا أرادوا التورية عن الإسلام تهرباً من أن تنالهم تهمة الطعن فى دين الدولة).[(٦)] وبهذا التمويه القبيح يريد أمثال هؤلاء التالفين أن يشفوا غل صدورهم ببذاءة مغلفة فى لفظ مُبْهَم.[(٧)]

وينبغى أن نراعى أن للإسلام تفسيره لمعنى (التقدم) الذى يخالف المعنى الشائع للتقدم بين الناس الآن. فالإسلام يعامل الإنسان ككيان متكامل لا يفصل فى النظرة إليه بين جانبه المادى وجانبه الروحي، ولهذا فيجب التمييز بين التقدم فى أبحاث العلوم التجريبية، واستخدام نتائجها لتحسين الحياة الإنسانية، وبين الهبوط الروحى الذى وصلت إليه الحضارة الأوروبية الحديثة. فالتقدم فى الإسلام تقدم أخلاقى مع الأخذ بأسباب العمران المادى فى نواحى الحياة كلها.

ولو نظرنا إلى أحداث التاريخ القديم والمعاصر لرأينا الآثار المدمرة للاستعمار الغربى الأوروبي لنا والتى عرضت شعوبنا لصنوف الهوان والقهر. وما معاناة الشعب الفلسطينى الآن إلا نموذج مصغر لتصرفات الغرب المتحضر على أرض فلسطين.

فدائماً هناك فارق هائل بين مبادئ تعامل الغرب (المتحضر) مع بعضهم البعض، وبين قسوتهم فى التعامل مع الشعوب المقهورة فأين التقدم الذى يدعونه عند التعامل معنا؟!!.[(٨)]

هذا من جهة: ومن جهة أخرى فإن كلمة (القديم) تعنى فى تاريخ أوروبا العصور المظلمة فى القرون الوسطى السابقة لعصر النهضة. فرفض أوروبا لتاريخها القديم ينبع من رغبتها فى ترك الماضى الذى كان سبباً لتخلفها فهذا الرفض يلائم نهضتها الحالية.[(٩)]

---

(١)(٢)(٣)(٤)(٥)(٦)(٧): أباطيل وأسمار للشيخ محمود محمد شاكر: ص٥٠٦-٥٠٨ .

(٨)(٩) قواعد المنهج السلفي بتصرف: ص٢٦٨ .

ولكن العكس بالنسبة لأمتنا تماماً. فإن تاريخنا يعبر عن تقدم حضاري فى كل المجالات، ونحن إذا طالبنا (بالترقي) إلى مستوى السلف، فإننا نعنى بذلك اتخاذ المفهوم الشامل للعقيدة الإسلامية وتحكيم شريعتها، والأخذ بالتقدم العلمى أحد ألوان النشاط الإنساني، وقد حقق فيه المسلمون -فيما مضي- ألواناً زاهية من الحضارة عندما اتخذوا من الإسلام عقيدة ومنهاجاً فالإسلام يحض على العلم ويرفع من شأن العلماء.(١)

وليس معنى ذلك وضع الأمة الإسلامية فى متحف للتاريخ بإرجاعها إلى الأخذ بوسائل العصور السابقة فى حياتها العلمية فمثل ذلك لا يقول به عاقل. ولكن المراد أن المفهوم الإسلامى للحضارة أرقى بكثير من التصور الغربي. فلا نحن نرضى بتخلف المسلمين الحالى وبعدهم عن تحقيق النموذج الإسلامى المطلوب، ولا نحن نرضى فى الوقت نفسه بتقليد الغرب المادى الملحد فى فلسفته ومضامينه الفكرية الشاملة.

ولا نكون مبالغين إن قلنا إن هذا التقدم الذى يعيشه العالم المتحضر الآن ما هو إلا جزء من التصور الحضارى للإسلام.(٢)

إن نبذ السلفية بحجة التسابق مع الزمن، واللحاق بكل ما هو جديد منهج خاطئ قائم على مفاهيم غربية متصلة بفلسفتها، فإن ما نراه جديداً اليوم سيصبح غداً وحتماً قديماً.

فليست الموازنة إذاً بين قديم وجديد موازنة صحيحة، ولكن ينبغى أن تتم بالمقارنة بين الحق والباطل أياً كان العصر والزمن لأن القيم لا تتغير ولا تتبدل.(٣)

فإذا كان الذين يقلدون الغرب وينادون باتباع الحضارة الغربية والأخذ بها على علاتها وبما فيها من أزمات متعددة بدعوى التقدم والمدنية، ويقبلون هذه الحضارة المادية على أزماتها ومشاكلها بدعوى أن هذه العلات نتيجة لطموحات هذه الحضارة، وأنها دائماً تسعى للتحسين والرقى ولكن لابد من شوائب وأخطاء، فإن السلفيين يرفضون هذا التقليد الأعمى للحضارة الغربية باسم التقدم والمدنية.

---

(١)(٢)(٣) قواعد المنهج السلفي بتصرف: ص٢٦٩ ،ص٢٧٠-٢٧١ .

إن الارتباط بالعقيدة الإسلامية الصحيحة يعنى نبذ النموذج الحضارى الحالى للحضارة الغربية ولا يعنى ذلك نبذ التقدم العلمى للغرب، فإن هناك فارقاً بين الأخذ بالنتائج العلمية للحضارة الغربية وبين الأخذ بمقومات الحضارة الغربية وتصوراتها العقائدية ونظرياتها الفلسفية فى الحياة فإنه لا وطن للعلم ولا جنسية للأبحاث والاكتشافات وإنما هى نتاج جهود البشرية على اختلاف جنسياتها وأوطانها ونحن المسلمين قد ساهمنا في التقدم العلمى للبشرية كلها فى أيام سابقة بجهود عظيمة لا تنكر.(١)

إن مشكلتنا مع الحضارة الغربية تكمن فى [اختلافنا الأساسى معهم على قواعد جوهرية تتناول عقيدة التوحيد والإيمان بالله سبحانه وتعالي، وإفراده بالألوهية والربوبية، وماهية الإنسان، والغرض من خلقه، وبيان مآله فى اليوم الآخر، وما هى وسائله لسلوك أحسن السبل الممكنة فى الحياة والارتقاء بها].(٢)

فالأمة الإسلامية يجب أن تكون مميزة بخصائص تميزها عن غيرها من الأمم، وتجعل من التزامها بعقائدها وشريعتها أمة متقدمة فى المقام الأول بالعقائد والقيم والسلوك قبل المنتجات المادية.(٣)

فاعتقاد أن السلفية (مرحلة زمنية مباركة) وقفت عند نهاية القرون الثلاثة الأولي، وانتهت إليها، وحطت رحلها أمامها، وانقطع بها، دعوى باطلة منكورة، لا دليل عليها ولا ينبغى التمسك بها، فنحن على يقين أن السلفية زمانها الزمان كله، ومكانها الأرض كلها، تجرى بخيرها وعطائها ورجالها حتى تلقى ربانها ومبلغها رسول الله ﷺ على حوضه بأصليها الكتاب والسنة، ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض.

إذاً فليس بضائرنا أن نعيش معها فى كل زمان وفى كل مكان من الأرض، راغبين عن الطاعنين عليها، آخذين بهدى كتاب ربنا سبحانه: ﴿**وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾[الأعراف: ١٩٩]. ولسنا فى ذلك إلا قائلين فى ظل هدى رسول الله ﷺ الذى كان المثل المحتذي فى صبره الجميل.

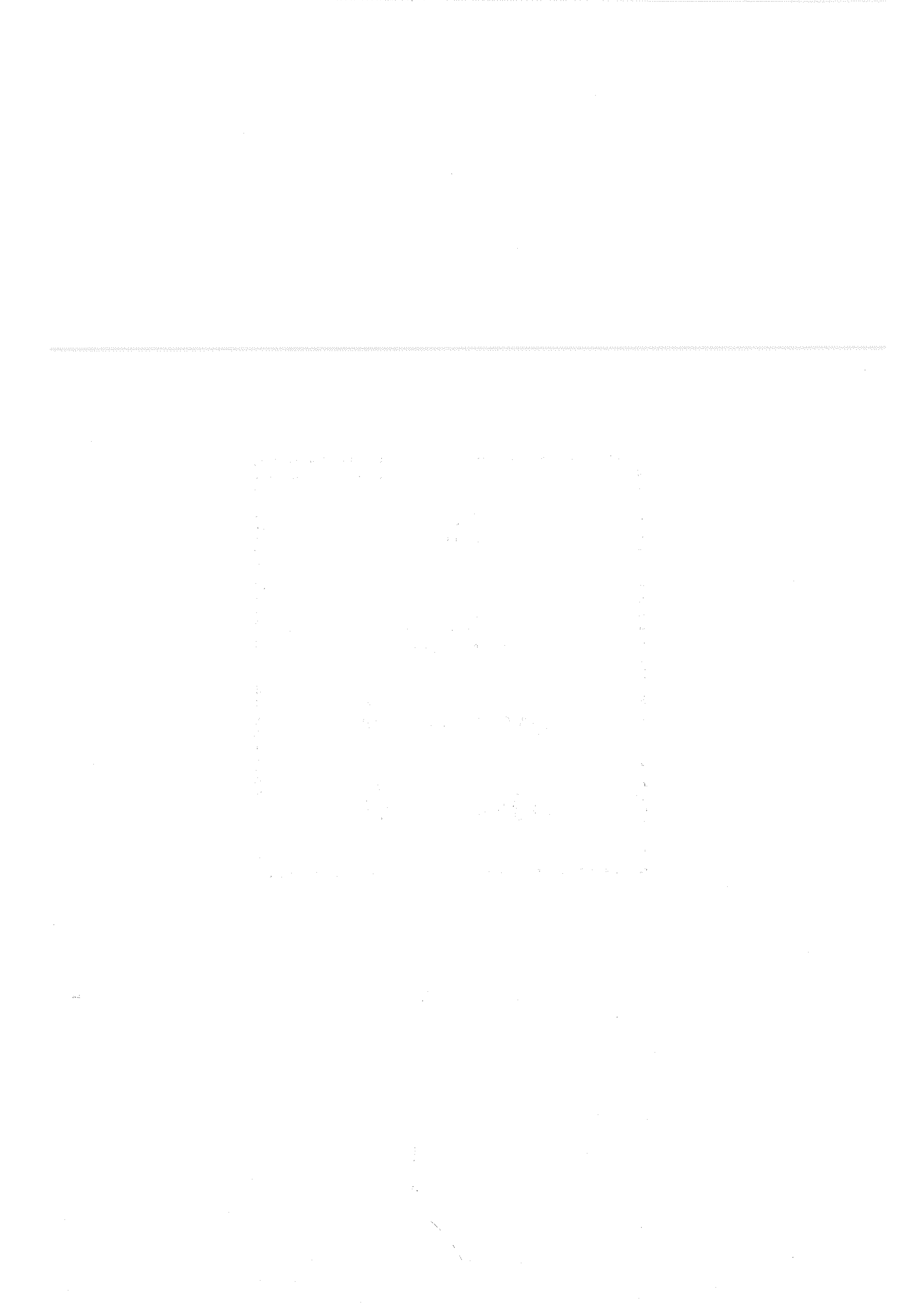
---

(١)(٢) بتصرف من قواعد المنهج السلفي: ص٢٧٢ .

(٣) المرجع السابق: ص٢٧٢-٢٧٣ .

(٥)

تيسير فهم الإسلام



يقول الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق حفظه الله:

(أنزل الله سبحانه وتعالى الدين الإسلامى للناس كافة، وبعث نبيه محمداً ﷺ للعالمين، وبما أن الناس متفاوتون فى الذكاء وسرعة الإدراك والفهم فإن الله جعل هذا الدين سهلاً ميسراً ليس فى العمل فقط، بل فى الفهم والإدراك فحقائق الدين الأساسية سهلة ميسرة سواء كانت حقائق عقائدية إيمانية أو حقائق علمية تشريعية، فتوحيد الله سبحانه وتعالى من الممكن أن يعلم بكلمات قليلة وبمجالسات يسيرة لأهل العلم الحقيقى المستند إلى الكتاب والسنة.

وكذلك فرائض الإسلام الخمس يستطيع الفرد الذى أوتى نصيباً قليلاً من الفهم أن يلم بأحكامها فى وقت يسير: فالوضوء والصلاة يمكن تعلم أصولهما فى وقت لا يتعدى الساعة أو الساعتين، وكذلك الصوم، وصاحب المال يستطيع معرفة زكاة ماله فى وقت يسير إذا بين له رجل من أهل العلم، وكذلك الحج أيضاً.

والخلاصة: أن الإسلام دين ميسر فى الفهم والعلم، وكذلك هو دين ميسر فى التطبيق والعمل، فلا مشقة فيه بوجه من الوجوه. ومصداق هذا قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾[القمر: ٢٢]. وهذه الآية دليل واضح على أن القرآن -وهو أساس الإسلام الذى حوى جميع علومه- ميسر للذكر. والذكر يتضمن العلم والعمل وقال ﷺ: «إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا». وهذا دليل على يسر الإسلام فى العمل والفهم أيضاً.

ولكن هذا الدين الميسر قد جاء من الناس من عقّده، وضيق طريق الوصول إليه، وحجب الناس عن الاستفادة من الكتاب ومن السنة، وجعل الإسلام أشبه بالأحاجى والألغاز، وذلك بإكثار المصطلحات الخاصة فى كل فرع من فروع العلوم الإسلامية، ونشأت علوم ومعارف ليست من الإسلام فى شيء، وقد أسميناها علوماً ومعارف تجاوزاً، وحدث تغالى فى علوم النحو والصرف وأصول الفقه إلى الحد الذى أعجز المتخصصين فيه عن أن يصلوا إلى غاية ذلك من فهم القرآن والحديث، بل من فهم الفروع الإسلامية الأخرى حتى إننا نجد العالم المتخصص فى علوم العربية لا يفقه من الكتاب والسنة إلا قليلاً، وقد يكون عالماً بأصول الفقه لا يحسن التوحيد، بل لا يحسن الوضوء، ولا استنباط حكم صحيح من كتاب

الله وسنة نبيه ﷺ. بل الأدهى والأمر من ذلك أن تخرج الجامعات الإسلامية علماء يعتلون المنابر، ويخطبون فى الناس وهم لا يميزون بين حديث صحيح ثابت عن الرسول ﷺ وبين الأقوال الموضوعة المرذولة المنسوبة إلى النبي ﷺ زوراً وبهتاناً.

وهكذا ساهم تعقيد الدراسة الإسلامية فى نشأة أشباه العلماء، الذين يعرفون فرعاً من فروع الدين، ولا يملكون رؤية شمولية له، وكذلك ساهم هؤلاء فى نشأة كهانة دينية جعلت الدين الذى أنزله الله للعالمين محجوباً عن الناس بعلماء ادعوا أنهم الأوصياء عليه، وإذا جئت تناقش حجتهم فى قول ما لتفهم وتعى عن الله وتتدبر قوله قالوا لك: لا تناقشنا، خذ قولنا ولا تسأل عن الدليل، وذلك ليغمضوا عينيك، وليحولوا الناس إلى سائمة(١) يسيرون وراءهم وهم لا يدرون.

والدعوة السلفية تجعل همها الأول: تذليل فهم الإسلام للناس فهى تفتح الطريق أمام الناس جميعاً لدراسة الكتاب والسنة دراسة علمية سهلة واضحة، وبذلك يكون العلم مشاعاً للجميع، ويرتبط الناس بالقرآن فيتدبرونه، وبالسنة فيفقهونها، ويصبح فهم الدين والعمل به ليس حكراً على طائفة معينة تلبس لباساً خاصاً وتتكلم بلهجة خاصة، وإنما يصبح الإسلام للناس جميعاً، علماً مشاعاً كالهواء الذى نتنفسه. وقد وجدنا أثر ذلك بحمد الله فى إخواننا، فما أن درسوا الإسلام بالمنهج السلفى حتى كانوا علماء فيه(٢) في مدة يسيرة جداً، هذا مع امتلاك الرؤية الواضحة لمجمل هذا الدين عقيدة وشريعة وسلوكاً. ومع الاستزادة اليومية من علومه استزادة لا تشغل الطبيب عن طبه، ولا المهندس عن هندسته، ولا التاجر عن تجارته. وذلك لأن المنهج السلفى فى فهم الإسلام يعطى الدارسين مفاتيح فهم الدين. فالطالب فى المنهج السلفى يعرف أصول الإسلام، ومراجع معرفة العقائد والأحكام، ويعرف كيف يكون ذا فكر مستقل غير مقلد، وكيف يحترم العلماء، ولا يتعصب لأقوالهم، وكيف يأخذ الحق أنى وجده ما دام مؤيداً بالدليل وكيف يترك الباطل مهما كان مصدره إذا وجد دليل بطلانه، وبذلك يفهم الإسلام فى سهولة ويسر.

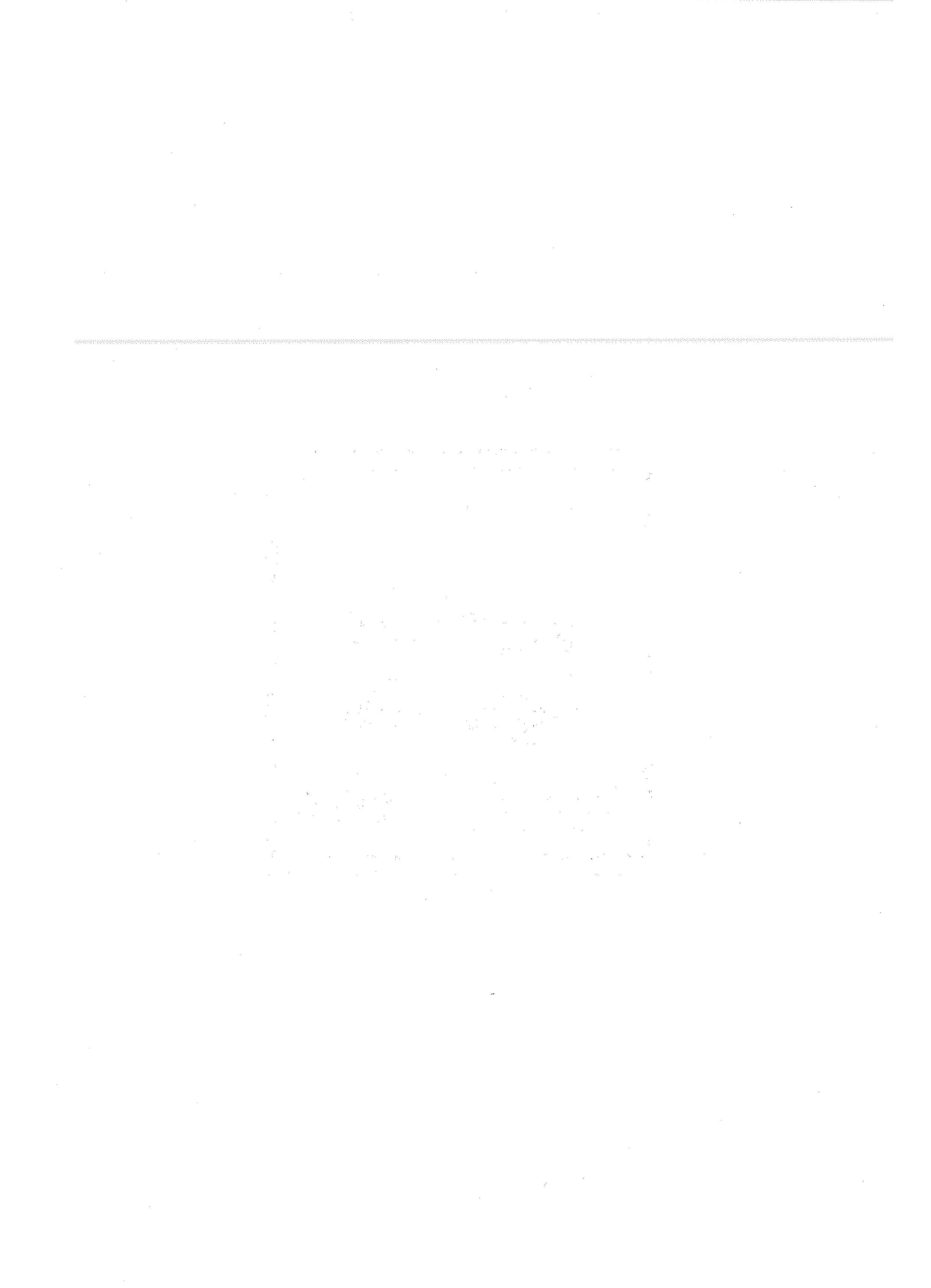
---

(١) السائمة: الإبل ترعى في المرعى.
(٢) ولعل الأولى أن يقال: من طلاب العلم المجدين فيه معهم العلم النافع وفيهم العمل الصالح.

وإذا كان هذا التيسير مطلوباً فى الأزمان الماضية فهو أشد ضرورة ونحن أكثر حاجة إليه فى أزماننا هذه التى يستغرق فيها التعليم الدنيوى كل عمر الإنسان، وتستهلك فيها الحضارة الحديثة كل وقته ويركض الناس فيه خلف الحياة بكل طاقاتهم وجهدهم. ولذلك كان المنهج السلفى لتعليم الإسلام وتعلمه هو المنهج الأكمل الأسلم، لأنه يأخذ من الفرد أقل الأوقات ويعطيه أعظم الفوائد، فلا يفني الفرد عمره فى معرفة حواش وجزئيات وفرعيات وخزعبلات لا تغنى عنه فى دينه ولا دنياه شيئاً، وإنما ينصرف إلى حقائق الدين رأساً فيتعلم أصول التوحيد ليصحح إيمانه وعقيدته وأصول العبادات ليصح عمله ويكون صالحاً، وأصول التزكية والأخلاق لتزكو نفسه وتطهر، كل ذلك من الكتاب والسنة حيث يتعامل السلفى مع كلام الله الذى سماه روحاً ونوراً، ومع كلام الرسول الذى هو الحكمة والهداية. وهذه هى الفائدة الثالثة والميزة الأولى للسير فى الطريق السلفى طريق النبي ﷺ الذى علم أمة كاملة بأيسر الجهود وأقل التكاليف. وهكذا كان صحابته، كما قال ابن مسعود أبر الناس قلوباً وأعمقهم علماً وأقلهم تكلفاً. وهكذا نريد الجيل السلفى الحديث على نحو الرعيل الأول أبر الناس قلوباً وأعمقهم علماً وأقلهم تكلفاً. اهـ.

(٦)

سلفية المنهج
سلفية المواجهة
(بين الأصالة والمعاصرة)



سلفيـة المواجهة لعقـبات الدعوة إلى المنهج السلفى تواجـه باستعمـال الوسائل والأسـاليب العـصريـة فى الدعوة وذلـك لا ينافى أصـالة الدعوة فـإن الأصـالة والمعاصرة من الكلمات التى كثر الحديث عنهـا، والدعوة إليها فى العصر الحاضر، ومـا من شيء أخطر على الدعـوة من أن تلتـبس سمـاتهـا الأسـاسيـة أو يلابس خصائصها غموض أو اضطراب.

ويقصد بالأصـالة: المحافظة على جوهر الدعوة باسـتنادها إلى الأصول والأدلة الشرعية والتمسك بمبادئها الأساسية.

والمعاصرة هي: تكافـؤ الدعوة مع العصر الذى تعـيش فيه بحيث تعـالج واقعه وتلبى متطلباته.

ومن هذا التـعـريـف يتـضح أن الدعـوة بالأصـالة وصـف صـالح لكل زمـان ومكان.(١) ووصف الدعوة بالمعاصرة أيضاً صـالح لكل زمان ومكان، وليس وصفاً خاصاً بالعـصر الحديث كمـا قد يتوهم، فدعـوة الناس بلسانهم ولغتهم مـعاصرة، واختيار الأسلوب الدعوى المناسب لموقف من المواقف معـاصرة، واستخدام الوسائل المتوفرة فى عصر من العصور لنشر الدعـوة معاصرة وسيرته ﷺ فى تمسكه بأصالة دعوته لا يحـيد عنهـا، ولا يقبل مسـاومة فـيها، وفى ذات الوقت مـعالجـته واقع عصره، وتخيره الأساليب النافعة لدعوتـه، واستخدام جميع أنواع الوسائل المشروعة المتـوفـرة فى عـصـره غيـر زاهد بشـيء منهـا أمر لا يـخـفى علـي من اطلع على سنته ﷺ، وقد سار الصحابة والخلفاء الراشدون رضي الله عنهم على نهجه.(٢-٣)

---

(١) الأصوليـة في المفهوم الغـربي الأوروبي تطلق علي الذين يعتقـدون قدسية الإنجيل ويتمسكون بحـروفه ويسعـون لإقامة الحـياة علي تعاليـمه، ونظرة الغرب لهـؤلاء الأصوليين منهم نظرة ازدراء، ويصـفونهم بالرجـعيـة. إذ إن العلمانيـة هي المذهب السـائد في أوروبا بعد الصـراع في القـرون الوسطى بين العلم والنصرانية المحرفة والذى انتهى بعزل سلطة الكنيسـة عن المجتمع وحصرها بين جدران الكنيسة، وبالتالي فصل الدنيا عن الدين.

وإطلاق هذا الوصف بهذا المفـهوم الغربي علي الصحـوة الإسلامية في العـالم الإسلامي خطأ شنيع، إذ ليس بين الإسلام والعلم عـداء، والإسلام بتشـريعاته دين ودولة، علم وإيمان، لإصـلاح الدنيا بالدين، والدعوة إلي الرجوع إليه مصـلحون لا مفسدون. فإن الله تعالى أنزل كتابه القـرآن وحفظه من التحريف والضياع ليكون نـبراساً يهدي البشـرية. وقد قامت علي نظمه وتعـاليمه حضارة إسـلامية رائدة، ودولة متسعة الأرجاء شرقاً وغرباً، دامت لها السيادة في الأرض أكثر من ألف عام. ولم تضعف وتفقد مكانتها إلا بابتعاد المسلمين أنفسهم عن الإسلام وهديه.

(٢) مثال ذلك في خلافة أبي بكر: التشاور في جمع القـرآن والاتفاق على جمعه، والتشاور في إنفاذ جيش أسامة خشية على المدينة من خطر المرتدين.

(٣) تحصيل الزاد: ص١٣٤ .

ضوابط الأصالة والمعاصرة[١]

ليست الأصالة تحجراً فى العقول، وليست المعاصرة ميوعة فى المواقف، ولا ذوباناً للشخصية المسلمة، وليست الغاية منها إرضاء الأهواء والرغبات. فهذا كله مخالفة للصراط المستقيم ودعوة الناس للهداية.

وفى الشرع التحذير من فقد الشخصية المسلمة واتباع سنن وهدى غير المسلمين، واتباع ما يخالف الإسلام.

ومن أهم هذه الضوابط:-[٢]

١- المحافظة على الأصول الشرعية محافظة تامة، والتمسك بالسنة النبوية وسنة الخلفاء الراشدين، والعض عليها بالنواجذ وفى الحديث: «فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة». رواه أبو داود والترمذى وقال: حديث حسن صحيح.

وهذا الاتباع يشمل الأقوال والأفعال والمناهج والأساليب.

٢- اجتناب البدع اجتناباً تاماً والحذر منها كل الحذر:-

ففى الحديث المرفوع: «وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة».

وفى الحديث: «من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد». متفق عليه.

٣- التمييز بين الثوابت والمتغيرات:

فالمنهج الدعوى ثابت لا يتغير ولا يتحول. والأساليب والوسائل البشرية متطورة متغيرة.

فالأصل فى المناهج الربانية الثبوت والاستمرار وعدم التحول.

والأصل فى الأساليب والوسائل والمناهج البشرية التطور والتحول إلى ما يناسب كل عصر.

---

(١) يراجع في ذلك تحصيل الزاد: ص١٣٥-١٤١ .
(٢) راجع المرجع السابق.

٤- مراعاة موافقة الشرع فى المناهج والأساليب والوسائل، وتجنب مبدأ الغاية تبرر الوسيلة.

فعلى المسلم أن يتجنب الحرام ولو توهم أن اقترافه يأتى بخير، كما أن عليه أداء الواجب وإن توهم فى تركه دفع شر، فإن الخير لا يأتى بشر.

٥- البعد عن الغلو والتشدد، وتجنب التقصير والتساهل، والأخذ بالاعتدال فى التمسك بالدين.

ففى الحديث: «هلك المتنطعون» قالها ثلاثاً رواه مسلم المتنطعون: المتعمقون المتشددون فى غير موضع التشديد.

وفى الحديث: «إن الدين يسر فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة» رواه البخاري.

وليس المراد منع طلب الكمال فى العبادة، ولكن المراد منع الإفراط المؤدى إلى الملل أو المبالغة المفضية إلى ترك الأفضل.

وفى الحديث: «يا أيها الناس إياكم والغلو فى الدين فإنه أهلك من كان قبلكم الغلو فى الدين» رواه ابن ماجه.

٦- الرجوع فى حكم المسائل والحوادث المستجدة إلى أهل العلم والاختصاص لتحقيق التوازن بين المحافظة على الأصالة ومراعاة المعاصرة.

وفى الحديث: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا» متفق عليه.

وإذا كانت العبادات الأصل فيها التوقيف. فإن المعاملات عموماً الأصل فيها الإباحة طالما أنها لم تصطدم بنصوص الشريعة ووافقت الضوابط الكلية.

ويخالف هذه الضوابط:[(١)]

- معاداة كل قديم، وتحسين كل حديث.

---

(١) راجع المرجع السابق.

فالخير فى الاتباع، لا فى الابتداع، والحكم على الأمور بحق أو باطل وحسن أو قبيح لا يعتبر فيه القدم لذاته ولا الحداثة لذاتها، وإنما هو فى موافقة الحق، والتمسك بالأصول من جهة، وفى مراعاة الظروف والأحوال، وتغير الأزمنة والأمكنة فى ضوء تلك الأصول من جهة أخري.

- إنزال بعض الدعاة لأقوال وسلوك أصحاب دعوتهم أو مؤسس جماعتهم أو رؤساء تنظيماتهم منزلة الأصول الثابتة والحجة القاطعة على الرغم من ظهور خطئها ومخالفتها للشرع، أو عدم صلاحيتها فى ظروف وأحوال.

- الركون إلى أصحاب المنكرات ومداهنتهم.

- ترك مخالطة الناس واعتزالهم وهجرهم. فإن الهجر إنما شرع لجلب مصلحة ودفع مفسدة، وهو أسلوب علاج، فلا يستخدم إذا أدى إلى بتر وإهلاك. فالهجر ينفع فى المجتمعات التى يغلب عليها الصلاح.

- إهمال الوسائل المتطورة التى تمكن من الوصول للأهداف المرجوة وتعين على تحقيق الغايات، فكلما وجد الداعية وسيلة موافقة للشرع أجدى وأنفع، أو أيسر وأسهل، لزم عليه الاستفادة منها واستخدامها لتحقيق هدفه.

وأخيراً نقول إن: «الكل مطالب أن ينتبه للأخطاء التى تحدث باسم الأصالة والمعاصرة، فكم من شباب الدعوة اليوم من لا يتميز سلوكه عن سلوك عامة الناس فيقع فى المحرمات والمخالفات فى طريق الدعوة متوهماً أنه يحقق بذلك نوعاً من المعاصرة اللازمة، كحالة من يصافح النساء أو يحلق لحيته أو يتساهل فى حجاب زوجته أو بنته أو يألف أنغام الموسيقى المحرمة. وفى الوقت ذاته كم من شباب الدعوة من يصاب بنوع من التحجر والجمود، فيتشدد فى أمور ينفر الناس من حوله متوهماً أنه يحقق نوعاً من الأصالة المطلوبة، وهو يقع فى الإفراط، ومن هذه الصور أن يُحجر على المرأة فى بيتها، وتمنع من الخروج والزيارات المباحة، مع تأدبها بالآداب الشرعية، ومع وجود الحاجة لذلك، أو يمنع من لباس دون لباس، مع انطباق المواصفات الشرعية على هذا، وليس هو شعاراً لغير المسلمين، ولاسيما إذا دعت إلى استعماله مصلحة زمنية أو حاجة علمية».(١)

(١) المرجع السابق: ص١٤٠-١٤١ .

ثبت الموضوعات

*** من قواعد المنهج السلفى في الاستدلال:**

١- الاستدلال بالكتاب والسنة:

النهى عن الخروج عن الكتاب والسنة.

اقتصار السلف فى الاستدلال على الكتاب والسنة.

مناظرة من آثار السلف الصالح.

٢- تقديم النقل على العقل

أقوال العلماء فى ذم علم الكلام.

أقوال علماء الكلام فى ذم الكلام.

درء تعارض النقل والعقل.

السلف أهل نظر واستدلال.

أمثلة لاستدلالات عقلية.

النظر العقلى عند السلف.

النظر العقلى فى القرآن الكريم.

أدلة عقلية فى القرآن الكريم.

إثبات وجود الخالق عز وجل.

إثبات أنه وحده تعالى المستحق للعبادة.

إثبات أن الإله واحد لا شريك له.

إثبات النبوة وإرسال الرسول ﷺ.

إثبات البعث والنشور.

إثبات صفات الله تعالى وأفعاله.

ضرب الأمثال العقلية فى القرآن الكريم.

القياس فى القرآن الكريم.

الجدل والمجادلة فى القرآن الكريم.

حكم الجدال والمراء ولو فى الحق.

أمثلة للأدلة العقلية فى الحديث النبوي.

حجية أحاديث الآحاد.

٣- رفض التأويل الكلامي

فساد ترك الأخذ بظاهر النصوص فى العقائد.

أ- رفض التأويل.

ب- رفض تحريف النصوص.

جـ- رفض التعطيل.

د- رفض التشبيه والتمثيل.

هـ- رفض تكييف الصفات.

تفسير (ليس كمثله شيء).

٤- التمسك بفهم الصحابة

فضل الصحابة.

الآيات القرآنية فى فضل الصحابة.

الأحاديث النبوية فى فضل الصحابة.

أقوال للسلف فى فضل الصحابة.

رأى المتكلمين فى الصحابة.

علم الكلام.

موضوعات علم الكلام.

حجج المتكلمين.

بين أهل الحديث والمتكلمين.

أسباب معارضة السلف للمتكلمين.

طريقة السلف أسلم وأحوط وأعلم وأحكم.

* بين العلمانية والسلفية:

العقلية التغريبية فى مواجهة الدين.

الموقف السلفى من العقلانية.

شبهة والرد عليها.

شبهة أخرى والرد عليها.

صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان.

ثانياً: ملامح عملية للسلفية فى وقتنا الحاضر:

١- الاهتمام بقضايا التوحيد:

التوحيد أولاً لو كانوا يعلمون.

كلمة التوحيد قبل توحيد الكلمة.

التوحيد والعقيدة عند السلفيين.

التفويض ليس من توحيد السلف.

حرمة عبادة غير الله تعالى.

حرمة اتخاذ القبور مساجد.

٢- الحرص على تحقيق الوحدة الإسلامية المثمرة:

الأخوة الإيمانية ومعالجة أسباب الفرقة.

جماعات الدعوة هل هى من الفرق النارية.

٣- الشمولية فى الدعوة:

رفض النظرة الجزئية للدين.

تقسيم الدين إلى قشور ولباب.

قياس فاسد.

شرط العمل الصالح.

✪✪✪✪✪

المراجع

السلفية وقضايا العصر: د. عبد الرحمن بن زيد الزنيدي
مناهج البحث فى العقيدة الإسلامية فى العصر الحاضر: د. عبد الرحمن بن زيد الزنيدي
قواعد المنهج السلفي: د. مصطفى حلمي
السلفية بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية: د. مصطفى حلمي
منهج علماء الحديث والسنة: د. مصطفى حلمي
نظام الخلافة فى الفكر الإسلامي: د. مصطفى حلمي
أباطيل وأسمار: محمود محمد شاكر
العقائد السلفية بأدلتها العقلية والنقلية: ابن حجر القطري
تحفة الإخوان فى صفات الرحمن: محمد بن محمد بن عبد العليم.
معالم الانطلاقة الكبرى: محمد عبد الهادى المصري
لسان العرب: ابن منظور.
محيط المحيط: بطرس البستاني
مجموع الفتاوى: ابن تيمية
نقض المنطق: ابن تيمية
كتاب الإيمان: ابن تيمية
منهاج السنة النبوية: ابن تيمية
بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول: ابن تيمية
النبوات: ابن تيمية
الفتوى الحموية: ابن تيمية
هداية الحيارى فى الرد على أسئلة اليهود والنصارى: ابن القيم
الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ابن تيمية
رفع الملام عن الأئمة الأعلام: ابن تيمية
الرسالة المدنية: ابن تيمية
الإكليل فى المتشابه والتأويل: ابن تيمية
الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة: ابن القيم
زاد المعاد: ابن القيم
مقارنة بين الغزالى وابن تيمية: د. محمد رشاد سالم

الرد على المنطقيين: ابن تيمية
منهج الماتريدية فى العقيدة: د. محمد بن عبد الرحمن الخميس
الإبانة عن أصول الديانة: أبو الحسن الأشعري
مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين: أبو الحسن الأشعري
معارج القبول: حافظ أحمد حكمي
فتح المجيد: عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ
شرح العقيدة الطحاوية تحقيق أحمد شاكر
شرح العقيدة الواسطية: خليل هراس
تقريب التدمرية: الشيخ محمد بن صالح العثيمين.
الصفات الإلهية فى الكتاب والسنة فى ضوء الإثبات والتنزيه: دكتور محمد أمان بن على الجامي
دعوة الشيخ محمد بن الوهاب (تاريخها-مبادؤها-أثرها): محمد بن عبد الله بن سليمان السلمان.
موقف الإمام ابن القيم من آراء المتكلمين: د. محمد سعيد صبرى صباح.
الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية: عبد العزيز المحمد السلمان.
إعلام الموقعين: ابن القيم
سير أعلام النبلاء: الذهبي
الأدلة والشواهد على وجوب الأخذ بخبر الواحد فى الأحكام والعقائد: سليم الهلالي
رسالة الحديث حجة بنفسه فى العقائد والأحكام، ووجوب الأخذ بأحاديث الآحاد فى العقيدة والرد على شبه المخالفين: الألباني
السلسلة الصحيحة للألباني
الاعتصام: الشاطبي
جامع العلوم والحكم: ابن رجب الحنبلي
حلية الأولياء: أبو نعيم
ترجمة الإمام أحمد: الحافظ الذهبي
البداية والنهاية: ابن كثير
تفسير ابن كثير.
تفسير القرطبي.
مفاتيح الغيب: الرازي
روح المعاني: الآلوسي

أضواء البيان: الشنقيطي
تهذيب موعظة المؤمنين: القاسمي
تمام المنة فى الرد على أعداء السنة: الشيخ محمد إسماعيل
منة الرحمن فى نصيحة الإخوان: الشيخ ياسر برهامي
فرق وطبقات المعتزلة: القاضى عبد الجبار
الملل والنحل: الشهرستاني
فصل الكلام فى ذم علم الكلام: يحيى مختار
صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام: السيوطي.
الإتقان فى علوم القرآن: السيوطي
محاسن التأويل: السيوطي
إحكام الأحكام: ابن حزم
الرسالة: الشافعي
فتح رب البرية بتلخيص الحموية: ابن عثيمين
كتاب الزيارة: ابن تيمية
الجواب الباهر فى زوار المقابر: ابن تيمية
تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد: الألباني
كتاب التوسل: ابن تيمية
الضوابط الشرعية لتحقيق الأخوة الإيمانية: الشيخ سعيد عبد العظيم
أدلة تحريم حلق اللحية: الشيخ محمد إسماعيل. ومعها رسالة (تبصير أولى الألباب ببدعة تقسيم الدين إلى قشر ولباب).
أصول الدعوة: د. عبد الكريم زيدان
الوجيز فى أصول الفقه: د. عبد الكريم زيدان
الإمام مالك: أبو زهرة
أصول الفقه: أبو زهرة
جذور العلمانية: الدكتور السيد فرج أحمد.
خواطر على طريق الدعوة: جراح وأفراح الشيخ محمد حسان
الإبداع فى مضار الابتداع: الشيخ على محفوظ
تحصيل الزاد: الشيخ سعيد عبد العظيم

الفهرس